الإصدار الثاني لرواق عوشة بنت حسين الثقافي - دبي

هويتي

د. موزة عبيد غباش

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

د. موزة عبيد غباش

هـويتـي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جميع حقوق النشر محفوظة للمؤلفة

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله، على أي نحو، أو بأي طريقة سواء أكانت "إلكترونية" أم "ميكانيكية"، أم بالتصوير، أم بالتسجيل أم خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من المؤلفة ومقدماً.

د. موزة غباش

دبي – رواق عوشة بنت حسين الثقافي

ص.ب: 11032 الإمارات العربية المتحدة

هاتف: 2611200- 009714 - فاكس: 009714-2616123

E-mail: dr.mouzaghubash@yahoo.com

Website: www.rewqousha.com

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المحتويات

مقدمة 7

الفصل الأول: المدخل إلى الهوية الإماراتية 17

الفصل الثاني: تكوُّن الأمة ورسالتها 37

الفصل الثالث: الهوية التاريخية والجغرافية للإمارات العربية المتحدة 61

الفصل الرابع: التنافس الاستعماري الغربي ومحاولات طمس الهوية الخليجية والإماراتية 87

الفصل الخامس: الإمارات العربية وتحديات القرن العشرين 123

الفصل السادس: الهوية الإماراتية بين اندفاعية الصحوة وخطر الوأد 163

الفصل السابع: الهوية بين الضرورات والمحظورات 181

الفصل الثامن: الهوية الإماراتية ومخاطر التغير الاجتماعي 197

الفصل التاسع: في استنهاض الهوية العربية ورسم المستقبل العربي: آراء نخبة من المثقفين العرب 237

خاتمة 271

المصادر والمراجع 281

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مقدمة

دعا صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان، رئيس الدولة –حفظه الله– إلى الاهتمام بالهوية الإماراتية، ودعوة سموه تلك لم تأتِ مصادفةً، أو من فراغ، أو في لحظة انفعالية –أطال الله عمره– وهاجس الحاكم المتطلع إلى مصالح شعبه، والمضطلع بمسؤولياته تفوق المدى الزمني لمدة حكمه ومصلحة هذا الحكم الآنية، لتحمل همّ شعبه الذي سيستمر بعده، فالحاضر هو الذي يبني جذور المستقبل، ومعالجة نقاط ضعف هذا الحاضر هي التي تؤسس لمستقبل سليم ومعافى، ومسؤولية الحاكم الصالح تجاه شعبه كمسؤولية الأب عن أبنائه، فعليه أن يستشرف الأخطار التي تهددهم ويعالجها قبل أن يستفحل الداء ويستعصي الشفاء. ولقد عرف التاريخ اندثار شعوب وتشتتها وضياع أوطانها حين فقدت هويتها، فالشجرة التي تنقطع عن جذورها، سريعاً ما يصيبها اليباس، والإنسان الذي فقد ذاكرته يفقد مصيره، والهوية هي جذور المجتمعات وذاكرتها، وهي بالتالي حافظة استمرارها وبقائها، ومخزن معرفتها وحكمتها، وبوصلة توجهها وملهمة عبقريتها وإبداعها.

لقد عرف الشعب الإماراتي نقلة هائلة في نصف قرن أو أقل، فقطع بهذه المسافة الزمنية القصيرة أشواطاً، تجد الشعوب صعوبة في عملية استيعابها على مدى قرون، ما يعرّض مجتمعه للانبهار، وفقدان التوازن إذا لم يقف متأملاً بحكمةٍ موقِعَه من ذلك كلّه، وهو ما فعله المغفور لهما الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان والشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم، بما عرف عنهما من حكمة وبُعد نظر، وصدق بصيرة، فاستطاعا أن يستخرجا القواعد الأساسية للنهضة في خضم يمٍّ عاصف بالمتغيرات، وأن يصيحا في هدأة السكون الفكري وافتقاد الرؤية، داعيَيْن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى منهج يطوي الشعارات التي كانت سائدة وتؤرخ لضلال العقود التي سبقت الاتحاد في أواخر القرن العشرين على سائر المستويات.

لقد استطاع الشيخ زايد والشيخ راشد -رحمهما الله- وحكام الإمارات السّبع جميعاً أن يؤصلوا المنهج لتأسيس ميلاد المجتمع وقواعد البناء الثقافي والاجتماعي والسياسي، واستطاعوا أن يحددوا موقع إنسان الإمارات في عالم الاقتصاد الحديث. من هنا كانت إشارتهم إلى المرتقى الصعب الذي يتوجب على الإنسان الإماراتي أن يسلكه بالكلمة الهادية، لكيفية بناء شخصية الإنسان الإماراتي وهويته.

سأنظر إلى الإمارات بواقعية وعن بعد، سأنظر إليها بصمت... لكنني وأنا أكتب أشعر بأنني أعود إلى وطني أو إلى ساحتي الوطنية. أنا لست مؤرخة لوطن، أنا كائن أنتمي إلى ساحة وطني، سأحاول أن أكون على قدم المساواة مع تاريخ بلدي، لأنني أفهم تطوراته المفاجئة وتحولاته.. تعقيداته وجوانب أصالته وضعفه، ومهما كانت ثقافتي واسعة أو محدودة فسأحاول التخلص من أهوائي في حبي لوطني لأتحدث عنه بموضوعية وجدية... إن أهواءنا تفرض علينا أحياناً أن نذهب بعيداً في التغني بالإمارات، وهذه الأهواء تعمينا عن رؤية الحقائق والتحولات. إنني أسجل أمام شعب الإمارات شهادة تاريخية حقيقية أتمنى أن تصل، لتكون لشعبي دستوراً لحياتهم ولحبهم لوطنهم.

وليس هذا كتاباً للتاريخ.. فلن أكتب بمنهجية المؤرخ، سأحاول أن أبرز أحداثاً مفصلية من هذا التاريخ تفصح عن هويتنا، وأنتقي من أحداث تاريخنا ما يخدم سياق الموضوع فقط.

إن تعريف ماضي الإمارات إنما يعني وضع الشعب الإماراتي في إطار وجوده، إننا نحتاج في خضم هذه التحولات الكبرى المحلية والعالمية إلى أن نُخرج

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تاريخنا من خلف الجدران، التي يحاول كُتُر حَبْسنا خلفها، وهم كُتُر، هناك مئتان وثمانون جنسية عرقية تعيش بيننا، أليست هذه أسوار تخفي تاريخنا وإرثنا؟... نعم، هذا هو الدافع إلى تدوين هذا الكتاب حول الهوية الإماراتية. إنها رسالتي إلى شعبي... إنها ضالتي، إنه واجبي أن أكتب عن هوية الإمارات وأتركها لشعبي ليعيشها كل يوم، بل كل لحظة، وألا ينسى الشباب والصغار والكبار أن تاريخنا هو هويتنا، إن تاريخنا وجغرافيتنا هما اللذان سيجيبان عن سؤالنا: من نحن؟ ما الإمارات؟ ما هي شخصية الإمارات؟ وما مكوّنات هذه الشخصية؟ إبراز هويتي هي رسالتي لشعبي.

من الواضح أننا "شعب" في صيرورة البناء أو إعادة البناء أو التشكل، ونحن في هذه الحالة لا نبني شخصيتنا بل نحاول إعادة تصحيح الصورة عن شخصيتنا وعن تاريخنا، وهذه مهمة ليست بسيطة. إننا أمام مشهد من الحقائق والمجريات الواقعية، والكائنات الحية التي تعيش تتابعاً زمنياً يوماً بيوم، وأسبوعاً بأسبوع، وسنة بسنة.

نحن في مرحلة استكمال بناء مجتمعنا وشخصيتنا وهويتنا. وعلينا نسج حلقات تاريخية تربط مراحلنا قديمها بحاضرها ومستقبلها، إنها مهمة صعبة.

مهمة تشكيل الشخصية والهوية الإماراتية:

علينا ألا نخطئ في هذا البناء، ولا نريد أن نقطع بين المراحل، بل علينا وصلها وربطها بعضها ببعض. هذا الربط هو الرواية المسلسلة لتاريخ الإمارات التي حفظناها جميعاً عن ظهر قلب في طفولتنا، بقدر من الانتشاء والفرح في صفحات كتاب المطالعة المدرسي، إلا أنه بالنسبة إلى من تجاوزوا الطفولة من بيننا، فإن نوعاً آخر من التاريخ يحملونه في ذاكرتهم وأنا منهم؛ إنني أحمل مسؤولية رصد المسؤوليات الضخمة التي ينطوي عليها تاريخ سحيق في القدم، وأود أن أستقي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هويتي من هذا التاريخ المتعدد المراحل. تلك الكتلة الضخمة التي تحمل داخلها تراثاً حياً لكنه غير واع في أغلب الأحيان، ولا يمكن اكتشافه إلا عن طريق تاريخ استقصائي أعمق، تماماً على نحو ما تسنى للتحليل النفسي في مستهل القرن العشرين أن يكشف عن أعماق الوعي الباطن. إني أود من خلال كتاب "هويتي" أن أرد على من كتبوا وقالوا إن تاريخ الإمارات تاريخ حديث، وأقول إن تاريخ الإمارات يمتد في مراحل تكونه عبر خمسة قرون، وليست هذه القرون إلا طرفة عين تلت انقطاعاً قسرياً لتاريخنا، فتاريخنا يبدأ مما قبل التاريخ، ممتداً عبر العصور وصولاً إلى تاريخنا الحديث والمعاصر.

إن الحياة الحضارية على أرض الإمارات ولدت مع ولادة الحضارة، وأود تأكيد أنني سأقوم بدراسة مجمل ماضي الإمارات ككل منذ فجر التاريخ إلى يومنا الحاضر، إذ ليس في تكوُّن الشخصية التاريخية انقطاع إن لم نعرضها للتبدد والضياع.

هل نحن شعب شاب كما يزعم بعضهم؟

هل جئنا إلى العالم من وقت قريب؟

عندما وجه صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد آل نهيان، رئيس دولة الإمارات، نداءه الشهير بأن يكون عام 2008 هو عام الهوية.. لم يكن هذا النداء وليد لحظة انفعالية، وإنما هو نتاج إفرازات عصر عايش كل ما فيه بأدق تفاصيله، ونهضة تأمل بكل ما يحيط بها من محاذير، ورغبة في الحفاظ على الكيان من الذوبان في مجهول اللاهُويّة، حيث تعالت الأصوات وتجيشت النظريات والدراسات لتذويب شعوب العالم، التي هي الكل المتباين في الخصائص والمقومات، في محاولة لإنتاج كيان واحد يمزج كل هذا التباين ليخرج مسخاً لا شكل له ولا مضمون.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هذا النداء لا يعكس تعصباً أعمى لوطنيتنا بقدر ما عكس غيره على قيم أصيلة لكيان نما منذ آلاف السنين وارتوت أرضه بدماء الأجداد والآباء ودموعهم وعرقهم، لتنبت أجيالاً متشابهة في الملامح والموروثات، ضاربة بجذورها في أعماق التربة الزكية المختلطة بتراب أجساد أجدادنا منبتةً أشجاراً شامخة وارفة يصعب على أعتى الرياح اقتلاعها.

وهو نداء عامٌّ ولكل الأعوام، ينبع من يقين بأصالة الإنسان.. ابن الإمارات الذي لم تستطع المحن في الأزمان السابقة أن تقطع جذوره، ويعكس الثقة بقدرة الجيل الحالي الذي أسهم في إخراج معجزة حضارية في زمن قياسي أبهر العالم في مشارق الأرض ومغاربها.. هذا الجيل يضطلع بمسؤولية كبرى، ألا وهي توصيل الأمانة إلى الأجيال التالية لتتواصل سلسلة العطاء من الأجداد عبر الآباء إلى الأحفاد.

عبَّر صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد بن سلطان آل نهيان، رئيس الدولة، في كلمته بمناسبة العيد الوطني الـ (37) عن قيمة الهوية بأنها كيان حي يعاد إنتاجه على مر السنين. وعندما أعلن أن دعوته لجعل عام 2008 عاماً للهوية الوطنية، لم يهدف بها من وراء ذلك إلى ربط الهوية الوطنية بجدول زمني "لأن الهوية ليست شعاراً لمرحلة وإنما هي إطار جامع يكون فيه موروث الإمارات الثقافي والحضاري بوصلةً لتوجيه تفاعلنا مع محيطنا".

شهدت الإمارات تطوراً ملحوظاً في عهد حكيمنا ووالدنا زايد -رحمه الله تعالى- وكان موضوع الهوية يؤرقه، بحيث لم يغب التذكير بها عن معظم الخطابات التي ألقاها أو التصريحات التي أدلى بها إزاء التطورات، ثم امتد هذا التطور واتسع بقفزة تنموية مذهلة في عهد صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد وإخوانه حكام الإمارات:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم، نائب رئيس الدولة، رئيس مجلس الوزراء، حاكم دبي.

صاحب السمو الشيخ الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، حاكم الشارقة.

صاحب السمو الشيخ حميد بن راشد النعيمي، حاكم عجمان.

صاحب السمو الشيخ سعود بن راشد المعلا، حاكم أم القيوين.

صاحب السمو الشيخ سعود بن صقر القاسمي، حاكم رأس الخيمة.

وصاحب السمو الشيخ حمد بن محمد الشرقي، حاكم الفجيرة.

مما وضَعَ الذاتَ الإماراتية في تحدٍّ كبير حتم على القيادة، في إطار دورها الفاعل لتحقيق المنجزات والحفاظ على المكتسبات، أن تطلق تلك الدعوة للمحافظة على هويتنا كأحد الأطر وأهمها التي تضمن لنا الامتداد والاستمرار في نفق الزمان.

إن الحديث عن الهوية هو في حقيقة الأمر إعادة كتابة التاريخ واستقراؤه من خلال صور واقعية لأفكار نحملها وتجسدت في داخلنا حباً لهذه الأرض.. أرض الإمارات.. إنها أنشودة حب للوطن من أبناء قُدّر لهم أن يعيشوا على أرضها وينعموا بخيراتها.

إن حرصنا على هذه الأرض المعطاء التي فاضت بعطائها في عهد صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد بن سلطان آل نهيان وأخيه صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم وإخوانهما حكام الإمارات، وحرصنا الكبير على مصالح الوطن، يدفعنا إلى الوقوف بحزم في مواجهة محاولات تمييع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الهوية، ذلك لأن هويتنا تحمل فلسفة وطن عربي لكيان إسلامي وبيئة بدوية، ومن مجمل تلك المضامين تبرز هويتنا العربية والإسلامية بلا تعصب أعمى أو تحزب لنظريات فلسفية ضيقة ولا علاقة لها بالواقع، ونشأت على غير أرضنا، وترعرعت في غير تربتنا.

إننا نريد أن نجيب عن سؤال الهوية (من نحن؟) إجابة شافية عقلانية ومنطقية وواقعية لأننا نتعامل مع كيان لإمارات متحدة استطاعت أن تجمع في نسيجها العام قبائل مختلفة من حيث المسمَّيات ولكنها متوافقة في السِّمات.

ونحن كدولة، نتحكم في مقدراتنا ولا نخضع لأحد ولا ينبغي لنا ذلك، حتى إن أتت الرياح ببعض غبار قد يتمثل في غزو ثقافي أو اقتصادي أو غيره من الأشكال، إلا أنه يبقى في النهاية مجرد غبار لا يصيب جوهر مقدراتنا التي تلمع وتتّقد تحت هذا الغبار ويزداد توهجها بمجرد نفضه عنها.

إن اتحاد الإمارات كائن حي ينمو ويتطور ويعيش مراحل متواصلة من المخاض والميلاد والارتقاء في عملية لا تنتهي لإعادة إنتاج ذاته.. هذا الكائن الحي يؤمن بالتعايش السلمي مع الإنسان الذي هو محور الكون، ودافعه في ذلك إيمان راسخ بعقيدته وثقافته وتاريخه وتراثه ووحدته وأرضه وسمائه وكل مكوناته، ولذلك لم يكن غريباً أن يحظى ذلك الكيان ومواطنوه بحب واحترام العالم؛ شعوباً وحكاماً.

تأتي فلسفة الدولة القائمة على احترام الآخرين بكل تنوعاتهم الثقافية والحضارية لتؤكد احترامنا لذاتنا وثقافتنا وحضارتنا، وتدفعنا إلى التمسك بقيمنا السامية، والحيلولة دون الخلط بين موروثاتنا الثقافية والحضارية وموروثات الآخرين، والعمل على انتقاء المفيد، والبعد عن الغث في العالم المحيط بفضائه المفتوح وتوجهاته وتحيزه، وهي معادلة صعبة ولكنها ليست مستحيلة، وموجبة للعمل على تحقيقها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعملية إبراز تاريخنا تحد كبير يحتاج الوصول إليه إلى بحث في علوم شتّى لنؤكد أن التاريخ الكلي هو التاريخ الصحيح، ولنمحو ما علق بأذهان البعض أن تاريخ الإمارات هو تاريخ مستحدث. وهنا نؤكد أنه لا يمكن اختزال تاريخ بمجرد التغيير في النظام السياسي من نظام قبلي إلى نظام وحدوي حديث، وعلينا أن نوسع دائرة الضوء عندما ننظر إلى أنفسنا.. إلى شعبنا.. إلى كياننا كمجتمع قديم عريق، وإذا آمنا بعكس ذلك نكون قد اختزلنا تاريخ أجدادنا، الذين قد يكونون قليلي العدد ولكنهم مجموعة صانت لغتها وحافظت على تراثها وتربتها ومعتقداتها ولم تذب في التاريخ.

إن هذا الواقع التاريخي يتدفق تحت سطح القشرة الأرضية، وظلت أحداثه تتراكم حتى وصلت إلينا لتؤكد عظمة الأجداد الذين لم يذوبوا على قلة عددهم، في متاهات الاختلاط بالشعوب الأخرى.

إننا نواجه سؤالاً ملحّاً: هل الأحداث الكبرى والتغيرات الشاملة التي تحدث الآن على أرضنا تعني أن نفقد سيطرتنا على مصيرنا؟ بالطبع لا.. فإذا كان الأجداد على قلتهم لم يفرطوا في كيانهم، فالأولى بنا بعد أن امتلكنا مقدراتنا ألا نسمح لذلك بأن يحدث.

إن الهوية صيرورة من الفعل الإنساني للتواصل إلى أجل غير مسمى، ولو حدث أن توقف فسوف ينهار كل شيء.. فكل أمة لا تكون لها كينونة إلا عبر البحث الدائم عن ذاتها، وتحويل نفسها دوماً باتجاه التطور المنطقي بمقارنة نفسها دونما انقطاع بالآخرين لتوحد نفسها بالجانب الأكثر جوهرية في وجودها، بعد ذلك يتسنى لنا أن نرى أنفسنا في صورة مختزنة من ألف عنصر وعنصر من التراث والمعتقدات واللغة، وفي وعي باطني لا حدود له.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إننا نتساءل: هل هناك أي إماراتي لم يطرح على نفسه أسئلة بشأن وطنه، على الأقل في الوقت الحاضر، وأجدادنا في الوقت الماضي، ولا سيما في تلك المرحلة من الكوارث والصراعات والضغوطات العالمية التي مر بها شعبنا، عندما غدا الخليج محط أنظار العالم كله وتجوب مياهه سفن الدول الاستعمارية الكبرى كبريطانيا والبرتغال، فلم توهن هذه القوى من عزيمته بل دفعته إلى الالتفاف حول ذاته ليصون هويته ويحافظ عليها من الذوبان.. هذا الاجتماع هو الذي منحنا استقلالنا، فقد أدرك المستعمرون صعوبة العيش على أرض غير أرضهم ومع أناس لا يتكلمون لغتهم ولا يحملون أوصافهم.. إنها الهوية حامية الإنسان من الاندثار.

إننا نتوجه بالحديث إلى الأبناء والإخوان لنحذر من أن السقوط لا يعقبه الوقوف دائماً، والسقوط قد يحدث للأفراد فيدفعهم إلى النهوض، أما الدول فإن سقوطها يحتاج إلى معجزات للوقوف من جديد.. والأمثلة في التاريخ أكثر من أن تحصى؛ فابن خلدون، الذي عاش مراحل الترف التي سادت قبل سقوط الحضارة العربية، وصف لنا الظروف التي عايشها، وأدت إلى سقوط الحضارة العربية وما تبعها من ذل وزوال نعمة، في كتابه "كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر" وهذا الكتاب يجب أن يكون لنا عبرة لنحفظ نعمتنا واستمرار دوام دولتنا، إذ قال في معرض مقارنته مع مُثُل الأخلاق البدوية "(...) أهل الحضر، فهم لكثرة ما يعانون فن الملاذ وعوائد الترف والإقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها قد تلوثت أنفسهم بكثير من مذمومات الخُلُق والشر وبعدت عليهم طريق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة..."[1]، ويختم كلامه في خبر هذا المبتدأ فيقول "إن الحضارة هي نهاية

(1) ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، المقدمة، طبعة المطبعة الأدبية في بيروت، 1879، ص 107.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العمران وخروجه إلى الفساد ونهاية الشر والبعد عن الخير، فقد تبين أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر والله يحب المتقين (...)"[2].

ويستلهم هذا الكتاب روح مؤسس الإمارات وحكيمها وقدوتها وباني كيانها ووحدتها الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان –رحمه الله تعالى– تخليداً لروحه وحفاظاً على نهجه.

أخيراً أتقدم بالشكر الجزيل لصاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد بن سلطان آل نهيان، الذي كانت دعوته إلهاماً لنا لإصدار هذا الكتاب، وأتوجه بالشكر الجزيل إلى ولي عهده الأمين الفريق أول سمو الشيخ محمد بن زايد آل نهيان وأخيه صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم وجميع حكام الإمارات وقياداتها حاضرهم وغائبهم الذين تفانوا وأفنوا ذواتهم في سبيل إعلاء دولة الاتحاد.

والشكر موصول أيضاً إلى مركز الوثائق والبحوث وعلى رأسه سمو الشيخ منصور بن زايد بن سلطان آل نهيان على تقديمه تمويلاً لهذا العمل العلمي الجاد لنتمكن من إنجازه بالصورة التي تستحقها دولتنا الغالية (دولة الإمارات العربية المتحدة).

موزة غباش

إبريل/ نيسان 2009

(2) ابن خلدون، المصدر السابق، ص 108.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الباب الأول

الفصل الأول

المدخل إلى الهوية الإماراتية

"إن الأمة العربية عظيمة بماضيها العريق، وهو ماض يحق لها أن تفخر به أمم الأرض"

الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان –طيّب الله ثراه–
أكتوبر 1971م

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مفهوم الهوية

يقول الدكتور سالم لبيض[3] "لقد فرضت كلمة الهوية نفسها في الفكر الفلسفي عامة، والفكر الفلسفي العربي على وجه الخصوص. ففي المستوى الأول استُعمل المصطلح في الإرث الفلسفي الأرسطي بمعنى الموجود[4]، وفي المستوى الثاني يدل المفهوم على ما به يكون الشيء هو نفسه. ويقول الفارابي "هوية الشيء عينيته وتشخصه وخصوصيته ووجوده المنفرد له، أي الذي لا يقع فيه اشتراك"[5] "ويميز الجرجاني بين الماهية والهوية والذات والجوهر"[6]، وقد ورد في الموسوعة الفلسفية العربية "وتستعمل كلمة هوية في الأدبيات المعاصرة مطابقة للمصطلح الإنكليزي (Identity) والمصطلح الفرنسي (Identite) معبرة عن خاصية المطابقة، الشيء لنفسه أو مطابقته لمثله"[7].

وليست الهوية على أي حال ملكة طبيعية تولد مع الأفراد أو الجماعات، فهؤلاء لا يولدون كما يكتب برنتون "بمهارة وراثية، فالإنكليز مثلاً لا يولدون كمواطنين يحترمون القانون ويتميزون بفطرة سياسية سليمة، وكذلك الألمان لا يولدون برغبة وراثية في الخضوع للسلطة... ولكنهم كانوا يتعلمون ويتثقفون وكأنهم ولدوا كذلك، فتكون النتيجة واحدة"[8]، وإذا كان التمايز بين المجموعات البشرية ولا سيما القديمة هو واقع راهن وحصيلة تاريخية، فإن ذلك لا يعود إلى أسباب إثنية أو بيولوجية أو نفسية أو عقلية ثابتة أو بارزة المعالم، إنما تبرز هذه الخصائص

(3) لبيض، د. سالم، الهوية، الإسلام، العروبة، التونسية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009م.
(4) فتحي المسكيني، الهوية والزمان، تأويلات فينومينولوجية لمسألة "نحن"، دار الطليعة، بيروت، 2001م.
(5) الموسوعة الفلسفية العربية.
(6) المرجع السابق.
(7) المرجع السابق.
(8) Brinton, Crane, ideas and Men, printice-hall 1950, 41

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لدى الأفراد والمجموعات بفعل الإحياء التثقيفي والتنشئة الاجتماعية القائمة على قيم تفخر بها هذه الأمة ومستمدة من تراثها، وبالتكون التاريخي لشخصيتها.

والقيم وقواعد السلوك المشتركة، تجد جذورها من تفاعل الإنسان مع الطبيعة ومن التجربة التاريخية التي تعيشها المجتمعات، فالأعراف وتقاليد الضيافة والكرم والإجارة والشهامة العربية مثلاً لا يمكن فصلها عن منشأ هذه المجتمعات في بيئة صحراوية نشأت فيها كحل إنساني لضرورات ومشكلات فرضتها البيئة الطبيعية، وعلى ذلك فإن قول أليكس ميكشلي إنه "يمكن للإنسان أن يحدد لنفسه صورة هويته. وذلك هو نمط الهوية المعلنة ذاتياً"(9) لا ينطبق بنظرنا على مفهوم الهوية، فالهوية هي أولاً وقبل كل شيء ما يُعَرِّفُنا به الآخرون فمهما كان موقفنا من عروبتنا، فإن ما يعرفنا به أي أجنبي هي صفة عروبتنا قبل أن يعرف شيئاً عن معتقداتنا وهي ما تتميز به شخصيتنا من خلال التكوين التاريخي للمجموعة التي ننتمي إليها، وتتبلور الهوية القومية في الواقع على التثقيف الدقيق بها ويكتسبها المرء من خلال العادات والتقاليد والأعراف التي ينشأ في ظلها، والتي هي حصيلة تاريخها.

وفي رأينا، فإن مفردة "الهوية" تحمل مدلولات كثيرة تتفق في ظاهرها اللغوي، ويضيق مدلولها ويتسع تبعاً لسياق الموضوع وماهيته.

فهذه المفردة مثلاً تستعمل في بعض الأقطار العربية بمعنى البطاقة الشخصية، وهي بهذا المعنى تشير إلى الشخص ذاته، فتعرفه وتميزه عن غيره وبالتالي تستبطن صفاته، وهي بهذا المدلول تفيد التطابق ولا تتحمل أي معنى من معاني التباين والاختلاف ولا تستبطنه، وقد يستعار مجازياً مدلولها لتشير إلى انتساب المنعوت إلى معتقد أو نمط حضاري أو ثقافي كأن تنسب الفرد إلى معتقده فتشير

(9) ميكشلي، أليكس، الهوية، ترجمة د. علي وطفة، دار النشر الفرنسية، دمشق، 1993م، ص 97.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى إحدى الخصائص المفردة من خصائص المنعوت دون غيرها، وقد يكون المنعوت جماداً فتكون النسبة إلى نمط ثقافي يشمله، كأن تقول هوية حضارية، أو هوية مدنية أو هوية نص أدبي أو هوية لوحة فنية.. إلخ، وفي هذه الحال، فإن كلمة "هوية" لا تشير إلى خصوصية إنما إلى الانتماء إلى نمط أو ثقافة.

أما حينما يكون المقصود من مفردة الهوية الإشارة إلى جمع بشري لتمييزه عن غيره، فإن التطابق بين الأجزاء المكونة ينتقي من جوهر التعبير اللفظي: ويصبح المقصود السمات العامة المميزة بديلاً للخصائص الذاتية، ويغدو المعنى دلالة إلى المشترك من الصفات الذي يعطي كلمة الهوية مدلولاً لنعت يشمل هذا الجمع البشري، وهذا الأمر يطرح علينا إشكاليتين تستوجبان التوضيح: الأولى ما هو ثابت وطبعي وموروث، والثانية ما هو متغير ومتحرك، ومُكتسب ومُختار.

أما ما هو ثابت وموروث وهو المشترك الأثبت، إن لم يكن الأعم، فهو ما نولد عليه ولا يكون لنا أي قدر من الاختيار فيه، وهو الذي يثبت صفاتنا، لذا غدا المشترك الأثبت والأعم لهوية المجموعات البشرية هو الأمر الذي يرتبط بتطور تاريخي لا يمكن احتسابه بالقرون، فهو انتسابنا للسلالة البشرية والأرض التي نشأنا عليها واللغة التي نعبّر فيها عن مكنوناتنا.

فالثابت في هوية الفرد مثلاً، مكان ولادته وتاريخها، ومن هم أبواه وتكوينه البدني، وكل ما تبقى قابل للتغيير.

أما الأثبت فيما هو متغير ومتحرك ومختار ومكتسب في هويتنا كإماراتيين، والذي يكاد أن يكون تطبعاً غلب الطبع في تراثنا وتكويننا وتربيتنا وانتسابنا، فهو معتقدنا في ديننا الإسلامي الحنيف، الذي بالإضافة إلى كونه، (وبأحدث مفاهيم التحليل العلمي النفسي الاجتماعي الحديث)، أحد أهم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مكونات لا وعينا الاجتماعي، الذي ندين له بكثير من مفاهيمنا وثقافتنا الموروثة، التي أصابها ما أصابها من التشوه بالغزو الثقافي الغربي، ومنظوره المادي البحت، وذلك يحتم علينا الحرص على العودة إلى جوهر ذواتنا، وتطوير فهمنا لمضمونها في ضوء العلوم الحديثة.

مفاهيمنا التي يجب أن نفخر بها كونها جعلت منا {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ}[10] هذا الدين يجب أن نكون أكثر التصاقاً بجوهره وتعاليمه القِيَمية والإنسانية لنستحق ما وصفتنا به الآية الكريمة، فمما يجب أن يخص الدين بالمتغير والمتحرك، فهو بحاراة فهمنا وتفسيرنا له لمكتشفات العلوم الحديثة ومواكبتها حتى لا نخالف الوصايا الكريمة "اطلبوا العلم من المهد إلى اللحد" "واطلبوا العلم ولو في الصين" وحثه لنا على القراءة، وبذلك لا نخالف السلف الصالح في توجهه وقصده، إنما مرد الاختلاف في حال وجوده يعود إلى ما اقتصر عليه علمهم من فهم الآيات الكريمة، بالقياس الذي وصل إلى علمهم من علوم عصرهم وسوية هذه العلوم، ولا سيما أن ما ميز الله عز وجل الإنسان به على باقي المخلوقات، قدرته على التطور وزيادة معارفه وقدرته على اكتشاف عجائب هذا الكون التي تثبِّت الإيمان بالخالق لكل ذي بصيرة.

أما ما هو متغير ومتحرك ومختار ومكتسب، فهو تبدل نمط الحياة والعمران والثروة والاتصالات، والإعلام والمواصلات وما إلى ذلك من تغيرات متسارعة أدت إلى تحولات عميقة في كل التجمعات البشرية، حتى الشعوب التي واكبت تطور هذه الأنماط من بدايته وتكيفت تدريجياً معه.

وما جرته جغرافية الإمارات وثرواتها من تدفق بشري هائل من مئتين وثمانين جنسية، جعل من أصحاب الأرض والوطن أقلية ضئيلة في خضم هذا

(10) سورة آل عمران، الآية 110.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التدفق الهائل، وبوحي من هذين الثابتين، وبضبط التحولات بموجباتهما نحفظ الشخصية الإماراتية التي تحفظ الوطن، أي نحفظ مستقبل الأولاد والأحفاد وعزهم وكرامة عيشهم.

فما خصائص الشخصية الإماراتية في خضم هذه التحولات الهائلة وكيف يمكن الحفاظ عليها للحفاظ على هذا الوطن؟ ذلك ما يتطرق إليه بحثنا في الهوية. وتلك هي الغاية من هذا المؤلَّف.

الدولة والأمة
بين المؤتلف والمختلف

رأى فلاسفة السياسة في العصر الحديث وعلى رأسهم جان جاك روسو في كتابه "العقد الاجتماعي" 1762، أن الدولة تقوم على إرادة مشتركة لدى مجموعات وأفراد يقيمون على رقعة جغرافية محددة لتشكيل كيان سياسي واحد يدير شؤونهم، ويحفظ أمنهم وذاتيتهم، فهي بهذا المعنى عقد بين هؤلاء جميعاً يتأسس على مصلحة أو فكرة أو معتقد أو أهداف محدودة وما إلى ذلك... أو إلى هذه الأشياء مجتمعة فينشئ هؤلاء عقداً ينضوون تحت لوائه لبناء هيئات ومؤسسات توحدها هرمية تعمل على تحقيق هذا التوجه وهذه الأهداف، ويثبتونه بالعرف أو يوثقونه في دستور مكتوب.

وحينما نتكلم عن عقد بين طرفين أو أكثر، فمن البديهي أن يجسد مضمون هذا العقد المشترك بين المتعاقدين، وهو ما يدفع إلى قيام هذا العقد وما يحدد الهدف منه، وحيث إن العقد أي عقد بمضمونه قد ينحصر في مسألة صغيرة ومحددة في الزمان أو الهدف، أو يتسع ويتعاظم اتساعه ليشمل ما لا حصر له من المصالح ولأفق زمني غير محدد، كما هي حال التوافق على قيام دولة، فإن الموضوع يتسع من الخاص والمحدود إلى العام والشامل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومن دون الحاجة إلى الاستفاضة في هذا الأمر، نقول إن مضمون العقد يتأسس على المشترَك ويعبِّر عنه، والتعبير عنه يتدرج من التخصيص إلى التعميم تبعاً لشمول موضوعه، وحيث إن مضمون هذا العقد لا يتضمن كامل شخصية المتعاقدين أو أهدافهم، سواء كانوا أفراداً أو جماعات، بل ما هو مشترك من ثقافة ومصلحة وأهداف ومعتقد، دون أن يمس خصوصياتهم أو يلغيها، فإنه يرسخ التنوع في الوحدة فيقرّ به ويحميه (في حال كونه عقداً اجتماعياً)، ومن دون هذه الخصائص يغدو أي عقد مستحيلاً وضرباً من الخيال، للاختلاف بين الأفراد، فكيف بين الجماعات. فالعقد الاجتماعي المنشئ لكيان سياسي إذن يتأسس على المشترك بصفة التعميم، وينحل حينما يبدأ أطرافه إبراز الخصوصيات والتقوقع حولها.

هذا المشترك في "العقد الاجتماعي" المضمر أو المكتوب بين المجموعات التي يتشكل منها ليس نظرية ابتدعها روسو، وإن يكن هو من بلورها وعبَّر عنها، وصاغ حولها نظرية كان لها تأثيرها في قيام الدولة الحديثة وفقاً لمفاهيم ومقاييس إنسانية جديدة تتناسب مع متطلبات العصر ومع عمل الإنسان على حل تناقضات واقعه، وتطلعه للأفضل، فعلى هذا المشترك قام الولاء للدولة منذ كانت الدولة، سواء بُني على عقيدة أو مصلحة أو على كليهما، ففي مصر الفرعونية مثلاً قامت الدولة الأولى على عبادة الفرعون "الإله" المنظم للمجتمع وحامي أمنه، وعلى قاعدة هذا المشترك، بُنيت الأسس الأخلاقية للوطنية، التي تجعل الدفاع عن هذا المشترك وحتى الاستشهاد في سبيله شرفاً عظيماً ومجَّداً، باعتباره ترفعاً عن الذاتية في سبيل المصلحة الاجتماعية العليا؛ إذن ينبني العقد الاجتماعي المتمثل بالدولة، على الحاجة المشتركة والأيديولوجية الناشئة عنها لحمايتها، والتي تختلف باختلاف الدول والتي ترسخ وحدة المجتمع وتبني قوته ومناعته، وذلك بالتركيز على المشترك والمؤتلف والقبول الجماعي بما هو متباين ومختلف، ما لم يمس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالمشترك أو يشكل تهديداً له، وعلى ذلك فإن مصلحة الأجزاء تبقى مشروعيتها مرهونة بمصلحة الكل وعدم تعارضها معه، وتفقد مشروعيتها حين تؤذي الكل، حيث إنها بذلك تؤذي نفسها باعتبارها جزءاً من هذا الكل، فتقديس المشترك والقبول بالتباين غير المناقض لهذا المشترك، هو أساس قيام الشكل الأعلى للاجتماع السياسي لمجتمع ما، المتمثل بالدولة وهو الذي يحفظ بقاءها واستمرارها.

والدولة التي تُبنى على غير المشترك والمؤتلف، أي على ما هو متباين ومختلف ولا يوحِّدها هدف مشترك أعلى، لا يمكن أن تحفظ أمنها الداخلي وتؤمن ديمومتها واستمرارها.

والثقافة والأمن والمصلحة المشتركة، هي الأسس الواجبة لقيام المجتمع السياسي الأمثل، وأساس المشترك الأعم الموحّد، والمحدد لمقتضيات اتساع الدولة الأمثل.

والدولة التي تجعل من المساحة الجغرافية شعاراً لها، ولا تقرنه بالعمل الثقافي المشترك والموحّد، لا تلبث أن تطفو فيها مظاهر ما هو مختلف، فيسقط الولاء للوطن لمصلحة الولاء للمجموعة أو للعشيرة والمنطقة والطائفة لا بل المذهب، فيتقوض الولاء لها، ليغدو ولاء للخاص والمختلف فيتفتت كيانها ويندثر، ويقصر فيها الوعي عن إدراك أن أي ضرر يلحق بالوطن يرتد على كل مكوِّناته وشرائحه، وأن الضرر الذي يلحق بالكل يطول جميع الأجزاء وبالتالي فإن دولة كهذه تفتقد الهوية وتبقى على صراع دائم حولها، وفي مثل حالة الدول التي تتألف من مجموعات بشرية متنوعة كدولة الإمارات العربية المتحدة لا تستقيم أمورها ما لم يقرن الهوية الثقافية بالمساحة الجغرافية، وما لم يرتبط حس المواطنة والولاء لها بالقبول بهوية الدولة، واعتبارها الإطار الجامع لمصلحة الوطن. أي ما لم يقم العقد الاجتماعي فيها على مفهوم المواطنة وعلى عروبتها وإسلامها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يقول المفكر الهندي أمارتيا صن "ويمكن أن يقدم الشعور بالهوية مساهمة مهمة لجعل العلاقة مع الآخرين قوية ودافئة، مثل الجيران أو أعضاء الجماعة أو المواطنين أنفسهم من أبناء الوطن أو التابعين للديانة نفسها. ويمكن أن يثري روابطها تركيزنا على هويات معينة، ويجعلنا نفعل أشياء كثيرة لبعضنا بعضاً، ويمكن أن نتجاوز حياتنا المتمركزة حول الذات"(11).

ويضيف في مكان آخر بعد أن يعرض العلاقة التي تربط أحياناً الهوية بالعنف "إذا كان التفكير القائم على الهوية يمكن أن يستجيب بسهولة لمثل هذه التلاعبات القاسية، فأين يمكن أن نجد العلاج، لا يمكن أن يكون السبيل هو محاولة كبح أو كظم استحضار الهوية بشكل عام. لأن الهوية -بداية- يمكن أن تكون مصدراً للثراء والدفء، كما يمكن أن تكون مصدراً للعنف والترويع، وسوف يكون من غير المعقول أن نعتبر الهوية شراً على العموم"(12).

وإذا كانت بعض الهويات القومية قد حملت روحاً عدوانية نحو الهويات الأخرى، فهويتنا العربية-الإسلامية لم تكن يوماً إلا داعية للتسامح، فعلى أرضنا العربية ظهرت كل الأديان السماوية الداعية إلى المساواة بين البشر وإلى المحبة، والتي كان ختامها دين الإسلام الحنيف ومن تعاليمه أن "لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى".

واعتماد القوانين المدنية المستمدة من الدين كما هي حال قوانين الإمارات العربية المتحدة، من شأنه أن يجنب الدين وزر الأخطاء التي يمكن أن ترتكبها الدولة ومن التلاعب بالفتاوى لمصلحتها، من أجل عدم تكرار الأخطاء التاريخية التي مرت في التاريخ العربي وأسقطت الحضارة العربية.

---

(11) أمارتيا صن، الهوية والعنف، عالم المعرفة، الكويت، يونيو 2008م، ص 18.
(12) أمارتيا صن، ص 19-20.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الهوية والدولة الحديثة

وقد أدرك فلاسفة السياسة وكبار السياسيين بعد عصر النهضة الأوروبية أهمية الهوية الجامعة لمختلف مكونات الدولة وأثرها بالنسبة إلى حفظ أمنها الخارجي وسلامها الداخلي.

والأمن، كما يرى أبو فلسفة السياسة الغربية الحديثة توماس هوبز[13] "هو الشرط الأول لقيام الدولة واستقرارها، وللعمران والتطور الاجتماعي والاقتصادي... إلخ"؛ أي هو الشرط الأول لقيام الدولة، وانطلاقاً من هذه النظرية الأولى التي غدت مسلمة في الفكر السياسي الغربي الحديث، شغلت مسألة الهوية عقول فلاسفة السياسة وكبار السياسيين كذلك، فيما يتعلق بحفظ السلم الأهلي في الداخل، والدفاع عن الدولة حيال الخارج. والذي يؤمن هذا التماسك الداخلي ويتوج المصالح المشتركة كافة ويجمعها تحت سقف واحد، ويؤطرها في إطار موحد، وهي منشأ الولاء لهذه الدولة، أي أنها العامل الإيماني الأيديولوجي، والصفة الجامعة الموحدة أو المُشترك العام الموحد.

وقد أولى عالمُنَا العربي الكبير المعاصر الدكتور ندم البيطار، الذي يلقبه علماء الاجتماع في الغرب ابن خلدون الجديد، مسألة الهوية القومية اهتماماً كبيراً وأفرد لها كتاباً يحمل عنوان: "حدود الهوية القومية- نقد عام"[14] تطرق فيه بإسهاب إلى هذا الموضوع، وشرح أهميته وأبعاده، واستعرض العديد من نظريات الغربيين حوله، وقيَّم مدى علمية هذه النظريات، ولكن على أي حال، ومع

---

(13) هوبز، توماس 1588-1679، فيلسوف إنكليزي، ويعتبر أول فلاسفة السياسة في النهضة الأوروبية، تأثرت فلسفته بثورة القرن 17 في بريطانيا، هوبز اعتبر أن الأمن هو الشرط الأول لاستمرار الحياة الاجتماعية ولقيام الحضارة، وهو أول من أطلق نظرية العقد الاجتماعي.

(14) د. ندم البيطار، حدود الهوية القومية – نقد عام، دار بيسان – ط2 –كانون الثاني 2002م – بيروت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأخذ في الاعتبار الدراسة القيمة للدكتور البيطار، فإن دراسته تظهر لنا بما لا يترك مجالاً للشك الاهتمام الذي أولته فلسفة السياسة في الحضارة الغربية الحديثة لموضوع الهوية، في قيام الدولة الحديثة، ولو أن معظم أولئك المفكرين والفلاسفة، كما يرى الدكتور البيطار، قد ذهبوا في طروحاتهم مذهباً ميتافيزيقياً لا يندرج تحت تصنيف النظريات العلمية، فـ (اخترعوا) صفات أو نظريات لهويات تجمع شعوب دولهم في ظل ولاء لـ (صفة أو إحدى الخصائص) تعمق بينهم الرابطة لمواجهة تحديات الخارج، وتؤسس لأمن الداخل، نظراً إلى افتقار شعوبهم إلى النظرة الموحدة لهويتهم أو لمقوماتها.

وليس هدف هذا المؤلف وغايته هو البحث النظري والفلسفي العام لموضوع الهوية، إنما بحث الهوية الإماراتية بشكل حصري ومحدد، فإن استعراضنا الموجز والسريع القصد منه الإشارة إلى أهميتها في إنشاء الدول الحديثة، ومقارنة الإشكاليات التي يثيرها في الكثير من مجتمعات هذه الدول، لمقارنة ذلك، بوضوح الهوية الإماراتية وثبات أسسها مقارنة بما ترفعه الدول شعاراً لهويتها. حينما نتطرق في الفصول اللاحقة إلى هذا الموضوع.

يقول: فرنان برودل، وهو المؤرخ الفرنسي المعاصر والذي يتمتع بمكانة فكرية وعلمية مرموقة "فما الذي نعنيه بهوية إن لم تكن إشكالية محورية وإن لم تكن فرنسا تصوغ نفسها بيديها، وإن لم يكن الحاضر النتيجة الحية لما راكمه الماضي الذي لا نهاية له وأنه جماع رواسب وخليط، وشيء مكون من الإضافات والامتزاجات، إنها صيرورة وتلاطم ذاتي، مصيره التواصل إلى أجل غير مسمى"[15]. ويقول في مكان آخر "فرنسا اسمها التنوع"[16] و"الجميع يعرفون أن في فرنسا سلسلة

(15) فرنان برودل، هوية فرنسا، ترجمة بشير السباعي، منشورات المركز الفرنسي للثقافة والتعاون، القاهرة، 1999م، المجلد الأول، ص 17.
(16) فرنان برودل، ص 28.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خرافية من المشاهد الطبيعية والجماعات العرقية والأسطح وأنواع الجبن"[17]؛ وخلافاً لما كتبه عديد من المفكرين والسياسيين وفلاسفة سياسيين ادعوا لبلدانهم فضلاً أو صفة مميزة تجمع بينهم، كالإبداع، أو الشجاعة، أو حب النظام، وما إلى ذلك من أوصاف ونعوت، يرفعونها شعاراً مُوحداً لشعوبهم ليبنوا عليها هوية تربط أواصر هذه الشعوب، وفي ذلك خروج على المنهج العلمي والموضوعية في الفكر الغربي الاجتماعي الحديث، لكنه في آن يظهر مدى حاجة الدول الملحّة إلى ابتكار "هوية" توحد شعوبها، على اختلاف جذورها الإثنية والثقافية.

وبالمقارنة مع موضوعنا الذي نحن بصدده، أي موضوع الهوية الإماراتية، نرى أننا لسنا بحاجة إلى منظرين أو مفكرين سياسيين أو نفحات شعرية تخترع الهوية الإماراتية وتقنع شعب الإمارات بها، فالانتماء العربي الإسلامي هو مسلّمة وبديهية، لا يختلف عليها اثنان من الإماراتيين، وهي الهوية الراسخة والتاريخية والتي لا تحتاج إلى تنظير، أو تبشير، فـ "الأفراد الذين ينشأون في وسط اجتماعي ثقافي واحد يكشفون، برغم الاختلافات الفردية، عن سمات واحدة متماثلة، وأنه كلما زادت وحدة هذا الوسط، زادت وحدة هذه السمات"[18]. وينطبق هذا القول على سكان الإمارات العربية المتحدة.

إذن ليست غاية هذا الكتاب اكتشاف الهوية الإماراتية، إنما سبر غورها والكشف عن أبعادها وعن خصوصيتها التي تمثل التنوع في الوحدة وطبيعة دورها التكاملي الذي تحتمه هويتها، ويمثل امتدادها الطبيعي الضامن لأمنها وسائر مصالحها. وإذا كانت كثير من الدول تبحث عن مشتركات في تاريخ تكوينها لتضمن وحدتها، فإن هوية الإمارات تغوص عميقاً في التاريخ ولا تعوز إلا الكشف عنها.

---

(17) فرنان برودل، ص 35.

(18) البيطار، مرجع مذكور آنفاً، ص 14.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وحيث إن هوية الأمة هوية تاريخية والتاريخ هو الذي يشكلها، فإن الكشف عن أبعاد الهوية وخصوصياتها يحتم علينا العودة إلى التاريخ.

وعلى الرغم من أن تطور وسائل النقل والاتصال، جعل العالم (قرية صغيرة) ونشّط إلى حد كبير تفاعل الثقافات وتمازجها، وعلى الرغم من أن اكتشاف العالم الجديد، أوجد دولاً أبرزها الولايات المتحدة الأمريكية وأستراليا، وهي دول متعددة الجنسيات والشعوب والثقافات، فإن ذلك لم يحل دون بحث هذه المجتمعات والدول عن هوية موحدة تربط مجتمعاتها، فالولايات المتحدة مثلاً ترفع شعارات سياسية كالحرية والديمقراطية وتحولها إلى مشروع هوية، وذلك ما ظهر جلياً في الولايات المتحدة مثلاً بعد أحداث 11 سبتمبر 2001.

وفي حين رفع المحافظون الجدد شعار العولمة وحاولوا فرضه على العالم كبديل لهويات الشعوب كانوا هم أنفسهم يبحثون عن هوية لتمتين الرباط الوطني في دولهم إذ رفعوا شعارات الديمقراطية وحقوق الإنسان كهوية موحِّدَة لمجتمعهم.

وإذا كانت العصور السابقة المتتالية قد عرفت هيمنة وطغيان حضارة ما على كل منها حتى عُرّفت العصور باسم هذه الحضارات كقولنا العصر اليوناني أو الروماني أو العربي وتلك مظاهر عولمة، فإن أياً من هذه الحضارات لم تستطع أن تلغي هويّات الآخرين، وإن تكن هذه الهويات قد تفاعلت مع الحضارات الغالبة وتأثرت وأثرت فيها، لذا لم تلبث نظريات العولمة الحديثة كسابقاتها أن سقطت مع سقوط المحافظين الجدد الداعين إليها، بعدما استطاعت أن تقنع عدداً كبيراً من السياسيين والمفكرين بأنها (نهاية التاريخ).

فهويات الشعوب هي حصيلة تكوّن يضرب جذوره العميقة في التاريخ، ولا تستطيع قوة عسكرية أو شطحات خيال منظرين مهووسين أن تبدلها أو تلغيها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وينقل الأستاذ سعيد الصديقي[19] عن ميكسل قوله في معرض استعراضه لهويات الدول "وعندما نتحدث عن الدولة القومية أو الوطنية، فهي ليست بالضرورة دولة لقوم أو عرق واحد، فباستثناء آيسلندا التي تشمل المثال العرقي الأوحد على خريطة العالم لدولة قومية تتألف من شعب واحد في دولة واحدة، فإن جميع دول العالم تضم مزيجاً من الأعراق والإثنيات والثقافات والديانات، غير أن الافتقار إلى (النقاء الثقافي) لم يمنع أغلب الدول من اعتبار نفسها دولاً قومية"[20].

والمواطنية، برغم تفاوت مفاهيمها على مرّ العصور، "من المواطنية الإسبارطية في الدولة اليونانية القديمة إلى المواطنية الحديثة"[21]، في أكبر ممثل في الوقت الراهن لدولة متعددة الإثنيات كالولايات المتحدة الأمريكية، ظلت المواطنية تعتبر عاملاً من العوامل الموحدة والجامعة بين مكونات شعوب الدول، وعامل ولاء للدولة بغض النظر عن هوية الدولة، كون مصير المواطنين وأمنهم الاجتماعي والاقتصادي، وكون استقرار حياتهم كذلك، ترتبط جميعها بحال الدولة التي ينتمون إليها، من عسر ويسر، واستقرار واضطراب.

---

(19) الصديقي، سعيد، الدولة في عالم متغيّر، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبوظبي، 2008م، الصفحة 7.

(20) M.W. Mikessel, "the Myth of the Nation State" journal of geography, n 82. 1983, p. 257

(21) انظر ديريك هيتر، تاريخ موجز للمواطنية، دار الساقي، بيروت، 2004م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هوية الأمم والمجتمعات
في حاضرها وسياقها التاريخي

تمر الأمم بمراحل صعود وهبوط، ولها في كل مرحلة من هذه المراحل شخصيتها التي تعبر عن حالها، وهذا ما دفعني إلى اختيار تعبير الهوية "للدلالة على الخصائص العامة التي تشكل السمة المشتركة لهذه المرحلة، والتي تتجلّى في مراحل تقدم الأمم وصعودها وتجلّي خصائصها، وتتراجع وتخبو حتى تكاد تنحصر في لا وعي المجتمعات ولا تظهر جلية في حال تقهقرها"[22] وقد يتقهقر المدى الجغرافي والديموغرافي لملامح الهوية في حاضر الأمم لينحصر في مجتمعات صغيرة ومغلقة، وفي بعض نخبها التي تؤمّن التواصل بين ماضيها وحاضرها ومستقبلها في عطائها الفكري والفني والأدبي.

وشخصية الأفراد والمجتمعات هي "حصيلة تجربتهم التاريخية والظروف الموضوعية التي تمر بها الحضارة التي ينتمون إليها، وأثر هذين العاملين في وعيهم الظاهر والباطن ومستوى معرفتهم وسيكولوجيتهم"[23] وشخصية الشعوب خلال مراحل تطورها هي التي تحدد طبيعة رد الفعل المرحلي في مواجهة التحديات والظروف التي تواجهها، ولا يكون لرد الفعل هذا صفة الثبات والدوام، إلا بمقدار مقاربته لهوية الأمة.

وعلى ذلك فلا يمكن بهذا الفهم وهذا القياس الحكم على هوية الأمم من خلال خصائص شخصيتها في مرحلة تاريخية محددة، أكان ذلك بالسلب أم

---

(22) انظر: د. ندم البيطار، التاريخ كدورات أيديولوجية وفكرة المجتمع الجديد، دار بيسان، بيروت 2002م.
(23) انظر: عبد المجيد عبد الملك، الإنسان والحضارة، جدلية المادة والوعي، دار بيسان، بيروت 2003م، ص 111-114.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالإيجاب، وحتى لو كان هذا الحكم موضوعياً وعلمياً، فالتحليل العلمي في مجال العلوم الاجتماعية ينبني على مواصفات الواقع الماثل، فالحقيقة التي يكشف عنها هي حقيقة ظرفية، لأن موضوعها الإنسان والمجتمع، ليس موضوعاً ستاتيكياً جامداً إنما هو دائم التغير، وعلى ذلك لا يمكن إسقاط هذا الحكم الظرفي على كل مراحل تاريخ الأمم والمجتمعات، فهوية الأمم تنبني على السمات العامة التي تبرزها مراحل تاريخها في فترات النهوض التي تتخلل هذا التاريخ.

وعلى أي حال فإن توصيف الهوية لا ينفي مبدأ التضاد، ففي كل مرحلة من مراحل صعود الأمم أو هبوطها يبقى الشيء ونقيضه في الحالات الفردية والاجتماعية ماثلاً، وأن سمات الهوية تكون هي الأوضح والغالبة في مراحل الصعود وتبهت في مراحل الهبوط، ولابد من إضافة ملاحظة أخيرة ومهمة حول منهجية الدراسة الموضوعية للهوية، وهي أن مبدأ المتناقضات يترك مجالاً لانتقائية يمكن أن يمارسها أي دارس مؤدلج لهوى في نفسه، أو غرض ومنفعة في كتابته، فيبرز جانب النقائض والشواذ بما لا يتفق والقاعدة العامة "ويعممه" علماً أن وجود هذا المبدأ في كل حضارة حتمي وهو العامل الأول والأهم الذي ينتج قاعدة التدمير الذاتي Auto destruction الذي يحكم قانون قيام الحضارات وسقوطها، ومَثَل ذلك التشويه الذي يمارسه بعض مستشرقي أو إعلامي الحضارة الغربية في العصر الحديث حينما يتناولون الحضارة العربية (ويقع في أحابيلهم بعض مثقفينا) فيركزون على الجوانب السلبية في الشخصية العربية، ولا سيما المعاصرة، بغية تحطيم معنويات الأمة أو تدمير تعلق أفرادها بهويتهم تمهيداً للسيطرة على أذهانهم وتسخيرها للمصالح الاستعمارية، كما حاولت هذه المصالح الاستعمارية مثلاً أن تقرن اسم الإسلام بنعت الإرهاب، جنباً إلى جنب وبموازاة ترويجها للعولمة، في محاولة لمحو شخصيتنا وإعادة قولبتها خدمة لمصالحها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الهوية بين الديني والوطني

"فأرضنا جزء من الوطن العربي، وشعبها جزء من الأمة العربية، وهو يتطلع إلى مشاركة أشقائه في العالم العربي في مسيرة التقدم، كما أن رغبته قوية في مشاركتهم العمل المخلص من أجل تحقيق الوحدة الشاملة في المستقبل بإذن الله".

الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان – طيّب الله ثراه–
1973/12/2

ثمة من يرصد إشكالية في العلاقة بين الهوية الدينية والوطنية في المجتمعات الإسلامية خاصة، فعلى الرغم من تعدد الكيانات السياسية فإنه يبقى هناك تصور اعتقادي ونظري لوحدة العالم الإسلامي.

إن العلاقة بين الدين والوطن تبادلية لم تصل مرحلة الصراع أو حتى النزاع بينهما، فالإشكالية قائمة على هذا الدور التبادلي وللمقاربة المعرفية لهذه الإشكالية نسلط الضوء على ثلاث مراحل:

أولاً: مرحلة الفتح الإسلامي، حيث دانت الكثير من الدول لسلطة الإسلام، وفي هذه المرحلة سيطرت الهوية الدينية الإسلامية مع تعدد البلدان فكانت الهوية الإسلامية أولاً، فحدوث أي نزاع أو صراع يرجع به إلى الديني، وكان النبي الكريم في الأساس مرناً متسامحاً بين العقيدة والوطن.

ثانياً: مرحلة السيطرة العثمانية وهنا أيضاً سادت الهوية الدينية وبقيت المجتمعات آنذاك خاضعة للعثمانيين بحكم السلطة الدينية والخلافة الإسلامية، وفرط عقد هذه السلطة عندما بدأت بالتتريك مع وصول حزب الاتحاد والترقي إلى الحكم، وبدأ الرفض لهم لخروجهم عن الديني إلى الوطني، فبرز الشعور الوطني لهذه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المجتمعات وأصبح تعزيزه واجباً دفاعاً عن الخصوصية القطرية، ومن هنا بدأ تراجع الديني لمصلحة الوطن.

ثالثاً: مرحلة العصر الحديث هو عصر الكيانات السياسية المتعددة والحكم الوطني، وتراجع الدور الديني برغم الوحدة النظرية بين مجموع الكيانات الإسلامية الذي يبرز عند مساس أساس الدين كالتوجه بالإساءة إلى رسول الله ﷺ أو القرآن الكريم.

إن الهوية الوطنية في دولة الإمارات العربية المتحدة حقيقة اجتماعية ارتكزت في معظم جوانبها على ثوابت الإرث الديني، حيث يقول محمد جابر الأنصاري "إن ثوابت الموروث الديني تبقى في نفوس الناس حتى وإن تغير فكرهم وثقافتهم وعصرهم"[24] فعندما ترفض تصنيف نفسك يرفض الآخرون عليك هويتك الموروثة.

فالموروث الديني ليس بدعة ولا يمكن إنكار دوره في المجتمعات الإسلامية على تعدد مذاهبها، إلا أنه من المهم جداً أن تقرر النخب المؤثرة وغالبية المجتمع المسلم أي تفسير للدين تعتمد، فالمسافة شاسعة بين نهج التطرف والغلو (وهو ما نهى عنه القرآن) وبين نهج المرونة والتوسط، وهذا إحدى سمات الهوية الدينية الإماراتية، فهو مجتمع إماراتي إسلامي وسطي.

ويلاحظ الراصد أنه لا خوف على الهوية الدينية والموروث الديني، فقد أخفقت محاولات فرض العلمنة كمفهوم ومصطلح من خارج الدائرة الإسلامية، ويلاحظ أيضاً أن كل المشروعات التغييرية التي تناقضت مع عقائد الناس وموروثها لم يكتب لها النجاح.

---

(24) الأنصاري، محمد جابر، مصدر سابق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إن ارتكاز المجتمع الإماراتي على الموروث الديني يظهر وبشكل واضح في غالبية التشريعات والقوانين؛ لأنها تتوافق مع الشريعة الإسلامية، بدءاً من تعريف دولة الإمارات في نص الدستور المادة السابعة (الإسلام هو الدين الرسمي للاتحاد، والشريعة الإسلامية مصدر رئيسي للتشريع فيه ولغة الاتحاد الرسمية هي اللغة العربية)[25].

إن الوصول إلى المشترك بين الديني والوطني هو الأساس الثابت في الحفاظ على الكيان الإماراتي من الذوبان في تعدده العرقي والإثني، وهذا المشترك هو البعد العربي والثقافة العربية التي أساسها اللغة، فعروبتنا تحددها لغتنا وانتشارها، وقد اعتبر في الماضي أن العربي هو من يتحدث العربية حتى إن كان من غير وطننا، فوجدنا مثلاً الجاحظ سيد البيان العربي كان زنجياً من إفريقيا فتمكنه من اللغة العربية جعله من أعلام العربية، والقرآن الكريم يحمل رسالة إلهية إنسانية عالمية إلى البشر جمعاء، أكد في آيات ومواضع عدة أنه لسان عربي وحكم عربي.

إن ثنائية الديني والوطني والعلاقة بينهما مكون أساسي للهوية، والحفاظ على المشترك بينهما هو حفاظ على كيان الوطن، فالوطني مواطن إماراتي عربي، والدين موروث إسلامي عربي، لذا علينا التقاط المشترك، الثقافة العربية، وذلك لجعل الصورة نقية واضحة، فأنت أينما ذهبت سيراك الآخرون ويصفونك إماراتي.. عربي.. مسلم.

---

(25) دستور دولة الإمارات العربية المتحدة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الثانـي

تكـوُّن الأمـة ورسالتها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأبعاد الثقافية للهوية الإماراتية

تستمد الهوية الإماراتية جذورها من رافدين ثقافيين ضاربين في عمق التاريخ، و"هوية الأمة هوية تاريخية والتاريخ هو الذي يشكلها"[26]، وهذان الرافدان هما عروبة هذه الهوية وإسلامها. وماهية الهوية العربية وجذورها، تعود في تشكلها إلى ما قبل التاريخ البشري المُدوَّن، حيث أدت حادثة الطوفان الكبير الذي حفظته ذاكرة الإنسان حتى دوِّن في الكتب السماوية المقدسة. والتي دلت الأبحاث والحفريات التاريخية على حدوثها، إذ عُثر في أرض ما بين النهرين على طبقة سميكة من الغرين، لا تقاس بالمعدل السنوي لترسبه، تعود إلى ما يقارب الألف العاشر قبل الميلاد[27]، وقد وردت هذه الحادثة في التوراة[28] وفي الكتب السماوية التالية أي الإنجيل والقرآن.

وأدت حادثة الطوفان إلى تصحُّر امتد في آسيا من شبه الجزيرة العربية جنوباً إلى حدود جبال طوروس وهضبة الأناضول شمالاً ومن جبال زاغروس والهضبة الإيرانية شرقاً امتداداً إلى شمال القارة الإفريقية حتى المحيط الأطلسي غرباً حيث فصلت الصحراء الإفريقية الكبرى ما بين الأراضي المحاذية للبحر الأبيض المتوسط ووسط إفريقيا وجنوبها، وبوجود الصحراء الليبية، يمكن القول إن هذا التصحر لم يترك مناطق خصبة إلا ما دعاه العلماء بالهلال الخصيب، والذي يشمل مجرى وادي النيل ويتجه قوسه الأكبر صعوداً ليضم المنطقة الممتدة من جنوب هضبة الأناضول وبلاد الشام شمالاً حتى تخوم شبه الجزيرة العربية لينحدر قوسه الأكبر الشرقي على أطراف هضبة الأناضول، وقوسه الأصغر ليحدد الطرف

---

(26) البيطار، المرجع السابق، ص 14.

(27) انظر على سبيل المثال: الناضوري، د. رشيد، جنوب غرب آسيا وشمال إفريقيا، مكتبة الجامعة العربية، بيروت، 1967م.

(28) التوراة، سفر التكوين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشمالي لشبه الجزيرة العربية وصولاً إلى الخليج العربي عند مصب نهري دجلة والفرات. بالإضافة إلى بعض السواحل الجنوبية الغربية لشبه الجزيرة العربية أي عمان وعدن امتداداً إلى اليمن.

وقد ترتب على هذا الحدث المناخي الفاصل والكبير نتيجتان كبيرتان على صعيد التاريخ البشري عامة، وتاريخ هذه المنطقة بخاصة.

1- قيام حوض وسطي في العالم القديم يفصل بين منطقة الأدغال الأوروبية في الشمال ومنطقة وسط إفريقيا وجنوبها في الجنوب وعمق آسيا في الشرق.

2- واجه إنسان هذه المنطقة تحديات طبيعية، حفزته على الابتكار لضمان الاستمرار. إذ أسقطت حياة الجمع والالتقاط التي كانت توفرها البيئة الطبيعية.

وإذا كانت مرحلة "حياة الجمع والالتقاط" قد استمرت لأزمان متتالية في المناطق التي لم يصبها التصحر، وظلت بقاياها حتى القرنين التاسع عشر والعشرين في مجاهل إفريقيا وحوض الأمازون، حيث استمر الإنسان في هذه البيئة الطبيعية يقتات من ثمار الأشجار ويصطاد حيواناتها من دون أن تشكل له البيئة تحدياً يضطره إلى مواجهته بأساليب إبداعية للحفاظ على بقائه، فإن إنسان منطقة التصحر استجدّت عليه ظروف دفعت حياته إلى منحى آخر.

نشوء الحضارة وانبثاقها[29]:

لاشك في أن التصحر لم يتم فجأة، وأن ردحاً من الزمن قد انقضى قبل أن تتحول الغابات إلى قفار وصحارٍ ريثما تجفّ الينابيع وخزانات المياه الجوفية

(29) انظر: الإنسان والحضارة، مرجع مذكور آنفاً، وما لا حصر له من كتب علماء تاريخ الشرق الأدنى القديم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والأنهار، ما دفع الحيوان المقيم على هذه الرقعة إلى الهجرة للمناطق المحيطة أو الانقراض، وأن تكون ثمة أنواع استطاعت التأقلم وظلت مقيمة.

أما إنسان هذا الحوض الوسطي، فكانت استجابته لهذا التحدي بفضل قدرته على الإبداع، ولكن الشروط الطبيعية المستجدة أخذت تفرض نفسها على كيفية حياته وتضيِّق الأرض والخناق عليه، فأول شرط تحكم فيه هو مصادر المياه من أنهار وينابيع وبحيرات، الأمر الذي لا غنى عنه لاستمرار الحياة. فالأشجار المثمرة والنباتات الطبيعية التي كان يتغذى منها لم تعد من الوفرة التي تكفي حاجته.. الحيوان الذي كان يصطاده في كل مكان تفرق وتبدّدت جموعه، وأعلى الأشجار التي كانت تقيه في الليل من أخطار الحيوانات انقرضت، أما الكهوف فاضطر إلى هجرها ما لم تكن قريبة من مصادر المياه، فكان عليه أن يبتكر الزراعة ليقتات في موسم القحط، ويبتكر الأواني لتخزين المياه، ولاستئناس الحيوان الأليف الذي يحتاج إليه في غذائه ومعاونته على التنقل ونقل أثقال الماء والغذاء، وكذلك بناء الحظائر والبيوت، ليتقي فيها هو وحيواناته مخاطر الحيوانات المفترسة وقيظ الصيف وجليد الشتاء، وطوّر أدوات إنتاجه لتلبي الحاجات المستجدة، فابتكر الفخار ثم اكتشف التعدين، كل ذلك أوجد التخصصية في العمل والإنتاج، فكانت مهن الرعي والزراعة والبناء والتعدين... إلخ.

نمطان حضاريان

إذا كانت المناطق الخصبة والباردة في آن تطلبت حياة الاستقرار وقيام التجمعات البشرية المستقرة والحياة الحضرية، فإن البيئات الصحراوية حيث تندر المساحات الخصبة لندرة المياه والتي هي في آن معاً أقل برودة، أوجدت نمطاً آخر من الحياة، فكان إنسان تلك البيئات مضطراً إلى الاعتماد على ثمار بيئته بأنواعها المحدودة، ولم يكن بإمكانه إنتاج ما يكفيه من المواد النباتية اللازمة لحياته، فاضطر إلى الاعتماد الشديد على الثروة الحيوانية، ولكن هذه الحيوانات تحتاج إلى المرعى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والكلأ مثل حاجته هو إلى الينابيع والآبار المتباعدة والشحيحة، فكان القحط أو جفاف الينابيع يضطره إلى التنقل الدائم، فغدا التنقل وعدم الاستقرار في المكان يحكمان حياته.

هذه الضرورات الحياتية وفي بيئة أقل برودة، وجدت حلاً لها في الخيم المصنوعة من جلد الحيوانات أو شعره ووبره، كمنازل متنقلة يحملها معه في الحل والترحال فتقيه برد الليل وقيظ النهار.

نمطا الحياة هذان، وحاجة جماعات كل من هاتين البيئتين إلى إنتاج البيئة الأخرى من ناحية، وضيق سبل العيش في البادية، وعاملا القحط وغور الينابيع، وعجز البيئة الطبيعية في البادية عن تحمل ازدياد عدد السكان من ناحية أخرى، كان يدفع دوماً إلى التقاتل على احتلال الواحات، ولكن ازدياد عدد السكان كان في كل مرحلة زمنية يجعل الأرض تضيق بمن عليها، فتخرج هجرات كبرى من الصحراء إلى المناطق الخصبة المحيطة بها، أي إلى الهلال الخصيب الذي سبق وحددناه، والنزول على سكانها سلماً حيناً وحرباً وقهراً أحياناً. إلى أن كانت هجرة العرب المسلمين، خروجاً رسالياً ورسولياً، يحمل كل نضج التجربة الإنسانية العريقة فينهي عصر العبودية، وينقل الحضارة الإنسانية إلى مرحلة جديدة.

وبقدر ما كان هذان النمطان يدفعان إلى التنافر والتناحر، بقدر ما كانا يخلقان الحاجة الملحّة للتكامل، وقد عبر العلامة ابن خلدون عن هذا التكامل بقوله: "القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة ولابد إلى البدو لأنه مُتَّسَعٌ لما لا يتسع له الحواضر من المزارع والأفدان والمسارح للحيوان وغير ذلك، فكان اختصاص هؤلاء بالبدو أمراً ضرورياً لهم وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والكلأ والدفءِ (...)[30]. وكل ذلك كان يتم في هذا الحوض البشري الوسطي، ما جعله في حركية دائمة تُواصل بين سكان بيئاته

(30) ابن خلدون، المقدمة، ص 105.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المختلفة فتوجِد مزيجاً ثقافياً متفاعلاً وهجيناً دائم التطور والتغير بين نمطين مختلفين من التجربة الحياتية والثقافية، كما كانت الحاجة إلى التفاهم ومراحل خروج الهجرات من المناطق الصحراوية أوجدت لهجات متقاربة ومختلفة في آن، تكثر مفرداتها في التعبير عن المدلول الواحد، وهو ما اصطلح المستشرقون على تسميته "عائلة اللغات السامية"، التي هي في الحقيقة إرهاصات للغة العربية التي وحّدها وأرسى قواعدها القرآن الكريم ونشرها الإسلام الحنيف، فسادت ضمن الحدود الجغرافية لهذا الحوض الوسطي، حيث بدأ التفاعل منذ نشوء الحضارة وانبثاقها.

الهوية الإماراتية وعلاقتها بنمط ثالث للرزق وعوامل تشكل الأمة:

بالإضافة إلى النمطين الحضاريين السابقين اللذين فرضتهما البيئة الطبيعية، واللذين يشملان الكم الأعظم من الكتلة البشرية القاطنة في هذا الحوض البشري الوسطي، فإن نمطاً ثالثاً نشأ متكاملاً مع هذين النمطين، ومعتمداً عليهما في الكثير من موارد رزقه ومعتمداً عليهما في حفظ أمنه، وفرضه كذلك التكوين التضاريسي، وهذا النمط الهجين بين كل من النمطين السائدين، هو نمط سكان السواحل البحرية، ولا سيما في المناطق التي لا تفي مواردها الطبيعية بحاجات عيشها فاستعانت بما يتيحه لها موقعها قرب البحر الذي تدير وجهها إليه، من مهنة الصيد البحري، أو الغوص للبحث عن اللؤلؤ والأحجار الثمينة، أو الملاحة البحرية، التي اكتسبت مزيداً من الأهمية مع تقدم التطور الحضاري وازدياد حركة التبادل السلعي، فتعوِّض بذلك نقص مواردها. وقد قام هذا النمط خاصة في جنوب شبه الجزيرة العربية وجنوبها الشرقي، وعلى ساحل بلاد الشام، وكلها مناطق تقوم بينها ظهيرها البري عوائق من جبال عالية أو مناطق صحراوية (كما هي حال الإمارات العربية)[31] تجعل من الصعب (في الأزمنة القديمة) اندماجها في اقتصادات ظهيرها

(31) انظر: دراسات في مجتمع الإمارات، إعداد مجموعة من أساتذة جامعة الإمارات العربية، طبعة 2001م، ص 17-22.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القاري، واستحالة انفصالها عنه أمنياً وحياتياً، كونها غدت وسيطاً تجارياً بين ظهيرها القاري ومداها البحري وكذلك افتقارها إلى بعض ما ينتجه هذا الظهير واعتمادها عليه. فعلى تنوع الصعوبات واختلاف طبيعتها ترتب تنوُّع العطاء الحضاري والتجربة الحضارية وغناها.

فعلى ساحل بلاد الشام كان نظاماً هجيناً بين الحياة الزراعية والمدنية والملاحية، بينما كان على أطراف شبه الجزيرة العربية هجيناً بين الحياة البدوية والبحرية. أما بالنسبة إلى الخصوصية الإماراتية في تكامل هذا التفاعل الحضاري وإنضاجه وفي المساهمة في هذا التنوع في الوحدة فيعود إلى سبب أن "لإطلالة الإمارات على البحر أثراً كبيراً في حياة السكان منذ أقدم الأزمان، إذ ارتبطت حياتهم بالبحر، وساعد على شدة هذا الارتباط تلك الطبيعة الجدباء القاسية التي تتميز بها معظم المناطق الساحلية، وما وراءها من أرض صحراوية قاحلة، فكان حتمية جغرافية أن يولي هؤلاء السكان وجوههم شطر البحر لينعموا بخيراته، وأن يؤثر البحر في تشكيل حياتهم ومجتمعاتهم (...)[32] (والإمارات) "التي تسعى إلى الاعتماد على أكثر من مصدر للرزق بهدف تقليل عنصر المخاطرة الناتج عن أن معظم مصادر الرزق كانت غير آمنة"[33].

في تكون الأمة العربية ودورها:

إذا كان المنظرون والمفكرون والمؤرخون الغربيون وثقافتنا المستغربة نتيجة الغزو الثقافي الغربي يدَّعون أن عصر القوميات بدأ في القرن السابع عشر ومع عصر النهضة الأوروبية، كظاهرة من ظواهر الاستعمار الغربي وادعاءاته، بأن الغرب بعد أن ورث حضارة الشرق الأدنى القديم وأقام الحضارة اليونانية، انحصر التطور التاريخي

(32) دراسات في مجتمع الإمارات- المصدر السابق، ص 20.
(33) دراسات في مجتمع الإمارات- مصدر سابق، ص 6.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بتاريخ الغرب الحضاري، فيصنِّف مراحل تاريخ الحضارة بالحضارة اليونانية، ثم الرومانية، ثم حضارة أوروبا في العصور الوسطى، إلى عصر النهضة الأوروبية وصولاً إلى العصر الحديث مع قيام الثورة الفرنسية، منكراً بذلك دور باقي الأمم في بناء صرح الحضارة الإنسانية، ومدعياً احتكار الحضارة إن لم يكن قادراً على ادعاء ابتكارها[34]، فالأمة العربية، بفعل العوامل المناخية وبفضل موقعها والتحديات التي واجهت الإنسان المقيم على أرضها، وبسبب تنوع بيئتها والتفاعل والتكامل بين مختلف أرجائها، الذي صهر إبداعات وابتكارات وتجارب المجموعة البشرية المقيمة عليها في مختلف حقول البناء الحضاري المادي والروحي والمعنوي، توافرت لها، أي للأمة العربية، وقبل أي مجموعة أخرى في التاريخ، كل عناصر تكون الأمم والتي اكتملت بسيادة اللغة العربية في الحدود الجغرافية للمنطقة التي بدأت فيها التجارب الإنسانية الأولى والمجال الحيوي لهذا الإنسان، أي من المحيط إلى الخليج، وذلك مع خروج العرب برسالة الإسلام، التي وإن يكن انتشاره امتد من أطراف الهند وحدود الصين حتى غرب أوروبا، لم تصبح اللغة العربية اللغة المشتركة والموحدة إلا بالحدود التي كانت عناصر تكون الأمة قد تكاملت فيها حتى اكتملت وتُوجت بعامل اللغة الموحدة، وقد عرَّف النبي العربي ﷺ العروبة بقوله "ليست العربية بأحدكم من أب ولا أم إنما هي اللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي"[35].

---

(34) انظر: عبد المجيد عبد الملك، الإنسان والحضارة جدلية المادة والوعي، دار بيسان، بيروت 2003م، ص 124 وما بعدها.

(35) ابن عساكر، تاريخ ابن عساكر، عن دراسات في تاريخ الإمارات، مرجع مذكور آنفاً، ص 7.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دور المجتمعات البحرية العربية
في توحيد هوية الأمة
ورسالتها الحضارية

اللغة مرآة الحضارة

كما رأينا فيما تقدم من هذا البحث، أن انبثاق الحضارة كان من هذا الحوض الوسطي ومن إبداعات شعوبه، أكان على صعيد المنجز المادي للحضارة بدءاً من الزراعة وحياة الاستقرار واستئناس الحيوان والاستفادة من وبره وجلده وصوفه ولحمه ولبنه، لإيفاء الحاجات الحياتية من مأكل وملبس ومأوى؛ إلى صنع الأواني من الفخار لخدمة الأغراض المنزلية أو البناء، ثم ثورة التعدين واستخداماتها بدءاً من أدوات الزينة وصولاً إلى إنتاج وسائل الإنتاج والأدوات الحربية، إلى إنجازات مادية لا حصر لها، كل ذلك تطلب تطوراً في المعارف والعلوم مثل العلوم الفلكية والتقويم، وعلوم الحساب والهندسة؛ لإقامة الأبنية والمنشآت وقنوات الري والسدود والسفن، بالإضافة إلى العلوم الطبية ومختلف أنواع العلوم والمدارك الإنسانية في جميع الميادين، إلى وسائل الإنسان للتعبير عن ذاته بفنون الرسم والنحت والموسيقى والشعر، وما تطلبه كل ذلك من تطور للغات كوسيلة للتواصل واختراع للمفردات التي تعبر عن جميع هذه الابتكارات والأنشطة، بدءاً من التدوين بالرموز والصور، لخدمة جميع مقاصده، والتي طورها إلى الأبجدية الأولى التي اعتمدت على المخارج الصوتية الأحادية وتركيبها وصياغة الكلمات التي تعبر عن كل المدلولات بأقل الرموز، وهو ما خدم كل أغراضه وطور كل معارفه وعلومه ودوَّن بواسطتها ما تحمله ذاكرته، وفي مجال التنظيم الاجتماعي، قامت هنا أولى الدول ونظم الحكم والقوانين المنظمة للمجتمع والمؤسسات الدينية لتلبية حاجاته الروحية، والمؤسسات المدنية لإدارة شؤونه الحياتية... إلخ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحضارة والمجتمعات البحرية

وأخيراً لا آخراً قامت المجتمعات البحرية بابتداع السفن واكتشاف العوالم القائمة خلف الآفاق البحرية، فوسعت المعارف الجغرافية وعلم الملاحة البحرية، ثم ما لبثت أن بدأت بتصدير الأدوات والبضائع على أنواعها، واستيراد ما تجده من موارد طبيعية وخلافه من البلدان التي تصل إليها، وكانت بذلك تنقل معها الوعي إلى الشعوب التي تتعرف عليها والأماكن التي تصل إليها، وتعرفها بالحضارة ومنجزاتها وتطورها، فنما بذلك وعي الشعوب واستنهض حياتها وثقافتها ولغاتها لتأمين التواصل ومواكبة التطور الحضاري، ما أهَّل هذه البلدان بعد زمن لأن تصبح مراكز حضارية تنتج الحضارة وتطورها.

وكما كان كنعانيو ساحل بلاد الشام (الفينيقيون) قد نقلوا الحضارة إلى سواحل البحر المتوسط وأقاموا المستعمرات فيها، من تونس في شمال إفريقيا وصولاً إلى شواطئ اليونان، حيث قامت بعد آماد زمنية أول إمبراطورية خارج منطقة الشرق الأدنى القديم، واحتلت مكانة مميزة في تطور الحضارة الإنسانية، وإلى شواطئ إيطاليا حيث قامت الإمبراطورية التالية للإمبراطورية اليونانية وصولاً إلى شواطئ إسبانيا، كما اجتازوا البحر المتوسط ووصلوا إلى بريطانيا وأقاموا عليها مستعمرات انتشرت منها الحضارة إلى سائر أنحاء الجزيرة، وتركوا آثارهم وبصماتهم على الساحل الشمالي الغربي لإفريقيا، كما يعتقد بعض الباحثين أنهم وصلوا إلى جنوب القارة الأمريكية ووسطها حيث قامت حضارات الأنكا والأزتيك[36].

أما بالنسبة إلى دور شعب الإمارات فبالإضافة إلى استخراج اللؤلؤ، والذي كان سلعة مرغوباً فيها كثيراً من الشرق الأقصى حتى غرب أوروبا "لم يقتصر النشاط البحري لأهالي هذه المنطقة على حوض الخليج العربي، بل امتد

(36) انظر: د. رشيد الناضوري، جنوب غربي آسيا وشمال إفريقيا، مكتبة الجامعة العربية، بيروت، 1967م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ليشمل أيضاً سواحل المحيط الهندي، خاصة سواحل آسيا الموسمية وإفريقيا الشرقية" ولا سيما أن "هذه المنطقة كانت تقع بالقرب من طريق القوافل التجارية القادمة من شمال الجزيرة العربية إلى سواحل عُمان الشرقية" ويذكر د. منير يوسف طه "أثبتت المكتشفات والدلائل الأثرية أن سواحل الخليج العربي كانت مرتعاً لتجار بلاد وادي الرافدين والذين كانوا ينقلون بضائعهم عبر موانئ الخليج العربي التي أتوا بها من أقطار دانية وقاصية، كشبه القارة الهندية، والسواحل الشرقية للقارة الإفريقية، ومن بلاد وادي الرافدين"[37].

كما يذكر أن المصادر اليونانية والرومانية ثم العربية الإسلامية تحدثت عن "أهمية الخليج العربي بالنسبة إلى تجارة وادي الرافدين وحتى سواحل البحر الأبيض المتوسط"[38].

وحيث كان الحوض الوسطي الممر الوحيد في العالم القديم بين الشرق والغرب، فإن الطرق التجارية التي تخترقه، كانت دوماً محط أنظار الإمبراطوريات الكبرى عبر التاريخ، التي سعت دوماً إلى السيطرة عليها، ولعبت هذه الطرق دوراً مركزياً وأساسياً في توجيه الصراعات بين الإمبراطوريات[39] وكانت في آن معاً مركزاً لتلاقي حضارتي الشرق والغرب وثقافاتهما، التي أثرت في الحضارة العربية، وجعلتها في مراحل نهوضها، خلاصة الحضارة الإنسانية المعاصرة لها، وحصيلة نتاجها المادي والروحي.

---

(37) د. منير يوسف طه، الإمارات والخليج العربي في العصور القديمة، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات العربية المتحدة، العين 2002م، ص 69.

(38) د. منير يوسف طه، مصدر سابق.

(39) انظر: عبد المجيد عبد الملك، ساحل بلاد الشام والصراعات الدولية (دراسة جيوبوليتيكية وجيواستراتيجية) جزآن، دار بيسان – بيروت 2002م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من كل ما تقدم، يمكن فهم الدور الذي لعبته البلدان والمجتمعات البحرية العربية، كل مجتمع من موقعه، من خلال العلاقات البينية بين أرجائها والثغور البحرية التي تحيط بجغرافية الوطن وتؤطره، وكذلك في التفاعل الحضاري مع الحضارات الشرقية والغربية.

أنماط كسب الرّزق وروافد الشخصية العربية

تطلب الإنتاج الزراعي الاستقرار في المكان وفرضه وربط حياة الفرد بناتج هذه الأرض، وإنتاج الأرض يعتمد بتقدير من رب العالمين على عاملين؛ جهد الإنسان، وعطاء الطبيعة، وجدلية التفاعل بين العاملين، عامل الإدارة والفعل وعامل القدر من حيث عجز الإنسان عن التحكم بالعوامل الطبيعية التي تحكم نجاح الموسم الزراعي، هذه العوامل الطبيعية التي تتحكم فيها القدرة الإلهية بوعي الإنسان البدائي، قبل نزول الرسالات السماوية الهادية، الذي يرى أن هذه العوامل تتحكم في لقمة عيشه ومصيره، فظنَّ أن عليه استرضاءها لتستمر في مِنَّتها عليه ولتلافي غضبها المدمر لحياته، كهطول الأمطار وفيضان الأنهار وهبوب العواصف ومخاطر الآفات التي تصيب الزرع أو الحيوان الذي يلتهمه (كالجراد، أو القوارض،... إلخ)، عوامل الطبيعة هذه، عززت لديه إيمانه بالقدرية وارتباط حياته بقوى ما ورائية يجهلها وتتحكم في مصيره وهي ذات وجهين، وجه عطائها الذي يحفظ وجوده، ووجه امتناعها (غضبها) الذي يهدد هذا الوجود، وحيث إن النفس الإنسانية تعاني قلقاً عميقاً حينما يعجز العقل عن إيجاد الحلول للقضايا التي تواجهه، ولا سيما الإنسان الجاهلي (أي إنسان ما قبل نزول الرسالات السماوية) ولـ "حاجة الذات الإنسانية إلى الطمأنينة النفسية في العالم الذي تحيا فيه. أنه عالم تتحكم به قوى غامضة، به تناقضات وتحولات ليس من السهل إدراكها، وتسوده المخاطر، والمصادفات والضغوط المتنوعة من كل جانب، ذلك يدفع الإنسان إلى محاولة إدراكه، وتنسيقه إلى إضفاء العقلانية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عليه وتنظيمه (...) والإنسان يحتاج، كي يستقر فيه إلى أن يكشف عن رباط يربط بينها ويعطيها قصداً"[40].

في المجالين الفكري والعقائدي

إن المجتمعين الزراعي والصحراوي كأي مجتمعين بشريين يلعب القدر والغيب دوراً في مسيرة حياتهما ومصيرهما على الصعيدين الفردي والاجتماعي، فالمجتمع الزراعي وعلى امتداد المنطقة التي دعاها العلماء "الهلال الخصيب" من وادي الرافدين شرقاً إلى وادي النيل غرباً، مروراً بالعراق وبلاد الشام، يعيش الإنسان في مناخ شبه صحراوي، يلعب استمرار تدفق مياه الأنهار والينابيع وانتظام الظواهر المناخية، وانتشار الحيوانات المفترسة الكثيرة التي تهدد مصيره والتي يعجز تماماً عن مواجهتها، إلا ببعض ما ابتدعه لاتقاء مخاطرها وكذلك حفظ موارد الأرض وتخزينها، كل ذلك جعل الإحساس بالقدرية عميق الجذور من مراحل الإنتاج الأولى في إدراك إنسان ذلك العصر وفي وعيه ولا وعيه، ما دفعه إلى عمق الإيمان بالقوى الماورائية التي خيِّل إليه أنها تتحكم في هذه الظواهر، فكان إيمانه الديني عميقاً فصاغ إيمانه وفلسفته ومعتقداته كافة بالأساطير في مراحل التخيل الأولى لوعيه، والذي تطور باتجاهين عقلاني بالفلسفات وإيماني بالأديان الوثنية التي تدرَّج تطورها من مسألة معالجة علاقته بهذه الطبيعة من التعامل معها كعوامل منفردة ومستقلة (تعدد الآلهة) إلى الفكر التجريدي وإرهاصات التوحيد بعقيدة إخناتون، وهي حصيلة تطور في مسيرة الفلسفة الإنسانية كان انبثاقها من فلسفة أمحوتي مهندس هرم سقارة. أما في بلاد ما بين النهرين فقد توجه الفكر منذ انبثاقه إلى أسباب النشوء الأول والتفاعل بين ما اعتبره العناصر الأولى للطبيعة، النار والهواء والماء كسبب للخلق الأول. وبقيت الحال على هذا المنوال إلى أن أنزل الله سبحانه وتعالى رسالاته السماوية وختامها القرآن الكريم.

---

(40) د. ندم البيطار، حدود الهوية القومية، نقد عام، مرجع مذكور آنفاً. ص 180.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الطبيعة والطبائع

أما المجتمع الصحراوي الرعوي، فكانت عوامل القدر أو الصدفة في حياته أقل تأثيراً، فالبيئة التي يعيش فيها أكثر رتابة، ولكنها أكثر قسوة بما لا يقاس، فاعتمد على الحيوان والثمار الطبيعية وأنواع الطير المقيمة في غذائه وملبسه، والتي تخضع لقانون طبيعي رتيب يكرر نفسه. وقد اعتبر العلامة ابن خلدون أن غذاء أهل البادية "يؤثر في أخلاقهم من الصبر والاحتمال والقدرة على حمل الأثقال"[41]. دون أن يكون للجهد الإنساني أثر كبير فيه، وفي بيئة رتيبة المناخ رتيبة الأصوات بوقع الحوافر، كان فنه الغنائي معبراً عن هذه الرتابة والإيقاعية (الحداء) ولا تخضع متطلبات عيشه لجهود كبيرة وإن تكن أحياناً مأساوية.

ولكن حياته وحياة حيوانه تتطلبان الماء وهو شحيح ونادر، ومصادره ليست دائمة، فآباره تتعرض للغور والفور، ولا توفر حاجته على مدار السنة وحتى على مدى أشهر أحياناً، ويرتبط كلأ حيوانه بوجود الأرض الرطبة التي تحيط بالينابيع، والتي بدورها قد تتعرض أحياناً للجدب، فحتى شروط الحياة هذه لا تتوافر إلا في واحات متناثرة في محيط شاسع من القفر قد لا يوفر أي شرط من شروط الحياة، ويتم التنقل فيه بظروف بالغة القسوة من حرّ هجير قاتل يتحول في الليل إلى برد قارس، ووحوش هائمة تبحث عن فريسة تقتات بها في بيئة قلّت فيها الفرائس، وعلى هذا الإنسان وحيوانه أن يقطعاها سيراً على الأقدام من دون دليل، فالرياح التي تحمل الرمال الخانقة أحياناً تبدد آثار الكثبان والوديان، وهي ظروف دفعت المتنبي إلى التمثل بصعوبتها بقوله:

ذراني والفلاة بلا دليل ووجهي والهجير بلا لثام

(41) ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، المقدمة، طبعة المطبعة الأدبية، بيروت، 1879.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فغدوا "لتفردهم في المجتمع وتوحشهم في الضواحي وبعدهم عن الحامية (الدولة – المؤلف) هذه البيئة التي فرضت على القاطنين عليها، ولا سيما في حقب زمنية يتأثر فيها عدد السكان مع شح الموارد ومحدوديتها، إلى تنازع البقاء، في الحلّ والترحال، "وابتعادهم عن الأسوار والأبواب قائمين بالمدافعة عن أنفسهم لا يكلونها إلى سواهم (...) فقد صار لهم البأس خلقاً والشجاعة سجية"[42] فقدرتهم العالية على التحمل، غدت طبيعة في الإنسان والحيوان الصامد عليها، وهي لا ترحم نقيضه، فإنسان هذه البيئة لا يستطيع تحمل شظفها وقسوة ظروفها إلا إذا كان قوي البنية والشكيمة صبوراً شجاعاً متأنياً متبصراً حكيماً في التعامل مع بيئة طبيعية وعلاقات إنسانية ليست المجازفة في التعامل معها محمودة العواقب، وهو ما سنتطرق إليه في ما يلي من بحثنا. حينما نتكلم عن المنجز المادي والتنظيم الاجتماعي.

في مثل هذه البيئة الطبيعية الشديدة الهدوء والصفاء، كان الفكر الإنساني يغور بعيداً كبعد آفاقها بالتفكير في الظواهر، ويذهب إلى الكليات، حيث لم تكن جزئيات كثيرة تشغله فيذهب بعيداً في الفكر التجريدي، فلا تسيطر عليه كثيراً التفسيرات السطحية للظواهر الطبيعية، والمسائل التي تواجهه والعاصية على الفهم، فكان إيمانه بالآلهة القديمة وتحكمها في الظواهر الطبيعية والشؤون الحياتية سطحياً وعارضاً، فكان إلى العقلانية أقرب منه إلى الإيمان، إذ يُنقل عن البدوي في الجاهلية أنه كان يصنع تماثيل آلهته من التمر ويأكلها إذا ما جاع خلافاً لعمق الإيمان الذي كان سائداً في المجتمعات الزراعية، وهذا المناخ النفسي والفكري العقلاني هو الأرضية التي ظهر فيها لأول مرة المذهب التوحيدي الإبراهيمي، الذي يمثل بالنقلة إلى الإيمان، أعلى درجة من درجات المنطق، وحتى لا يواجه العقل التناقض الذي يعجزه، وينجي الإنسان كذلك من القلق الناتج عن عجزه عن تحقيق إرادته وعن جهله وعجزه عن التحكم في مصيره.

---

(42) ابن خلدون، مرجع مذكور آنفاً، ص 109.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هذه الخواص النفسية والعقلانية، وما يتصل بالحياة البدوية من ميزات الشجاعة والحكمة والصبر وقوة الشكيمة حملها معه إنسان مراحل قيام الحضارات الأولى الذي نزح من شبه الجزيرة العربية واستوطن في المناطق الخصبة المجاورة لها (الهلال الخصيب)، حيث أنشأ الحضارات الأولى، وكانت الهجرات المتوالية من شبه الجزيرة العربية والتكامل فيما بينها وبين محيطها، يرفد المجتمعات الزراعية العربية بهذه الخصائص كلما بهتت مع تباعد أزمنة خروجها من بيئتها الصحراوية الأولى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإنسان والنظام الاجتماعي في النظام الصحراوي (الرعوي)

"إننا نحرص على الاحتفاظ بتقاليدنا العربية الأصيلة، وتراثنا القومي"

الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان –طيّب الله ثراه–
أكتوبر 1971

يتطلب إيفاء مضمون هذه الفقرة حقه أبحاثاً مطولةً، وليس هنا مجاله، وإن يكن تجاهله مستحيلاً كأحد روافد خصوصية الشخصية الإماراتية، وتأثيره في وعي أو لا وعي الإنسان الإماراتي الراهن، بما يتركه من فعل سلبي أو إيجابي، أو رد فعل. ويصف ابن خلدون أهل القفار بقوله:

"أهل القفار أحسن حالاً في جسومهم وأخلاقهم من أهل التلول المنغمسين في العيش، فألوانهم أصفى وأبدانهم أنقى وأشكالهم أتم وأحسن. وأخلاقهم أبعد عن الانحراف، وأذهانهم أثقب في المعارف والإدراكات، هذا أمر تشهد له التجربة في كل جيل منهم" (43).

وإذا كانت احتياجات الحياة في المجتمعات الزراعية تطلبت وجود مؤسسة مدنية (الدولة) ومؤسسات دينية لتلبية حاجاته الأمنية والاجتماعية والروحية، وضمان استمرارها وتنظيمها. فالمجتمعات الصحراوية، لم تؤدِّ فيها حياة اللااستقرار

(43) ابن خلدون، مصدر سابق، ص 77.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في المكان، وكذلك وسائل تحصيل الرزق، إلى إمكان قيام دولة تنظم العلاقات بين المواطنين وتحمي أمنهم وتفصل في خلافاتهم أو مخالفاتهم للنظام العام وتحفظ أمنهم، فبقيت مهام تنظيم الحياة الاجتماعية، وفصل المنازعات فيما بينهم منوطة بالسلطة الأبوية لرب الأسرة فيما يتعلق بأسرته، وبشيخ القبيلة فيما يتعلق بقبيلته، وبالعصبية القبلية أو العشائرية لحماية أمنهما. و"العصبية لا تكون إلا في النسب أو ما في معناه".

النظام القيمي في المجتمع الصحراوي

ولكن التجربة التاريخية أثبتت الحاجة إلى مبادئ معيارية، تحكم العلاقات الأسرية والقبلية والعشائرية، وتوَجِّه سلوك الأفراد وتعرفهم بحقوقهم وواجباتهم، وعلاقتهم الاجتماعية، كما تشكل ضوابط للسلطة الأبوية وتحول دون أن تمارس هذه السلطة استنسابياً، أو بما يخالف سبيل الرشد، وكذلك لقيام مقاييس معيارية لعلاقات القبائل ببعضها للإيفاء بحاجة الأفراد والمجتمعات في هذه البيئة القاسية، ولبعض الحماية من المخاطر التي يمكن أن يتعرض لها الأفراد أو الجماعات في حلهم وترحالهم. فكانت بالإضافة إلى قيم الصبر والشجاعة وقوة الشكيمة، قيم الشرف والإجارة والضيافة والكرم والشهامة والمعروف، والعفو عند المقدرة، والإقدام، وحفظ الجار وحماية الدار، وحفظ الأنساب والعصبية القبلية والعشائرية، قيماً لا غنى عنها لاستمرار الحياة الاجتماعية، وهم إلى ذلك كله أرسخ عقيدة وأشد إيماناً، ففي مقارنته بين أهل البادية وشظف عيشهم وأثره في معتقدهم يقول ابن خلدون "واعلم أن أثر الخصب في البدن وأحواله يظهر حتى في حال الدين والعبادة، فنجد المتقشفين من أهل البادية أو الحاضرة (...) أحسن ديناً وإقبالاً على العبادة وهم كذلك أقرب إلى الخير من أهل الحضر"[44] وهم كذلك "أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر"[45].

(44) ابن خلدون، مصدر سابق، ص 107.

(45) ابن خلدون، مصدر سابق، ص 106.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي مجتمع يدفع فيه شح الموارد إلى تنازع البقاء أحياناً بالغزو والحروب، فحتى هذه كان لها معاييرها الأخلاقية.

كان (العرب) البدو يفاخرون غيرهم على تحليهم بهذه القيم، أو يعيرونهم في حال عدم الالتزام بها، ولنا في الشعر الجاهلي وشعراء البادية دليل على شدة تمسك العربي بهذه القيم، التي كان أهل البادية يرفدون المجتمعات الزراعية بها من خلال تفاعلهم معهم، أو من خلال الهجرات المتوالية التي كانت تخرج من الصحراء وتستقر في المناطق الزراعية، فترفد قيم مجتمعات هذه المناطق بدماء جديدة تحيي فيهم ما ذبل منها.

وبغياب القانون والدولة المشرفة على تنفيذه، غدا العرف هو الضامن للقيم الأخلاقية الحامية للمجتمع والمنظمة للعلاقات الاجتماعية، وكذلك قوة القبيلة والتضامن بين أفرادها وفروسيتهم، وسلاحهم وإتقانهم لاستعماله، هي ضمانة أمنهم، وللعرف قوة تفوق قوة القانون، لكونه أولاً يصدر عن اقتناع الأفراد والهيئة الاجتماعية به، وثانياً لكون المجتمع بأسره رقيباً على تنفيذه.

أما الأفراد الخارجون على هذه الأعراف فكانوا يعيَّرون بمخالفتهم لها، وينبذون من مجتمعاتهم، حتى قد تصل العقوبة القصوى إلى رفع الحماية عنهم بعد طردهم، أي عدم مطالبة الآخرين بالثأر لهؤلاء في حال إهانتهم أو إلحاق الأذى بهم، وقد يصل الأمر إلى إزهاق دمهم وإباحة قتلهم.

ولم يكن يخرج عن هذه الأعراف إلا الشاذ الذي يشذ عن القاعدة، وكذلك لم يكن هذا النمط الثقافي والحضاري الذي أوجزنا عرضه، يخالف القاعدة التي تسود جميع الحضارات، إذ تمر بمراحل حرجة حينما تشتد الأزمات المعيشية الناتجة عن شبح الموارد، وتلك الأزمات هي التي كانت تدفع إلى خروج الهجرات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الكبرى من الصحراء، أو الهجرات الصغيرة الدائمة منها، ما جعل من الصحراء منطقة طرد بشري، ومن معظم العرب أحفاداً لأولئك المهاجرين، غادروا في فترة تاريخية ما تلك الصحراء، ويحملون في ذاكرتهم تعلقهم بالأنساب لمعرفة أصولهم، ربما استطاعوا من عادات وتقاليد الاحتفاظ بتلك القيم المأثورة، أي بخصائص شخصيتهم وهويتهم.

المُثُل الصحراوية ورسالة الإسلام

ونختم الحديث عن هذا المجتمع البدوي الرافد لتكوُّن الشخصية العربية الصحراوية، لصفات ميزتها قبل الإسلام، وغدت جزءاً من مقومات الهوية العربية ورسالة الإسلام التي أُنزلت تتويجاً للرسالات السماوية التي سبقتها، وهي الأنفة ورفض الذل والعبودية، ومبدأ المساواة بين خلق الله.

فلم تتوغل أي إمبراطورية من إمبراطوريات العبودية القديمة في الصحاري العربية، ولم يمتد نفوذها إلا إلى أطراف هذه الصحاري، للأسباب نفسها التي حالت دون قيام دول فيها، وكان الأعرابي يفضل شظف العيش وقسوة الحياة في البيئة الصحراوية، على العيش في ظروف بيئية أرحم، حيث تتوافر ظروف حياة أسهل، أنفةً من حياة الذل والعبودية في الدول المحيطة بهذه الصحراء.

وأهم الدروس المستفادة من الرسالة التي حملها إبراهيم الخليل عليه السلام، أبو الأنبياء، هو تحرير الإنسان من حياة العبودية، حيث تلقى أمر ربه فغادر مدينة بابل بعد أن اشتد صلف "النمرود" واستكباره، كما تذكر تواريخ الأنبياء، ليتوجه إلى الصحراء خارج نطاق سلطة دول العبودية "حين ترك بلاده وأهله وأقرباءه، وهاجر إلى بلاد يتمكن فيها من عبادة ربه عز وجل ودعوة الخلق إليه"[46]، فبنى في مكة المكرمة "البيت العتيق" ودعت رسالته إلى الإيمان بإله واحد علوي، مقابل الآلهة

(46) ابن كثير، قصص الأنبياء، دار القلم، بيروت، 1988م، ص 147.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المادية المزعومة والحاكم الإله، ورفع من قيمة الإنسان، رافضاً الطقوس والعقائد التي كانت سائدة في ذلك المجتمع العبودي، إذ أنزل إليه ربه شاة يذبحها بعد إذعانه لإرادة ربه فأوشك أن يذبح ولده إرضاء له، فاستبدلت تلك التضحية البشرية لتحل محلها تضحية حيوانية، وكانت نقلة كبرى في الوضع البشري والمفهوم الإنساني.

وتتالت الرسالات السماوية متكاملة لترفع من شأن الإنسان وتهديه إلى طرق الخلاص من عذاب الدنيا، بتنفيذ المبادئ الأخلاقية التي دعت إليه، والداعية لتحقيق الأمن الاجتماعي عن طريق الفضيلة والمساواة المعنوية بين البشر، وإبعاد شر العوز والذل عنهم، وكذلك أنواع التعدي إلى آخر تعاليم الرسائل السماوية التي تجنب عذابات الأرض في حياته وتكافئ البشر على امتثالهم لإرادة الله بالتقوى والعمل الصالح، براحتهم الأبدية.

هذه المثل الاجتماعية والأخلاقية، التي تأصلت في الشخصية العربية ولا سيما الصحراوية منها، هي التي أوجدت الأرضية الصالحة والمجتمع المهيأ كي ينزل القرآن الكريم عربياً، ولتنتَشر رسالته انتشار النار في الهشيم داخل المجتمع الصحراوي أولاً، ثم ليخرج به هؤلاء الصحراويون مبشرين فتتهاوى أمامهم الإمبراطوريات والممالك بسرعة مذهلة، على قلة عددهم، لتجاوب الشعوب مع رسالتهم السمحة والتي نزلت "رحمة للعالمين"، "وكُنْتُمْ خيرَ أمةٍ أُخرِجَتْ للناس تأمرونَ بالمعروف وتنهونَ عنِ المنكر" فنزلت الرسالة بلسانهم "إنا أنزَلناه قرآناً عربياً" مخبرة إياهم بأن فضلهم بتقواهم "لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى" لا بجنسهم، هذه الدعوة الرحيمة والكريمة هي التي نشرت عقيدة الإسلام خلال قرن واحد، وبوسائل تلك الأيام، من غرب أوروبا حتى الهند وحدود الصين.

هوية الأمة.. رسالتها

حظيت المجتمعات الزراعية على الأرض العربية بشرف بناء اللَّبِنات الأولى في صرح الحضارة الإنسانية وتأسيس كل فروع منجزها المادي والمعرفي والمعتقدي،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولعبت المجتمعات الصحراوية دور بناء الإنسان الأخلاقي، ورفدت بها المجتمعات الزراعية، وكانت وما زالت لها تجربة فريدة بحفظ أمن المجتمع الإنساني وسلامه بحكم العرف والأخلاق، كما لعبت المجتمعات البحرية دور حامل هذه المنجزات الحضارية، ونشر رسالة التمدن والتقدم البشري تلك إلى كل أصقاع الأرض التي استطاعت الوصول إليها.

وإذا كانت هذه الأمة قد مرت بمرحلة سقوط وتراجع وعقم نسبي وتخلف عن المساهمة الفاعلة في بناء صرح الحضارة بعد أن خضعت بحكم تخلفها لحكم الإمبراطوريات المتتالية من يونانية وفارسية ورومانية، عادت ونفضت عنها الغبار، وعادت وبروح رسالتها الأولى، لتطور المنجز الحضاري والإنساني ولتتصدر الأمم في هذا العطاء من القرن السابع وحتى الثالث عشر، والخامس عشر الميلادي في بعض مواقعها الحضارية، حينما نشرت رسالة الإسلام والعروبة الحضارية، والتي يعترف كل المؤرخين المنصفين بأنها أكثر حضارات التاريخ إشراقاً وإنسانية، بعد أن كانت قد نشرت قبل الإسلام الرسالتين، رسالة سيدنا موسى عليه السلام ورسالة المسيح عليه السلام.

وإذا كانت هذه الأمة كحال كل الأمم قد شاخت حضارتها وتقهقرت للمرة الثانية عن العطاء الحضاري حتى مطلع القرن العشرين، فعليها اليوم أن تستعيد بناء الظروف الموضوعية لتشييد مرحلة حضارية جديدة تحمل رسالتها القديمة نفسها بالسلام والتقدم ورفع سوية الوضع الإنساني، ولا سيما أن الحضارة الإنسانية المعاصرة تواجه أزمات كبرى، لاختلال التوازن بين المنجز المادي للحضارة والوضع الإنساني، وذلك يتم بتسخير المنجز المادي للحضارة لتحقيق العدالة وسلام البشرية ورفاهها، تلك هي رسالة الأمة العربية وهويتها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الباب الثاني

الفصل الثالث

الهوية التاريخية والجغرافية

للإمارات العربية المتحدة [47]

(47) كنت قد أشرت في مقدمة هذا المؤلَّف إلى أنني لا أهدف إلى أن أضيف إلى الكتب التي كتبت عن تاريخ الإمارات العربية المتحدة مؤلفاً جديداً ولدينا في هذا المجال كنوز، وهذا الفصل لا يرمي إلى تدوين تاريخ الإمارات لا بمنهجية السرد التاريخي ولا بتغطية شاملة لأحداثه، إنما تناولاً يخدم عنوان هذا الكتاب، وما أرى فيه عبرة أو إضاءة على مصلحة وطنية تخدم الحاضر والمصير وتسلط الضوء على معاني الهوية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أرض الإمارات
من فجر التاريخ حتى يومنا هذا

الإمارات في التاريخ وبدايات التنظيم المجتمعي

تحدثنا في فصول سابقة عن حادثة الطوفان ومرحلة التصحر، وأنماط الحياة والإنتاج التي نتجت عن أسلوب استجابة الإنسان للتحديات التي واجهته بها الطبيعة، ثم عن نمط الحياة في المجتمعات الزراعية المستقرة والأسباب التي استوجبت قيام الدول، وما استدعاه ذلك من وضع لقوانين تنظيم علاقات الناس ببعضهم وعلاقتهم بالدولة، والصحراء بطبيعة بيئتها وقلة مواردها، وضيق المجال الحيوي حول منابع المياه، ونضوب آبارها أحياناً، لم تنشأ فيها كيانات سياسية في العصور السالفة، فكانت القبائل والعشائر تدير شؤونها وتنظم علاقاتها الاجتماعية في داخلها أو مع القبائل والعشائر الأخرى بالعرف، الذي يحميه المجتمع بأسره، وتصبح قوته أفعل من قوة القانون، ويكاد يكون مستقراً لرتابة نمط الحياة والعلاقات الاجتماعية وعدم تعرضها للتغيّر بتغيّر الظروف الموجبة لها، أو لتصبح أكثر عدالة، وفي مثل هذه الظروف فإن الحياة السياسية فيها تقتصر على الأحلاف بين القبائل وتبدلها بتبدل المصالح والظروف.

وقلنا إن المجتمع الصحراوي البحري، ونخص بالذكر هنا الإماراتي، قامت ركائز الحياة فيه على خليط من الأنماط الزراعية والرعوية والبحرية، نظراً إلى عجز أي مورد مستقل من هذه الموارد الشحيحة، ولا سيما في القرون الخمسة الماضية بعد تطور وسائل النقل وسيطرة الغرب على تجارة الشرق، عن الإيفاء بالمتطلبات الحياتية، قبل اكتشاف النفط كمورد يفي بحاجات المجتمع ويتيح ظروف الاستقرار والعمران، ويوفر الشروط اللازمة لقيام دولة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لذا فعندما نتكلم عن تاريخ الإمارات، في العصور القديمة، حيث قطنت على أرضها قبائل خرجت من شبه الجزيرة العربية واستوطنت فيها، والتي يقول عنها د. منير يوسف طه "لم أشهد قط وأنا أتابع أدبيات المسيرة الحضارية والتاريخية لجنوب شرق الجزيرة العربية شعباً نازع البقاء مثل شعبها، وأرضاً قامت فيها نوازع وأحداث مثل أرضها"[48]، فإنما نتكلم عن التاريخ الحضاري والاجتماعي لشعب راسخ الوجود على هذه الأرض منذ أقدم العصور، وأن يكون الكلام عن الكيانات غير واقعي قبل بداية القرن السادس عشر، أي بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، ومحاولة البرتغاليين السيطرة على طرق التجارة بين الشرق والغرب، كما سيرد معنا في السياق، في موضعه.

أرض الإمارات في العصور القديمة
وحتى ظهور الإسلام

مدخل إلى تاريخ الإمارات

تبوأت الإمارات العربية بحكم موقعها، مركزاً حضارياً مهماً عبر التاريخ، وقد كشفت التنقيبات الأثرية عن الدور الذي لعبته في حركة الملاحة والتجارة منذ أقدم العصور ومنذ بدايات التاريخ المدوّن وحيث إنني أشرت في أكثر من موقع إلى أن هذا الكتاب ليس كتاباً للتاريخ ولا يتبع منهجية كتابته، وحيث إن ثمة مراجع كثيرة حول التاريخ القديم للإمارات، فسنشير فيما يلي إلى بعضها، فإن ما أورده عن التاريخ القديم لا يعدو كونه إثباتاً لوجود هذا التاريخ ولعراقة الهوية الحضارية لمنطقة الإمارات العربية المتحدة. و"قد ذكرت بعض الألواح الطينية المكتشفة في بعض المواقع العراقية أيضاً أسماء بعض تجار الخليج العربي القاطنين في

(48) د. منير يوسف طه، الإمارات والخليج العربي في العصور القديمة، مركز زايد للتراث والتاريخ، العين، 2003م، ص 12.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بلاد وادي الرافدين إضافة إلى أسماء الموارد التي كانت تستورد وتصدر إلى موانئه، وقد تجلت هذه الظاهرة إبان حكم سلالة أور الثالثة 2094-2009 قبل الميلاد، أو في فترة حكم السلالة الكاشية التي كان لها باع طويلة في المتاجرة مع الخليج العربي وخاصة إقليم دلمون في منتصف الألفية الثانية ق.م (...) أما المصادر اليونانية والرومانية ومن ثم المصادر العربية الإسلامية فإنها أسهبت في أهمية الخليج العربي بالنسبة إلى تجارة وادي الرافدين وحتى سواحل البحر الأبيض المتوسط"[49].

وبعد اتفاقية وقعت بين الإمارات العربية ودولة العراق للتنقيب الأثري في الإمارات العربية المتحدة عام 1971م حضرت بعثة عراقية عام 1972م، فقامت بصيانة مدافن في جزيرة أم النار ومنطقة هيلي وتم تعيين عدد من المواقع الأثرية والتي يعود تاريخها إلى ما بين الألفية الثالثة ق.م. وحتى العصور التاريخية المتأخرة كما قام عدد كبير من العلماء والباحثين الغربيين بحفريات أثرية ودراسة ما وجدوه من آثار.

وكان تجّار الإمارات وملاحوها يجنون ثروات من تجارة الشرق من الصين والهند وإليهما وكذلك إلى شواطئ البحر المتوسط، بالإضافة إلى استخراج اللؤلؤ وتصديره كسلعة ثمينة، وبقيت هذه الحال قائمة حتى بداية القرن السادس عشر، حيث أدى تطور وسائل النقل وبداية سيطرة الغرب على تجارة الشرق إلى انقطاع هذا المورد التجاري، وبعد ذلك أدّى تراجع الطلب على اللؤلؤ الطبيعي إلى انعدام مورد آخر من موارد عيش أهل الإمارات ما أدى إلى تراجع مأساوي في أوضاعهم الاقتصادية ومواردهم وتحملهم شظف العيش.

كثيرون في عالمنا يسمعون عن دولة الإمارات ولكن القليل منهم بمن فيهم أبناء جلدتنا يعرفون حجم الصعاب التي كانت تعانيها، وبنظرة سريعة إلى

(49) د. منير يوسف طه، مرجع مذكور آنفاً، ص 69.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الماضي القريب فإنه لتحضرني صور الأمس التي لا يمكن أن ينساها الآباء والأجداد عندما كان يخرج الصيادون لجلب اللؤلؤ من أعماق البحار والبحث عن طيبات الرزق وسط الموج الهادر.. كنا نترقب الأهل والأصدقاء.. جماعات يقتلها ألف مرة وفي كل لحظة نظرات الخوف والترقب وهواجس الفراق وفقد الأحباب.. هي بالتأكيد لحظات لا تنسى، فنسيجها خيوط متداخلة من الفرح والأحزان فالأهل يفرحون بعودة الأب والأخ والابن، ولكن تظل في الحلق غصة لفراق الأصدقاء ممن ابتلعهم البحر أو قل اغتالتهم رحلة البحث عن لقمة العيش وصادتهم شبكة المعاناة.

هذه هي حال الآباء بالأمس القريب.. من عشرات السنين، حيث كانوا يكابدون الأهوال من أجل الحصول على نعمتي الطعام والأمان.

الإمارات من العصور الحجرية حتى الإمبراطورية اليونانية

وكشفت التنقيبات الأثرية في مواقع أم النار، وحفيت، والقطارة، وهيلي، ومليحة، والدور وغيرها من المواقع الأثرية، عن حياة حضارية مستقرة في هذه المناطق، من آثار لأساسات البيوت والفخاريات والأواني الحجرية المنقوشة العائدة إلى ذلك التاريخ[50]، وكانت هذه المدن محطات تجارية ولا سيما إلى بلاد وادي السند، ووادي الرافدين وإيران، حيث ظهرت تأثيرات حضارية لهذه البلدان في طراز الفخاريات وباقي الموجودات الأثرية، كما وجدت أدوات تنتمي إلى العصر البرونزي.

وكان أهالي هذه المنطقة يعملون كوسطاء تجاريين بين المراكز الحضارية من جنوب شرق إفريقيا وحتى بلاد السند، إضافة إلى كون موانئ هذه الشواطئ

(50) للتوسع في هذا الموضوع انظر: الإمارات والخليج العربي في العصور القديمة، مرجع مذكور آنفاً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

محطات للسفن، حيث كانت الملاحة في الأزمنة القديمة بالنظر إلى بدائية المعارف في بناء السفن وفي الملاحة البحرية تتطلب الإبحار بمحاذاة الشواطئ. "إضافة إلى ذلك فقد تفننوا في صناعة الفخار والأواني الحجرية، كما مارسوا حرف الزراعة والرعي وصيد الأسماك"[51]، ولأسباب لم يتوصل المؤرخون إلى معرفتها حتى اليوم تراجع هذا النشاط، ولا سيما في النصف الثاني للألف الثاني ق.م. "وربما تعود إلى أسباب تتعلق بالمناخ"، أو كما اعتقد، للنزاعات التي قامت بين دول (الحوض الوسطي) بين الحثيين والفراعنة وما تلى ذلك من حروب بين دول المنطقة بدءاً من معركة مجدو 1480 ق.م. إلى نهاية الألفية الثانية بين الفراعنة ودول ما بين النهرين، فأثر ذلك الاضطراب في الحركة التجارية بين الشرق والغرب[52]. وكون الإمارات تقع على التخوم الشرقية للحوض البشري الوسطي الذي سبق أن تحدثنا عنه، فقد كانت تتلقى منتجات الحوض الوسطي، ولا سيما إنتاج بلاد ما بين الرافدين أو البضائع التي تمر عبرها والتي تخترقها من الشمال إلى الجنوب بمحاذاة النهرين أو بواسطة الملاحة النهرية عبرهما وكذلك طريق عكا - مكة، حيث كانت البضائع الواردة والصادرة تنقل إلى مختلف موانئ جنوب شبه الجزيرة العربية.

"يوجد موقع العصر الحجري الحديث اللا فخاري في جبل بحايص 18 (الموقع رقم BH 5/8) في المنطقة الداخلية من أراضي إمارة الشارقة، ويتألف من منطقة استيطانية ومقبرة، ويشير التاريخ بالكربون المشع إلى أن تاريخ الموقع يعود إلى الألفية الخامسة قبل الميلاد. وقد اكتشف موقع بحايص 18 في عام 1995"[53]. وكذلك، دلت المكتشفات الأثرية على وجود مواقع تعود للعصر

(51) دراسات في مجتمع الإمارات، مرجع مذكور آنفاً، ص 33.

(52) انظر: "ساحل بلاد الشام والصراعات الدولية"، ج1 ص 16-17، مرجع مذكور سابقاً، والذي درس أحداث التاريخ من خلال الطرق التجارية.

(53) كيسويتر، هينريك (جامعة توبيغن)، آثار الإمارات العربية المتحدة، شركة ترايدنت بريس المحدودة، بالتعاون مع مركز زايد للتراث والتاريخ، ص 26.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحجري الحديث في جزيرتي دلما ومروّح "ربما كان في الأصل موقعاً دفاعياً أو مرتبطاً بالطقوس"[54] ويعدد "كالويت" من جامعة فرايبورغ. المواقع الأثرية في الإمارات في العصر الحجري الحديث:

1- مواقع تجميع الأصداف بالمناطق الساحلية في "جزيرة الحمرا، أم القيوين، عجمان، الشارقة".

2- المواقع في السهول الصحراوية والواحات غرب جبال عمان (مقبرة العوجة، البحر، الفقع، جبل بحايص).

3- في الجزر الإماراتية (دلما، مروح، غاغة).

4- مواقع في سهول الصحراء، ومنخفضات الكثبان شمال ليوا (حبشان، بو حصا، بدع المطاوعة)[55] وتدل الآثار من ذلك التاريخ على وحدة الحضارة العربية. "ويمكن إعطاء أفضل وصف للتنوع المميز بين مجتمع عربي وآخر بأنه سلم من التماثل- التمايز"[56] "أي مقياس متواصل بلا فجوات يقر بأن للعرب هوية فردية وهوية جماعية في آن"[57].

في العصرين البرونزي والحديدي

عثر في آثار حضارة أم النار على مقبرة، فيها أوعية من نوع أوعية بلاد الرافدين، كما عثر في (قبر مليحة) على فخاريات عليها زخارف منها ملونة تنتمي

---

(54) بوبيسكو، شيبرد اليزابيت، المرجع السابق ص 45، نفسه، ص 53.

(55) كالويت، هايكو (فرايبورغ)، المرجع السابق، ص 57.

(56) Barakat H. the arab world, society, culture and state Berkeley: university of California press. 1993, p 15.

(57) Feghali, E. Arab cultural communication patterns, International journal of intercultural relations, 21, 1997, p. 346.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى تلك الحضارة وتميزها، كما عثر على سكين برونزي، وعلى صندوق مستطيل مزخرف من الحجر الصابوني وعلى عقد من خرز منوع، وكذلك على أدوات حجرية، ما يشير إلى انتماء هذه الحضارة إلى أواخر العصر الحجري وأوائل العصر البرونزي و"غدت هذه الثقافة تمتد (الآن) من شبه جزيرة مسندم إلى داخل جنوب شرق عمان في المناطق الساحلية والداخلية على حد سواء"[58] "وتظهر حقبة "وادي سوق" الممتدة ما بين 2000 و 1250 ق.م. تطوراً في صناعة الفخاريات وزخرفتها وكذلك في صناعة السيوف البرونزية من حيث طولها وتركيب مقابض لها، والتي تواصل استعمالها إلى العصر الحديدي"[59] ويشير روبر كارتر إلى وجود دلائل في العصر البرونزي على محطات للتجار في المدن بين البحرين والإمارات الشمالية، وقد تطور في هذا العصر بناء المراكب، من القوارب المصنوعة بالقصب إلى ألواح قارية مدموغة[60] وتدل الأبحاث الأثرية على أن العصر الحديدي في الإمارات عرف بناء الأفلاج لنقل المياه لتوسيع الأراضي الزراعية ونطاق الاستقرار، وكذلك عرف "قرى الرعاة" ووجدت كذلك آثار لقاعات معمدة ومراكز للسلطة، وكذلك عرفت التشريع.

يقول إرني هيرنك، في مقاله التدويل والتجارة في جنوب شرق شبه الجزيرة العربية نحو أواخر القرن الأول ميلادي "تدل القطع الأثرية التي وجدت في موقع الدور على أنها كانت منخرطة في التجارة الدولية، وذلك على الرغم من أننا لا نعرف إن كان سكانها قد نشطوا في التجارة بسفنهم الخاصة (...) وليست القطع الأثرية المستخرجة من الموقع هي وحدها التي تخبرنا عن آليات التجارة والعلاقات الدولية، فللعملات المعدنية دورها أيضاً، وقد وجدت قطع نقدية تدل على أنها

(58) جاسم، صباح محمود، آثارات الإمارات العربية، مرجع مذكور آنفاً، ص 85-99.
(59) فيلدي، سي، نفسه ص 115.
(60) Carter, R, 2002, ubeid period boat.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صكّت محلياً. وتشير الأبحاث إلى الثراء الكبير لسكانها، واستطاعوا حيازة منتجات أجنبية جاءت من مصادر ومناطق متنوعة"[61].

الخليج العربي زمن الإمبراطوريتين الفارسية واليونانية

إبان هذه العصور القديمة، كان كنعانيو ساحل بلاد الشام (الفينيقيون) يحتكرون الملاحة في البحر المتوسط، وكانوا قد أقاموا مستعمرات على الشواطئ الشمالية والجنوبية لهذا البحر، ومن أهمها مدينة قرطاجة في تونس، ولم يتبدل هذا الوضع مع قيام الإمبراطوريات الفرعونية وإمبراطوريات ما بين النهرين، فكانت تجارة الشرق من المتوسط إلى الهند مروراً بشبه الجزيرة العربية تحت سيطرة شعوب المنطقة (العرب) وكذلك بلاد فارس. وبدأ ذلك الصراع بين الشرق والغرب، بين بلاد فارس واليونان للسيطرة على هذه التجارة.

في شهر مايو من عام 334 ق.م انتصر الإسكندر الأكبر على داريوس الثالث الفارسي الأخميني في معركة غرانيك في آسيا الصغرى، وفي عام 333 انتصر عليه للمرة الثانية في معركة أفسوس، ولكن داريوس رفض عرضاً للصلح، ثم انتصر عليه مرة أخرى في معركة غوغا مليش، فقوض بذلك الإمبراطورية الفارسية الأخمينية، وتوجه بعد ذلك إلى مصر، فحاصر في طريقه مدينة صور الكنعانية (الفينيقية) التي قاومته سبعة أشهر واستولى عليها، وبعد استيلائه على مصر وصل إلى واحة سيوة بحثاً عن مصادر الذهب.

ومن مصر أرسل عدداً من الخبراء البحريين نجحوا في اكتشاف جزر البحرين (تيلوس، وأبوظبي ورأس مسندم، ورصد لأول مرة تجارة "جرها" الهفوف قاعدة الإحساء) كما رصد عملية صيد اللؤلؤ في الخليج. كما أرسل اثنين من

(61) هيرنك، ارني: آثار، مرجع مذكور آنفاً ص 201.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بحارته لاكتشاف حجم شبه الجزيرة العربية انطلق أولهما ويدعى هيرون من رأس مسندم ليصل إلى خليج السويس، وأرسل في الوقت عينه بحاراً آخر من خليج السويس بالاتجاه المعاكس على أمل أن يلتقي الاثنان، ولم يتم هذا اللقاء، فقد عاد الثاني بعد أن وصل إلى باب المندب، كما قدم هيرون تقريراً قدر فيه حجم شبه الجزيرة بحجم جزيرة الهند دون أن يكمل رحلته. ولكن عملية الاستكشاف هذه "نجحت في دراسة أحوال قبائل العرب الجنوبية ورصدها، وتقدير أهمية بلادهم الاقتصادية"[62].

وفي عصر الإمبراطورية اليونانية كانت هناك ثلاثة طرق تجارية برية رئيسية ناشطة بين شرق البحر المتوسط والهند، ينطلق أولها من خليج إنطاكية باتجاه وسط آسيا (وهو الذي دعي طريق الحرير)، والخط الثاني يخترق ساحل بلاد الشام من إنطاكية جنوباً حتى الإسكندرية، في مصر التي غدت ملتقى كل الخطوط التجارية. ومنها يتجه عبر فلسطين بمحاذاة الشاطئ الشرقي للبحر الأحمر إلى اليمن ومنها إلى الهند. ويدعى الخط النبطي، أما الخط الثالث فيتجه من إنطاكية إلى شمال العراق لينحدر جنوباً براً إلى الإمارات العربية وعُمان ومن هناك يكمل بحراً إلى الهند.

الخليج العربي في زمن العصرين الهليني والهلينيستي

وفي الفترة الهلينية والهلينيستية[63] (أي من انتصار الإسكندر الأكبر على الفرس "331 ق.م" حتى سقوط الإمبراطوريتين البيزنطية والفارسية على يد العرب- المسلمين في العقد الخامس من القرن السابع الميلادي)، حيث ساد الأمن

(62) دراسات تاريخ الجزيرة العربية: الجزيرة العربية قبل الإسلام، الكتاب الثاني، جامعة الملك سعود، الرياض، 1984 ص 405-406.

(63) الهلينية نسبة إلى اسم اليونان القديم (هلاس)، أما الهلينيستية فتطلق على الحضارة اليونانية التي استمرت تحت الحكم الروماني. والتي تشمل بلاد اليونان والأناضول وبلاد الشام والعراق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والاستقرار الطرق التجارية بين الشرق والغرب في ظل حكم هاتين الإمبراطوريتين وتطور المنجز المادي للحضارة من حيث زيادة السلع، والازدياد السكاني واتساع مدى المناطق التي نشرت هاتان الحضارتان التمدن فيها، والتوسع الكبير للتبادل السلعي بين الشرق والغرب غدا "عرب شرق الجزيرة العربية هم أغنى شعوب العالم، وذلك بسبب سيطرتهم على خطوط التجارة الغنية التي تربط العالم الروماني بالفرس وغيرهم من أمم الشرق"(64) كما تذكر بعض المصادر القديمة. وأصبحت المنطقة فيما بعد "جزءاً من حضارة الجرهائيين المفقودة، التي طبقت شهرتها الآفاق، في الفترة ما بين وفاة الإسكندر الأكبر إلى القرن الثاني الميلادي"(65)، كما يرجح علماء الآثار كسبب (إضافي) لهذا الانتعاش الاقتصادي في تلك الحقبة، ابتكار أهالي الإمارات نظام الأفلاج، الذي طور كثيراً الزراعة، ووسع من استعمالها والذي مازال معمولاً به حتى يومنا هذا.

"وفي هذه الفترة، نزحت كثير من القبائل العربية من جنوب شبه الجزيرة وغربها إلى وسط الجزيرة وشرقها، ومنذ ذلك التاريخ استوطنت منطقة الإمارات قبائل عربية مثل تميم وعبد قيس"(66)، هذا الغنى أدى إلى قيام العديد من المدن، كما تذكر المصادر الكلاسيكية عن الجوالة اليونان والرومان.

هذه الثروة والازدهار أغريا الدول القوية، "فقد حاول الإسكندر ومن بعده الرومان والفرس بسط هيمنتهم على سواحل الخليج من أجل التحكم في حركة التجارة والملاحة، إلا أن تلك المحاولات واجهت مقاومة قوية من أهالي المنطقة، وبخاصة العرب الذين سكنوا السواحل الغربية للخليج منذ القدم".

---

(64) Pliny, the elder Natural history.London the Lobel classical Lib.: 1940-63, (3) VI number 62 page 461.

(65) دراسات في مجتمع الإمارات، ص 33.

(66) دراسات في مجتمع الإمارات، المصدر السابق، ص 34.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد شهدت هذه السواحل ظهور مراكز تجارية مثل صحار ودبا والقطيف ودرين والأبلة، وقد كانت تعج بالبضائع والمنتجات المختلفة، التي جلبت من الصين والهند وإفريقيا، وبلاد الرافدين والشام وجنوب أوروبا. ليعاد تصديرها إلى نواح مختلفة[67].

الإمبراطورية الرومانية وطرق تجارة الشرق

في القرون الثلاثة التي سبقت الميلاد، وفي الوقت الذي توسع فيه اليونان نحو الشرق وأسقطوا الإمبراطورية الفارسية وأقاموا إمبراطوريتهم، كانت ثمة قوتان تتصارعان في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، قرطاج الكنعانية (العربية) في تونس، وروما في إيطاليا، (وبهما انتهى عصر دول المدن)[68] وبعد قضائها على قرطاجة عام 146 ق.م وبيع سكانها كعبيد وسيطرتها على شمال إفريقيا، بدأت روما امتدادها إلى الشرق لتستولي على الطرق التجارية الموصلة إليه، فأخذت تمد نفوذها في مناطق النفوذ اليونانية شرق المتوسط. في وقت كانت تعمل فيه على إخضاع شمال أوروبا وغربها والقبائل المقيمة فيها.

وفي النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد، كانت روما قد بسطت نفوذها على كامل سواحل البحر المتوسط "وتمكن الرومان (في القرن الأول الميلادي- المؤلف) من احتلال سوريا وتدمير استقلال دولة الأنباط الزاهرة (جنوب الأردن- المؤلف) إثر حملة الإمبراطور تراجان عليها عام 106 ميلادية.

"ثم أخذ النفوذ الروماني يتقدم في عمق البلاد العربية لاستكمال استيلائه على طرق التجارة العربية"[69] ودمر الرومان كل مراكز التجارة العربية القائمة على

---

(67) دراسات في مجتمع الإمارات، مصدر سابق.

(68) انظر: ساحل بلاد الشام والصراعات الدولية، ج1، مرجع مذكور آنفاً.

(69) أحمد العناني: جذور الحاضر الخليجي، دار المتنبي للنشر والتوزيع، قطر، ط1، 1983، ص 27.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تجارة الشرق في أطراف بلاد الشام، مثل تدمر والبتراء، كما استولوا عليها في أهم مناطقها (الإسكندرية وساحل بلاد الشام) والعراق ومصر، وبذلك انكشفت شبه الجزيرة العربية أمنياً، لكن ولقسوة طبيعتها ووعورة طرقها، وانعدام إمكانية الاستقرار فيها، أقاموا على أطرافها دولتين حاجزتين، لصد الغزوات من شبه الجزيرة العربية وامتصاص اندفاع القبائل العربية نحو الشمال، فكان العرب الغساسنة في بلاد الشام تابعين للروم، وكان المناذرة في جنوب العراق تابعين للفرس.

العلاقة بالفرس قبل الإسلام

حكم الأكاسرة الساسانيون بلاد فارس من سنة 229م، إلى أن فتح المسلمون عاصمتهم المدائن عام 636م. وقد تميز حكم تلك الأسرة بفترات ناشطة جداً ابتدأت كرد فعل على هجمات قوية شنها العرب على معظم مناطق الساحل الفارسي عام 390م. واقتحموا فيها ساحل كرمان وهرمز والأهواز، كانت تلك أغلب الظن هجرة من هجرات العرب المتكررة التي تحصل إثر قحط يصيب الجزيرة وما يتبع ذلك من حروب. وكان من أعظم ملوك تلك الدولة أردشيربابك (224-240)م. الذي كان قد أسس أسطولاً قوياً وهاجم أهل البحرين وأمعن بهم تقتيلاً، وتكرر هجوم العرب بعد ذلك بعقود عدة، ودامت هذه الهجمات نحواً من عشر سنوات كان فيها شهبور (سابور) الثاني طفلاً، فلما شب أسس جيشاً قوياً وشن غارة على ميناء قطيف، فقتل كل من صادفه، ثم تابع إلى هجر وكان فيها أناس من عبد قيس وتميم، ففعل بهم ما فعله بالقطيف، ولم يكتف بذلك بل طمر الآبار وهجَّر القبائل عن ديارها، وخلع أكتاف الرجال حتى عرف بـ "كسرى ذي الأكتاف"، ولم تكن القبائل متعاونة فهزمها وأنزل بها الرعب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أما المدن الساحلية للخليج فكان فيها حكام يعينهم الساسانيون، ويضعون فيها حاميات فارسية لإبقائها تحت سيطرتهم وظل الأمر كذلك، حتى عقد صلح الحديبية في السنة السادسة للهجرة على أيام الرسول ﷺ. فتحرر الخليج العربي من الوجود الفارسي، بعد دخول أهله في الإسلام.

الخليج العربي في العصور الإسلامية

الإمارات وانتشار الإسلام

بعض القبائل العربية التي استوطنت الإمارات في العصور القديمة، وفدت مع ظهور المسيحية إلى المنطقة مثل قبيلة الأزد، كما وفدت قبائل عبد قيس وبكر وتميم قبل ظهور الإسلام بمئات السنين، وحين ظهور الإسلام كانت هذه القبائل تنتشر من العراق شمالاً إلى مسقط جنوباً، وكانوا يدينون بالأديان السائدة في شبه الجزيرة ويمارسون طقوسها ومنها الحج، والمواسم التجارية، وكانوا حلقة الوصل بين نجد والحجاز والخليج.

ومع بداية الدعوة أوفد الرسول ﷺ العلاء بن الحضرمي إلى حاكم البحرين المنذر بن ساوي التميمي، كما أوفد أبا زيد الأنصاري وعمرو بن العاص إلى حاكمي عمان وجيفر وعبيد (عبد) ابني الجلندي الأزديين، وأرسل هؤلاء وفوداً إلى الرسول التقوه وتلقوا دعوته، وتؤكد الروايات التاريخية أن حكام منطقة الخليج العربي استجابوا للدعوة الإسلامية دون أي تردد. "وهكذا انضم عرب الخليج إلى الدولة الإسلامية في عهد الرسول ﷺ، وتخلصوا من تسلط الفرس الساسانيين"[70].

(70) روز ماري زحلان، الوحدة والحكم البريطاني، حالة دولة الإمارات العربية المتحدة، من أعمال ندوة تجربة دولة الإمارات العربية المتحدة، مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت 1982م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وبعد وفاة الرسول ﷺ لم تنج بلدان الخليج من الفتنة "حروب الردة" وظهور متنبئين بها، وحظي المتنبئون بدعم الفرس الساسانيين، الذين وجدوا من مصلحتهم تقويض هذه القوة العربية الناشئة وذلك بمحاولة هدم هذه الدعوة التي وحَّدت العرب وحولتهم من قبائل متفرقة وأحياناً متناحرة إلى كتلة عربية موحدة تهدد مصالحهم، واشتدت محنة المسلمين حين استطاع الحطم بن ضبيعة، وكان على علاقة بمسيلمة بن حبيب (الكذاب) والمدعوم من الفرس، أن يحاصر المسلمين في مدينة جواثا في البحرين، فاستنجد هؤلاء بالخليفة أبو بكر الصديق. ولم يكن الوضع مختلفاً في عمان حيث استطاع ابن مالك من العتيك من الأزد الذي ادعى النبوة أن ينصِّب نفسه حاكماً، ففر المسلمون إلى الجبال واستنجد هؤلاء بالخليفة أبي بكر.

وقاد أبو بكر جيوش المسلمين بعد توحيد الصفوف بين المهاجرين والأنصار ضد المرتدين، ففك الحصار عن المدينة، وأرسل أحد عشر لواء لمحاربة المرتدين، وكان على رأس هذه الألوية عدد من القادة من قبائل الخليج، "كما قام عرب الخليج بدور كبير في المعارك التي خاضها المسلمون ضد الدولة الساسانية، وخاصة معركة القادسية ونهاوند، كما برز منهم قادة كبار على رأس جيوش البصرة، وكان معظمهم من أهل الخليج، الذين استطاع بعضهم أن يصل حتى حدود الهند جنوباً وبلاد ما وراء النهر شرقاً"[71].

في العصر الأموي

ومع انتهاء عصر الخلفاء الراشدين والانقسام الذي حدث في السلطة ظل الخليج تابعاً لسلطة الأمويين في دمشق ومناصراً لهم، حتى نهاية الدولة الأموية، وفي هذه الفترة، هاجرت كثير من القبائل العربية التي كانت تسكن الخليج

(71) دراسات في مجتمع الإمارات، ص 36.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى "إقليم العراق" بعد أن استتبّ الأمر للعرب وسقط النفوذ الفارسي، ما أدى إلى اتساع المدى الحيوي لأهل الخليج وهجرة كثيرين منهم إلى الشمال.

وبقيام الدولة العربية، وخلال القرن الأول للهجرة، أخذت حركة التجارة والملاحة تنشط من جديد في منطقة الخليج، ما يكرر ظاهرة ازدهار الخليج حينما تتّحد بلاد الشام والعراق، كما رأينا من ازدهار الخليج في العصرين الهليني والهلينستي، وذلك يعود إلى أن اتحاد العراق وبلاد الشام تحت ظل دولة قوية، يوجِد حالة من الاستقرار الأمني والسياسي ويزيل العوائق أمام التجارة بين الشرق والغرب التي كانت تتم من خلال هذه الطرق.

"ولم ينصرم القرن الأول الإسلامي حتى أصبح الخليج من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب قاعدة بحرية واقتصادية وتجارية مهمة. انطلقت من شطآنه وثغوره الأساطيل العربية الإسلامية إلى موانئ العالم البعيد، كالهند وسيلان وبورما وشرق إفريقيا وغيرها[72].

في العصر العباسي (750–1259)م

لم تستطع الدولة العباسية أن تحفظ سلطتها على امتداد أراضي الدولة إلا لأمد قصير، فبعد ستة وعشرين عاماً على قيامها، بدأت الأقاليم تستقل واحدة تلو الأخرى عن سلطة الخليفة، وكان أول خروج في إقليم الجزائر، حيث قامت الدولة الرستمية، وبدأت الأقاليم تخرج الواحدة تلو الأخرى عن الحكم المباشر للخليفة، وإن بقيت معظم هذه الإمارات تعترف بالخليفة وتحكم باسمه دون أن تكون له سلطة فعلية عليها، وعلى أي حال فقد بقي للمسلمين خليفة واحد حتى قامت دولة الفاطميين في الجزائر وليبيا وتونس عام 900م، ومدت

(72) د. زاهية قدورة، شبه الجزيرة العربية، كياناتها السياسية، دار النهضة الحديثة، بيروت. ص 110.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نفوذها إلى مصر وبلاد الشام عام 969م. فغدا للمسلمين خليفتان، عباسي في بغداد، وفاطمي شيعي في مصر.

ولم يستمر حكم الخليفة العباسي المباشر (حتى السقوط النهائي للدولة العباسية، حينما اجتاح المغول العراق ودمروا بغداد عام 1258م)، إلا على نجد والحجاز وبلدان شرق الخليج، فحتى شمال العراق وشمال سوريا، كان قد خرج عن سلطة الخليفة الفعلية عام 929م حين عجز الخليفة عن الدفاع عن الثغور الشمالية للدولة بوجه الإمبراطورية البيزنطية، فأقام الحمدانيون إمارة لهم لحماية الثغور في شمال سوريا والعراق عام 929م. التي استمرت حتى وفاة سيف الدولة الحمداني عام 991م.

أحوال الخليج أيام الدولة العباسية

لم تتبدل حال الخليج إبان حكم العباسيين، فالازدهار الذي بدأ في القرن الأول الهجري، لم يتأثر بانتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين واستمر هذا الازدهار، وقد أسهبت كتب الجغرافيا والرحالة العرب في وصف مراكز الخليج التجارية الممتدة من مسقط في الجنوب إلى البصرة في الشمال، وقامت على شواطئ الخليج، كما أشار الرحالة العرب إلى مدن تجارية مثل "دبا وكلبا وخورفكان والفجيرة على الساحل الشرقي، وجلفار وربما مدن أخرى قد تغيرت أسماؤها على الساحل الغربي للإمارات"[73] وقد تطورت فيها الملاحة البحرية تطوراً كبيراً، حيث كانت الأساطيل التجارية العربية تنفرد بتجارة الشرق فقامت المدن على الموانئ التجارية، وكانت تلك المدن تعج إبان العصر الإسلامي وتزدهر فيها الأسواق المملوءة بالسلع والبضائع المعروضة من منتجات الشرق والغرب ما جعلها شديدة الثراء، وعرف الخليج أمناً مستتباً وشاملاً، حيث غدا بحيرة داخلية، محاطة

(73) دراسات في مجتمع الإمارات، مرجع مذكور آنفاً ص 37.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالمدن التجارية المهمة والغنية "تربعت على رأسها مدينة البصرة، باعتبارها إحدى القواعد التجارية العالمية المهمة في العصور الوسطى"[74] ولم تتأثر هذه الحركة بالغزو الصليبي (1098م-1289م)، بالرغم من أن هذه الغزوات كانت للسيطرة على تجارة الشرق، ودليل ذلك أن بعد احتلال الصليبيين للقدس عام 1099م، وهو ما ادعوه هدفاً لحملتهم، تابعوا زحفهم جنوباً، وبعد معركة في عسقلان وصلوا إلى العقبة قاطعين مناطق صحراوية ليصلوا بين عكا والبحر الأحمر، وليسيطروا على هذا الخط التجاري لتجارة الشرق. فاقتصرت حصتهم على هذا الجزء البري من هذه التجارة.

وعلى الرغم من أن هدف الحملات الصليبية كان السيطرة على كل تجارة الشرق، إحياء لمشروعات الإمبراطوريتين اليونانية والرومانية، والحنين للعصر الإمبراطوري (الروماني) وما تميز به من رخاء، هذا الحنين الذي ساد في أوروبا العصور الوسطى، فقد امتصت بلاد الشام وبعدها مصر زخم هذه الحملات، إذ فشلت كل محاولاتهم لاحتلال عمق بلاد الشام، كما فشلت غزوتهم لمصر لإسقاطها كونها مؤازرة لبلاد الشام أحياناً وحاكمة عليها أحياناً أخرى، بالإضافة إلى أن أحد الخطوط التجارية يخترقها بين الشرق والغرب.

وعجزُ الصليبيين عن إخضاع عمق بلاد الشام ومصر، حمى الجزيرة العربية والعراق والخليج، فبقيت هذه المناطق على ازدهارها وسيادتها، إلى أن حدث اتفاق بين الصليبيين والمغول، فاجتاح هؤلاء العراق من شرقه واحتلوا بغداد ودمروها عام 1259م، وكان من تداعيات ذلك سقوط أمن الخليج، وإن يكن هذا السقوط النهائي لم يأت إلا بعد ما يقرب من مئة وسبعين سنة كما سيمر معنا في السياق لظروف تاريخية وتوازن قوى عالمي، وما حمى الخليج في

(74) فتحية النبراوي ومحمد نصر مهنا، الخليج العربي، دراسة في تاريخ العلاقات الدولية والإقليمية منشأة المعارف، الإسكندرية 1988، ص 29.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حينه أن الصليبيين لم يبنوا قوة بحرية لهم في خليج العقبة على البحر الأحمر، ولعل ذلك يعود إلى معرفتهم بقوة النفوذ العربي الإسلامي، بمقياس ذلك العصر، على البحر الأحمر.

الملاحة الخليجية من سقوط بغداد حتى اكتشاف رأس الرجاء الصالح

لم يؤثر سقوط الدولة العباسية واحتلال العراق في دور دول الخليج الملاحي، فإمبراطورية المغول كانت إمبراطورية برّية، ونعتقد أن هذا التوجه كان بحكم نشأة المغول القارية فلم يسترع البحر اهتمامهم، واكتفوا بطرق التجارة البرية إلى الهند، التي يسيطرون عليها، وحينما عجزوا عن التقدم براً باتجاه الشواطئ الشرقية للمتوسط، حيث صدَّهم المماليك والدولة البيزنطية، وجهوا نشاطهم العسكري نحو شمال غرب آسيا، فامتدت إمبراطوريتهم من الباسيفيكي شرقاً إلى حدود أوروبا الشمالية غرباً شاملة أرض فارس جنوباً والعراق.

وعلى الرغم من الأهمية الاستراتيجية لموقع العراق بالنسبة إلى أمن الخليج ومن سيطرة المغول على ضفته الشرقية، فقد تركوا ضفته الغربية وشأنها فقامت في عمان والخليج حالة مستقلة، أسهمت في استمرار حالة الاستقرار وتراكم الثروات فيها، وكان الفضل في ذلك لبحارتها وتجارها الذين سيطروا على الملاحة في المحيط الهندي. "واشتهر منهم كثير من الربابنة والملاحين، ولم يكن أحمد بن ماجد إلا واحداً من عشرات الملاحين العرب الآخرين الذين لمعت أسماؤهم في تلك الفترة"[75].

ومن أشهر هؤلاء البحارة أحمد بن ماجد[76] الذي عاش في القرن الخامس عشر، وقضى معظم أيامه في الحل والترحال، متنقلاً بين موانئ الخليج العربي وبحر

(75) دراسات في مجتمع الإمارات، ص 37.

(76) هو أحمد بن ماجد العامري، من قبيلة بني عامر بن صعصعة، التي سيطر كثير من فروعها على الخليج عبر العصور.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العرب والبحر الأحمر ومرافئها وسواحل إفريقيا الشرقية وسواحل الهند والصين، ولم يمنعه تنقله الدائم من البحث العلمي "فكان عالماً بالفلك وبفن الملاحة البحرية وطبق فيه أصول علم الفلك، فصارت ملاحته فلكية، بيَّن فيها مواقع النجوم ومنازل القمر[77] وطريقة الاهتداء بها في البحر، وتواريخ طلوعها وغروبها محسوبة بالسنة الشمسية، وله من المصنفات في هذا العلم الكثير معظمها جاء على شكل أشعار وأهازيج عرفت بحاويات ابن ماجد، وكان ذلك غاية ما وصلت إليه الكتابة العربية في الملاحة"[78].

ولقد انتشرت تصانيف ابن ماجد انتشاراً واسعاً في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وتُرجم الكثير منها إلى لغات شرقية وأوروبية عدة كالتركية والروسية والإنجليزية والفرنسية والبرتغالية، ثم تناولها الباحثون، خاصة المستشرقين بالدرس والتمحيص في العصر الحديث. ولأهمية تصانيفه، غدا يؤرخ لعلم الملاحة البحرية في زمنه، وهو "أول مؤلفي المرشدات الملاحية في العصور الحديثة"، حسب تعبير المستشرق غبرييل فران.

افتراء المستشرقين

والبرتغاليون الذين استفادوا من خرائط الإدريسي للالتفاف حول القارة الإفريقية، اعتمدوا على مؤلفات ابن ماجد للإبحار في المحيط الهندي، وكذلك الإنجليز من بعدهم، الأمر الذي ساعدهم على الحصول على لقب سادة البحار "ويعزو المستشرق الإنجليزي تيبيتز هذه الشهرة الواسعة التي نالها ابن ماجد في الأوساط الأوروبية إلى قضية (لقائه) فاسكو دي جاما، (وإرشاده) إلى الطريق

---

(77) تلك كانت ثورة في علم الملاحة البحرية، إذ لم تعد محاذاة الشواطئ لازمة للملاحة البحرية، ما قصر المسافات، وقلل المخاطر.

(78) دراسات في مجتمع الإمارات، ص 37.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الذي أوصله إلى ساحل الهند"[79] ويؤكد المستشرق الفرنسي فرّان ذلك، كما ضلّل هذا الرأي الكثير من المؤرخين العرب والأجانب[80].

ونرى في ذلك مخالفة للواقع وافتراء على هذا العالم، فهم قد استفادوا من علمه وأرشدتهم مؤلفاته.

الأسطول البحري
والأمن العربي والخليجي

الأسطول العربي في زمن الدولة العربية–الإسلامية

كان عرب اليمن وحضرموت وعمان والبحرين، في العصر الجاهلي بوجه عام والعصر السبئي بوجه خاص، قد برعوا في ركوب البحر[81] بحكم موقع بلادهم على البحر الأحمر من الجهة الغربية، والمحيط الهندي جنوباً والخليج العربي شرقاً، وبحكم اشتغالهم بالتجارة في البر والبحر في مراحل تاريخهم القديم، ولكنهم قُبيل ظهور الإسلام كانوا قد نسوا كل اتصال لهم بالبحر، بحكم تعرض بلادهم للسيطرة الحبشية والفارسية، فقد ضم الفرس اليمن والبحرين وما يليها، وقضوا على تجارة العرب في الخليج العربي واحتكروا التجارة البحرية لمصلحتهم، فانقطع أهل الخليج عن هذه التجارة، واقتصر نشاطهم على التجارة البرية.

---

(79) دراسات في مجتمع الإمارات، ص 38.

(80) روز ماري زحلان، مرجع مذكور آنفاً.

(81) انظر:

أ- محمد ياسين الحموي، تاريخ الأسطول العربي، 1945، ص 8.

ب- السيد عبد العزيز سالم، دراسات في تاريخ العرب، ج1، عصر ما قبل الإسلام، الإسكندرية 1968.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأسطول العربي في البحر المتوسط

بعد ظهور الإسلام واستعادة العرب سيطرتهم على بلادهم، ومع بداية الفتوحات الإسلامية لبلاد الشام، وسيطرتهم على سواحلها، بقيت هذه السواحل تتعرض لهجمات متوالية من الأسطول البيزنطي، فَتُدَمر مدنها حيناً وتحتلها أحياناً. ما يجبر العرب على إعادة فتحها[82].

وهذا ما دفع معاوية بن أبي سفيان وكان والياً بعدُ على بلاد الشام إلى الطلب من الخليفة عمر بن الخطاب أن يأذن له ببناء أسطول بحري للدفاع عن السواحل، فلم يستجب الخليفة لطلبه وطلب منه بناء الحصون والمحارس والمناظر وجلب المرابطة للدفاع عن السواحل. "ولم يكن الخليفة عمر بن الخطاب يرهب البحر ويخشاه أو يشفق على المسلمين من ركوبه، ولكنه رأى ببعد نظره وسداد رأيه أن العرب ما زالوا حديثي العهد بما بلغوه من حدود بحرية على البحر الأبيض المتوسط وهم يجابهون عدواً شرساً صعب المراس شديد التمرس بفنون الملاحة والقتال البحري، بالإضافة إلى التجارب المريرة التي شهدها العرب في البحر الأحمر والخليج العربي،[83] كما سيمر معنا في السياق.

وعندما تولى عثمان بن عفان الخلافة، شرع معاوية ببناء الأسطول على ساحل بلاد الشام في عكا ثم في صور كما شرع والي مصر ببناء الأسطول. فكانت أول غزوة للمسلمين هي غزوة عام 38هـ لقبرص. واشترك الأسطولان في واقعة "ذات الصواري" عام 38هـ. وفيها انتصر المسلمون انتصاراً حاسماً على

---

(82) انظر عبد المجيد عبد الملك، تاريخ الإقطاع في لبنان 758-1864، المركز العربي للأبحاث والتوثيق، بيروت، 2000، وكذلك ساحل بلاد الشام، مرجع مذكور آنفاً ج1 ص 76-82.

(83) انظر: د. السيد عبد العزيز سالم، د. أحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة، بيروت 1969.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البيزنطيين، ما ثبت وجودهم كقوة بحرية في المتوسط[84] ومنذ ذلك التاريخ، بدأ تاريخ طويل من النزاع للاستيلاء على جزء البحر الأبيض المتوسط والسيطرة على الملاحة فيه مع بيزنطة، ثم مع القوى البحرية الأخرى التي نشأت عليه حتى سقوط الدولة العثمانية، وبعد أن كان البيزنطيون يطلقون على البحر المتوسط اسم "Mara Nostrom أي بحرنا" غدا هذا البحر، ولا سيما أيام الدولة الفاطمية يدعى البحر العربي.

الملاحة على شواطئ شبه الجزيرة العربية

سبق أن ذكرنا أن الخليفة عمر بن الخطاب منع معاوية من إنشاء الأسطول نظراً إلى التجارب المريرة التي آلمته وجعلته يتريث في التعاطي مع مسألة ركوب العرب البحر حتى يألفوه ويتقنوا فنونه.

إذ يذكر الطبري[85] "أن العلاء (بن الحضرمي، والي البحرين-المؤلف) ندب أهل البحرين وحملهم في البحر إلى فارس بغير إذن عمر، وكان عمر لا يأذن لأحد في ركوبه غازياً، بكره التغرير بجنده... فعبرت تلك الجنود من البحرين إلى فارس، فخرجوا في اصطخر (لعله نوع من البواخر- المؤلف) وبإزائهم أهل فارس، وعلى أهل فارس الهربذ، اجتمعوا عليه فحالوا بين المسلمين وسفنهم، فقال خالد (بن المنذر بن ساوي أحد قواد العلاء) في الناس... وغرقت سفنهم ثم لم يجدوا إلى الرجوع في البحر سبيلاً"، فعمد عمر إلى تأديب العلاء بن الحضرمي، والي البحرين، لتغريره بالمسلمين في الخليج العربي وتعريضهم للهلاك في سنة 17هـ"[86]، وقد يكون أشد الأحداث إيلاماً للخليفة عمر إخفاق علقمة بن مجزر في حملته

(84) إبراهيم العدوي، الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم، القاهرة، 1958، ص 64.
(85) الطبري، تاريخ الأمم والملوك، طبعة لندن 1881-1882، ج1 ص 2546.
(86) تاريخ البحرية الإسلامية، مرجع مذكور سابقاً ص 15.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البحرية إلى الحبشة سنة 20هـ، إذ غرقت سفنه في البحر، فكان لذلك أثره العميق في نفسه[87].

وبعد استيلاء العرب على بلاد فارس، (وكانت بحرية الفرس على أي حال ضعيفة)، وإحكام سيطرتهم على الشواطئ الشرقية للبحر الأحمر، انتفى الخطر البحري على الأطراف الجنوبية لشبه الجزيرة العربية، وكذلك عن مشرقها لتوغل العرب في عمق آسيا.

ولم نصادف أخباراً تاريخية تفيد عن أساطيل حربية تصدت للتجار العرب المتوجهين إلى الشرق، فكانت رحلاتهم إلى السند والهند وتلك المناطق الشرقية كافة رحلات تجارية وسلمية، واحتكاكاً حضارياً سلمياً، لم يدفع الدولة العربية إلى إنشاء أساطيل بحرية قوية على البحر الأحمر أو على الخليج وجنوب شبه الجزيرة، فنشطت الملاحة العربية واستأثرت بتلك التجارة من دون متاعب تذكر.

هذا الأمر استمر طوال ثمانية قرون، أي منذ القرن السابع حتى نهاية القرن الخامس عشر الميلادي، عندما اكتُشِف طريق رأس الرجاء الصالح، فتغيرت الاستراتيجيات الدولية، وموازين القوى العالمية، وفُتحت صفحة تاريخية سوداء على مصير الخليج والوطن العربي بأسره.

(87) الطبري، ج1، ص 2595.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الرابــع

التنافس الاستعماري الغربـي
ومحاولات طمس الهويـة الخليجية والإماراتية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مشاريع السيطرة الاستعمارية الغربية

إخفاق المشروع الأول

يذكر كل مؤرخي الغرب أن حنيناً إلى العصر الإمبراطوري القديم، بما حمله من سلطة ورخاء، كان يسيطر على مشاعر الشعوب الأوروبية في العصور الوسطى، وكان الشرق قبلة أحلامهم التوسعية اقتداء بالإمبراطوريتين اليونانية والرومانية البائدتين وأهدافهما بالسيطرة على طرق الشرق التجارية، ولم تفلح الحملات الصليبية (عام 1098م-1289م) في تحقيق هذا الهدف، إذ اصطدمت بكيانات سياسية تملك، برغم تراجع الحضارة العربية وتفكك دولة العرب، قوة عسكرية حالت دونهم وتحقيق هذا الهدف، فاقتصرت نجاحات الدولة الصليبية على احتلال ساحل بلاد الشام وموانئه التجارية، والسيطرة على طريق عكا- العقبة براً، ولكن ذلك لم يتجاوز حصة جزئية من هذه التجارة، ولم تسعفهم قواهم على مدى قرنين على تجاوز هذه الحصة إلى أن ظهرت قوة المغول في الشرق فتحالفوا معهم، ولم يؤد النجاح الذي أحرزه هؤلاء المغول بتدمير بغداد واحتلال العراق، وإسقاط الدولة العباسية عام (1258م)، إلى تقدم المشروع الصليبي إذ بقيت بلاد الشام ومصر صامدتين، برغم اضطراب الأحوال السياسية فيهما، قادرتين على منع الصليبيين من إحراز تقدم نحو بحار العالم القديم الجنوبي الموصلة إلى الهند، فتابع هذا المشروع تقهقره حتى انهار نهائياً بعد ثلاثة عقود (1289م). ما مد في عمر ازدهار المناطق الخليجية وبقيت المناطق العربية قرنين ونيفاً آمنة من تهديد الغرب لها.

هذه الانتكاسة زادت الحضارة الأوروبية المسيحية في العصور الوسطى إغراقاً في أصوليتها الدينية، ونفوراً من العرب في غرب القارة الأوروبية، وهو الأمر الذي حال دون استفادة هذا الغرب من تقدم العلوم العربية[88]، بالرغم من أن

(88) انظر: ساحل بلاد الشام، ج1، ص 105-133.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ترجمة هذه العلوم من العربية إلى اللغات الأوروبية كانت قد بدأت على أيدي يهود الأندلس من زمن ابن رشد (عام 1126م-1198م) ولكتبه، "الذي استطاع، من غير أن يتخلى عن الديانة الإسلامية، أن يطور العناصر المادية في فلسفة أرسطو (...) والذي لعبت تعليقاته على أعمال أرسطو دوراً كبيراً في تعريف الأوروبيين بالفلسفة القديمة"[89] وقد ترجمت فيما بعد إلى لغات أوروبية كل العلوم العربية التي كانت أساس النهضة الأوروبية، ونخص بالذكر منها هنا كتب الإدريسي وخرائطه وكتابات ابن ماجد.

أحداث جليلة

يعتبر بعض المؤرخين العرب أن حروب الاسترداد Reconquista الإسبانية كانت امتداداً للحروب الصليبية[90] وأن سقوط غرناطة عام 1492م، كان رداً على سقوط القسطنطينية عام 1453م، وعلى أية حال، فقد ظهرت في غرب إسبانيا المحررة دولة سميت دولة البرتقال أو البرطقال (البرتغال)[91]، وبعد سقوط آخر معاقل العرب في الأندلس، (غرناطة عام 1492م)، استطاع أحد بحارة هذه الدولة (فاسكو دي جاما)، بالاستعانة بخرائط الإدريسي وكتب الرحالة العرب، إرسال بعثة لاستكشاف طريق بحرية إلى الهند إحياء للحلم القديم، باستيلاء الغرب على التجارة الشرقية، والتخلص من وساطة دولتي المغول والمماليك وعرب الخليج المسيطرين عليها، فاكتشف فاسكو دي جاما هذه الطريق بالتفافه حول إفريقيا، والتي عرفت بطريق رأس الرجاء الصالح عام (1496م)، "وكان أول بحار أوروبي تطأ قدماه أرض الهند عن طريق البحر"[92].

---

(89) الموسوعة الفلسفية، م. روزنتال وب يودين، ترجمة سمير كرم- دار الطليعة، بيروت 1974، ص 8.

(90) د. عبدالمنعم ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، مكتبة الجامعة العربية، بيروت 1966، ص 240.

(91) د. عبدالمنعم ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ص 240.

(92) ساحل بلاد الشام، مرجع مذكور آنفاً، ج2 ص 30.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد أسفرت أحداث سقوط غرناطة واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح عن نتائج فادحة الخطورة على الصعيد العالمي، فغيرت توازنات القوى والاستراتيجيات العالمية، ومصائر العالم بأسره، فلم يمض عقد ونيف حتى سقطت إمبراطوريتان كبيرتان نتيجة ما فقدتاه من موارد، فقد سقطت إمبراطورية المغول وحل محلها الصفويون عام 1508م، وتبعها سقوط دولة المماليك على يد الأتراك العثمانيين (عام 1516م-1517م)، ووضعت هذه الأحداث بعد سقوط القسطنطينية نهاية للمرحلة التاريخية التي اصطلح على تسميتها "العصور الوسطى".

هوية الإمارات العربية
في عصر السيطرة الاستعمارية الغربية
البرتغال وبداية عصر الاستعمار الغربي

أنشأ هنري الملاح (عام 1394م-1460م) أول مدرسة ملاحية بغاية الدوران حول القارة الإفريقية، ولم تكن المعارف الجغرافية الغربية قد توصلت إلى معرفة أن هذا الخط البحري يوصل إلى الهند، إنما كانت الغاية من هذا التأهيل البحري:

1- مهاجمة بلاد الإسلام وإكمال حروب الاسترداد (Reconquista).

2- إعادة احتلال الأراضي المقدسة.

3- إقامة علاقات تجارية والسيطرة المباشرة على سوقي النخاسة والذهب في شرق إفريقيا.

وفي أعوام 1419م و1431م و1445م و1482م، توالت اكتشافات البحارة البرتغاليين لشواطئ إفريقيا الغربية ووصلوا إلى الكونغو، وفي عام 1498م

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اكتشف فاسكو دي جاما طريق الهند بالدوران حول إفريقيا مستعيناً بمعارف ابن ماجد، وخرائط الإدريسي، وفي عام 1502م "أبحر فاسكو دي جاما مرة ثانية إلى الهند وأنشأ على طريقه وكالات تجارية برتغالية في إفريقيا، وعلى شاطئ "مالا بار" (...) ما مهد لقيام المستعمرات الأوروبية والسيطرة على تجارة الرقيق"[93].

ولم تجد هذه الأهداف الاستعمارية في البلاد العربية قوة قادرة على ردها وكان المماليك هم أقوى دولة إقليمية يسيطرون على سوريا ومصر واليمن وغرب شبه الجزيرة العربية، وهم يسيطرون على تجارة البحر الأحمر ولا سيما سوق التوابل، ولم يكن لهؤلاء كما سبق وذكرنا قوة كبيرة في هذا البحر، وكانوا قد أهملوا الأساطيل البحرية، بينما كان لديهم أسطول نهري كبير لنقل البضائع من جنوب مصر إلى البحر المتوسط "وليس لدينا أرقام دقيقة عن عدد مراكب الأسطول (البحري- المؤلف) في عهد المماليك فالأرقام التي بين أيدينا تتراوح بين أربعين وأزيد من مئة قطعة، بينما في عهد الفاطميين زادت على ستمئة"[94] حسبما جاء في تاريخي ابن إياس والمقريزي، ويبدو أن معظم هذا الأسطول كان في البحر المتوسط، ولم تكن لهم قوة تذكر في البحر الأحمر فلم تستمر سيطرتهم عليه "بسبب طمع البرتغاليين (...) وضعف دولة المماليك"[95] ولا سيما أن البرتغاليين تعاونوا مع "الحبشة المسيحية في إفريقيا، في البحر الأحمر وساحل بحر الهند، فهاجموا سواحل الحجاز ابتداء من عام 1505م، وعبثوا بمراكب تجار الهند المسلمين وأخذوا ما معهم من بضائع حتى نقصت المؤن مثل الأرز وغيره في مصر وبلدان عربية أخرى، وقد اضطر ولاة المماليك في الحجاز إلى بناء أبراج على ساحل جدة، وجهزت المراكب لوقف خطر الفرنجة فحقق المماليك بعض الانتصارات عام 1508م (...) إلا أن هذا النصر

(93) ساحل بلاد الشام، مرجع مذكور آنفاً، ج2 ص 30.

(94) د. عبدالمنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، عام 1964م، ص 191.

(95) د. عبدالمنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك، ص 190.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان مؤقتاً وكُسِر المماليك كسرة فاحشة عام 1509م بحيث قُتل العسكر الموجه نحوهم عن آخرهم، ونهبت مراكبهم"[96] وكانت دولة المماليك تعاني حالة اقتصادية مزرية بسبب فساد حكامها، وعلى إثر هذا الحدث "أنذر الغوري البابا بتخريب الأماكن المقدسة النصرانية إذا لم يرتدع البرتغاليون عن شرهم فلم يجدِ الإنذار فتيلاً"[97] و"بعد ثلاث عشرة سنة ضرب قائدهم الفونسو دا البوكرك بلدة عدن"[98] وبذلك سقط خط الدفاع عن دولة عدن التي كانت تضم الإمارات العربية، والتي كانت قد أعلنت استقلالها عام 1259م عن سلطة الخليفة العباسي، بعد سقوط العراق بيد المغول عام 1258م، وخضوع مصر وسوريا لسلطة المماليك.

وهكذا يكون الأمن العربي قد سقط بسقوط العراق وبلاد الشام ومصر[99] فغدا مكشوفاً من مشرقه إلى مغربه، فلم تلبث أن سقطت دولة عمان والإمارات العربية المستقلة عام 1522م، ومنذ سقوط هذا الأمن العربي، لم يعد يحمي استقلال وأمن ساحل بلاد الشام، وكل السواحل العربية، ولا سيما المناطق المعزولة بحواجز طبيعية، من جبال أو رمال، وخصوصاً اليمن وعدن والإمارات العربية وصولاً إلى شمال الخليج العربي، إلا نضال شعوبها وتضحياتهم في وجه عتوّ الاستعمار الغربي، للحفاظ على هويتها واستقلالها، وبدأت الكيانات في الظهور، وإعطاء كل هذه المناطق شخصيتها الخاصة، وفرادتها في التنوع ضمن الوحدة.

ونظراً إلى صغر أحجام هذه الكيانات، وقلة عدد سكانها، فإن أمنها لا يمكن أن يتحقق إلا بصياغة استراتيجية أمنية عربية، تحافظ على الخصوصية

---

(96) د. عبدالمنعم ماجد، العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، مكتبة الجامعة العربية، بيروت 1966، ص 241.

(97) د. فيليب حتي، د. إدوار جرجي، د. جبرائيل جبور، تاريخ العرب، دار غندور، بيروت، ط5، 1974، ص 790.

(98) د. فيليب حتي، مرجع سابق.

(99) انظر ساحل بلاد الشام، ج1، ص 18-19، حول موضوع الأمن العربي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الكيانية، ضمن الأمن الكلي والهوية الجامعة، في عملية تكامل بين الوزن البشري والجغرافي، والإمكانات المادية، وبذلك وحده يتحقق أمن العرب، واستقلالهم، وسيطرتهم على أرضهم وبحارهم ومصيرهم وهويتهم.

فمصلحة الكيانات العربية، ولا سيما الثغور البحرية، أن تكون دول الداخل مستقلة ومترابطة بالرباط القومي، فأية رابطة غير الرابطة القومية لا يمكن أن تحمي الأمن القومي العربي، فحين حل الخطر الغربي الداهم "تلك الحالةُ السياسية التي كان عليها العالم الإسلامي آنذاك. فقد كانت هناك ثلاث دول إسلامية كبرى تتصارع فيما بينها من أجل السيطرة على المشرق الإسلامي (...) المماليك في مصر، والصفويون في إيران، والعثمانيون في آسيا الصغرى"[100].

وكانت هذه الدول الثلاث تتصارع على الطرق البرية، حين دخل البرتغاليون على خط الصراع، وقد "أعطى البرتغاليون برهاناً مازال قائماً حتى اليوم على أنه لا سيطرة على الخليج إلا لمن تعززت قواه البحرية"[101]. وهذا وضع قوة الولايات المتحدة في تزايد بعد انحسار النفوذ البريطاني في الخليج منذ عام 1971، وما تعمل إيران على تنفيذه بتقوية أسطولها البحري.

ففي عام 1529م أرسل العثمانيون أسطولاً بحرياً للسيطرة على الخليج فلم يفلحوا إذ لقوا مقاومة من الفرس والبرتغاليين، وأعادوا الكرة عام 1550م بعد وصولهم إلى بغداد واستيلائهم على العراق عام 1534م في عهد السلطان سليمان القانوني[102]، إذ استنجد بهم سكان منطقتي القطيف والبحرين، فأعانوهم على

(100) دراسات، مرجع مذكور آنفاً ص 39.
(101) النبراوي ومهنا، مرجع مذكور آنفاً. ص 29.
(102) القاسمي، مرجع مذكور آنفاً ص 22.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طرد البرتغاليين، كما هاجم الأسطول التركي مسقط، واحتل جزيرة قشم، وهدد هرمز عام 1551م، ثم اضطر إلى الانسحاب، وحاول الأتراك للمرة الرابعة عام 1581. فاحتلوا مسقط، لكنهم طردوا منها ولم يعاودوا الكرة بعد ذلك[103].

وهكذا، فقد لعب السلاجقة ومن بعدهم المماليك والأتراك العثمانيون دوراً فادح الخطورة على مصير العرب وأمنهم، إذ بسيادتهم على الأرض العربية أسقطوا الأمن العربي والمصالح العربية ولا سيما الخليجية منها، حين أسقطوا السيادة العربية الملاحية في الخليج العربي وبحر عمان وقسم من المحيط الهندي، والدور التجاري الذي لعبوه منذ فجر التاريخ، وكذلك السيادة الملاحية على البحر المتوسط التي بلغت ذروة قوتها أيام الدولة الفاطمية[104]، حينما غدا البحر المتوسط والخليج العربي بحيرتين عربيتين، وأهمل العثمانيون بعد المماليك الأسطول البحري، ما أسقط أمن العرب من المحيط إلى الخليج وأفقدهم دورهم التجاري والحضاري والثقافي، وجرّ عليهم سبعة قرون من التخلف والفقر.

الإمارات العربية والصراع لحفظ الهوية في عصر السيطرة الاستعمارية الغربية

الإمارات العربية في ظل الاحتلال البرتغالي (عام 1522م-1640م)

سبق أن تحدثنا في الصفحات السابقة عن أن دولة عُمان المستقلة 1259م-1522م حسب ما ورد في "تاريخ الوطن العربي خلال أربعة عشر

(103) أمين سعيد، الخليج العربي في تاريخه السياسي ونهضته الحديثة، دار الكتاب العربي، ص 32، 33. (دون تاريخ).

(104) انظر: د. عبدالعزيز سالم، د. مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت 1969م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قرناً"[105]، لم تكن دولة بالمفهوم الحديث للكلمة إنما كانت أقرب إلى تحالف قبائل، أو هيمنة الأقوى بينها.

فحينما وصلت حملات البرتغاليين إلى الخليج كانت الصراعات محتدمة بين هذه القبائل "ففي عمان كان النبهانيون يلفظون أنفاسهم الأخيرة، وفي الخليج فإن إمارة بني جبر لم يكن في مقدورها فعل شيء تجاه هذه المتغيرات الإقليمية، وهي كذلك لم تواكب التطور الذي شهده ذلك العصر، وسرعان ما انهزمت جيوشها أمام المدفعية البرتغالية، أما مملكة هرمز في جنوب الخليج، التي كانت أهم تلك القوى المحلية، فهي الأخرى انهارت قواها العسكرية بعد أن سيطر البرتغاليون على حركة الملاحة والتجارة في المحيط الهندي، وهو الركيزة التي كانت تعتمد عليها مملكة هرمز"[106]. وبعد معارك غير متكافئة، حقق البرتغاليون بقيادة البوكرك نصراً تلو الآخر بين عامي 1507م و1515م، وكانت أشهر المعارك التي خاضها وأكثرها مأساوية عام 1509م، ضد دولة المماليك، كما أسلفنا، والتي "كان أثرها أشد مما لحق بالدولة الإسلامية على يد المغول حيث إنها خنقت الحياة الاقتصادية للمسلمين في المشرق"[107].

وارتكب البرتغاليون بقيادة البوكرك "ما لا يوصف من الجرائم والأعمال الوحشية، فكلما سقطت مدينة في أيديهم، أحرقوا منازلها ودمروا مساجدها ومثلوا بالأسرى الذين يقعون تحت أيديهم "وقتلوا الآلاف إما حرقاً وإما صبراً" وكان البوكرك بالحقد الذي يملأ صدره والأطماع التي تعمي قلبه "أسوأ مستعمر عرفته المنطقة عبر التاريخ" ولم يوفر منطقة تقع تحت مدى رماية مدفعيته، إذ كان هو وقادته مشحونين بالأفكار والمشاعر الصليبية وروح الانتقام، فلم يكتفوا بالسيطرة

---

(105) خريطة زمنية، وضعها معهد الدراسات العليا التابع لجامعة الدول العربية وطورتها ونشرتها مجلة العربي ووزعتها هدية مع عدد يناير 1982.

(106) دراسات ، مرجع مذكور آنفاً. ص 39.

(107) دراسات ، مرجع مذكور آنفاً.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على الموانئ اللازمة لتأمين طريقهم إلى الهند في إفريقيا وأطراف الجزيرة العربية، بل تخطوها إلى البحار العربية الداخلية للقضاء على كل إمكانية لمنافستهم تجارياً، وإشفاءً لغليلهم وروح الانتقام لديهم، برغم روح التسامح، ورسالة الحضارة، التي حملها العرب إلى العالم بأسره، كما يشهد كل ثقات المؤرخين المنصفين، ونخص بالذكر الأندلس (شبه جزيرة أيبيريا) التي خرج منها هؤلاء الفاتحون.

ولعل ما يؤكد روح الحقد والتعصب التي كانت تعمر صدر البوكرك وقادته أنهم "حاولوا غزو الحجاز ونبش قبر الرسول ﷺ [108]، وكان البابا إسكندر[109] قد أعطى ملك البرتغال صكاً رسمياً بأن "البرتغال سيدة بحار العرب والعجم والهند والحبشة"[110] وكان من أهداف الحملة نشر المذهب الكاثوليكي في البلدان التي تمت السيطرة عليها، ولكن تعلق الخليجيين بهويتهم القومية وبدينهم، وانغماس بعض قساوسة البرتغاليين في تجارة الرقيق، شوها سمعتهم، وحالا دون تحقيق هذا الهدف.

وكان من أهداف الحملة والأعمال البشعة والوحشية التي قامت بها هو تحويل المناطق المفتوحة إلى بلدان مستهلكة، ونهب ثرواتها، بعد حرمانها دخلها التجاري، فبعد أن كانت منطقة الخليج في تلك الفترة، خاصة عُمان وإمارات الساحل، غنية بثرواتها المادية والحيوانية وزراعتها إضافة إلى تقدمها في صناعة النسيج عنها في البرتغال، وباحتكارها للتجارة البحرية التي كانت تشكل أكبر مورد للثروة ولصناعة النسيج، غدت مدن الإمارات وساحل الخليج سوقاً استهلاكية تحصل على احتياجاتها مقابل استنزاف مخزون ثروتها من الذهب، ونهب إنتاجها من اللؤلؤ والموارد الأولية والثروة الحيوانية.

---

(108) دراسات، مرجع مذكور آنفاً.

(109) هو ألكسندر السادس، الذي شغل منصب البابوية في روما (1492م-1503م)، وهو الذي بدأت في ظل ولايته وبمباركته البرتغال وإسبانيا توسعهما الاستعماري.

(110) دراسات، مصدر سابق، ص 39.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هكذا تركت الإمارات ومناطق الخليج لمصيرهما، بوجود دول إسلامية ثلاث كبرى في المنطقة، المغول والمماليك والعثمانيين في الشمال، فلا الأرض المنهوبة أرضهم، ولا الشعب المنكوب شعبهم، وهم لاهون بالصراع بينهم على المصالح، وهكذا وبدءاً من الخليج سقطت فيما بعد الأرض العربية من الخليج إلى المحيط قطعة تلو الأخرى تحت سطوة الاستعمار الغربي، هي والمقيمون عليها، وسقط الأمن العربي بأسره بعد سقوط الخلافتين العربيتين العباسية والفاطمية، ما يعطي مثلاً صارخاً لأهمية الهوية القومية في حفظ الأوطان والمقيمين عليها على تنوعهم، وأصلاً فإن الخلافتين العباسية والفاطمية سقطتا، بسبب اعتمادهما في أمنيهما الداخلي والخارجي على غير العرب من أبناء جلدتهم وشركاء مصير أبنائهم وأحفادهم، هذا التفكك الذي بدأ بالخلاف بين أبناء هارون الرشيد، الأمين والمأمون والمعتصم[111] بعد أن بلغت الدولة في عهد الرشيد أقصى اتساعها وأعظم قوتها، وبدأ الانهيار لانحياز أبنائه لجنسيات أمهاتهم الفارسية والتركية وتخليهم عن هويتهم العربية فاعتمدوا في أمنهم على هذه الجنسيات، ما لم يلبث أن أخرج السلطة من يد العرب فزالت تدريجياً دولتهم، وغدا أحفادهم لعبة بيد عبيدهم، يقتلونهم أو يسجنونهم ويهينونهم.

هذه النكبة الكبرى حفزت قبائل الإمارات على العودة إلى التوحد حفاظاً على هويتها وحرصاً على أوطانها، "فقد قدر في نهاية الأمر للناصر بن مرشد اليعربي أن يتمكن من توحيد قبائل عمان وجنوب الخليج، وبدأ حرب التحرير عن طريق مهاجمة المواقع والحصون البرتغالية، وذلك خلال الربع الثاني من القرن السابع عشر الميلادي، وفي أقل من نصف قرن تمكن عرب الخليج بقيادة اليعاربة وبالتعاون مع العثمانيين والقوى الإسلامية الأخرى من طرد البرتغاليين من المنطقة، ومطاردتهم في الهند وإفريقيا[112].

---

(111) انظر: السيوطي، تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة السعادة في مصر، عام 1952، ص 297-356.

(112) دراسات، مرجع سابق، ص 40.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومن العوامل التي ساعدت على انهيار الاستعمار البرتغالي للخليج العربي الصراع على المستعمرات بين الدول الأوروبية، ووقوع البرتغال تحت السيطرة الإسبانية عام 1580م، وكذلك عوامل الانحلال والفساد الداخلي في البرتغال وخصوصاً بين الرعايا البرتغاليين في المستعمرات المقامة على طريق الهند، واعتماد البحرية على بحارة معظمهم من الأجانب ما مهَّد السبيل لتغلغل النفوذ البريطاني في الخليج. وكان سقوط الاستعمار البرتغالي في الخليج على التوالي في البحرين (عام 1602) قطر (عام 1625) عُمان والإمارات (عام 1640).

وقد ألحق الاستعمار البرتغالي بالإمارات أضراراً على جميع الصعد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، فقد "أنشؤوا نظماً إقطاعية، وأدخلوا الرق بمعناه الحديث، كما نجحوا في القضاء على السلطات الإسلامية، وعملوا على تدمير القاعدة الاقتصادية الوطنية، ما أدَّى إلى ربط الاقتصاد الوطني لمنطقة الخليج بالسوق البريطانية[113] كما فرضوا الضرائب الباهظة على العاملين في الغوص، واشتغلوا في تجارة الرقيق.

إرهاصات الاحتلال البريطاني

لم يؤدِّ خروج البرتغاليين من المنطقة إلى خلاصها، فقد كان الصراع على أشده بين دول أوروبية عديدة على وراثة طريق التجارة الشرقية، فقد طمح إلى ذلك الهولنديون والبريطانيون، ثم دخل الفرنسيون بعد الثورة الفرنسية حلبة الصراع. ولكن البريطانيين كانوا قبل ذلك التاريخ وأثناء وجود البرتغاليين قد عملوا على مد نفوذهم بإقامة صلات مع بعض أطراف الداخل، وكذلك فعل الفرس، وكانت حروب اليعاربة الطويلة والتضحيات الكبيرة التي استلزمتها تلك الحروب ضد

(113) العلكيم، حسن وآخرون، قضايا إسلامية معاصرة، العين، مؤسسة العين للنشر والتوزيع عام 1990م، ص15. ودراسات، ص 40.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البرتغاليين قد أنهكت قواهم العسكرية وشتتت وحدتهم الداخلية بفعل تداخلات الفرس والبريطانيين وتشجيعهم على معارضة اليعاربة، وكانوا يدعمون أطرافاً مختلفة للتخلص من الاحتلال البرتغالي وإسقاط اليعاربة في آن معاً من خلال مد المناوئين بالمال والسلاح والدعم المباشر أحياناً. فما إن خرج البرتغاليون حتى دبت نار الفتنة الداخلية فدخلت البلاد في حروب أهلية طويلة ومؤسفة أدت إلى مقتل عدد كبير من الأفرقاء المتنازعين، كما أدت إلى زوال دولة اليعاربة، واستفاد البرتغاليون والفرس من هذه الحرب، فحاول كل طرف منهم إخضاع محازبي الطرف الآخر تمهيداً لاحتلال البلاد، حتى لا يدخلا في صدام عسكري مباشر فيما بينهما.

وعاشت البلاد فترة طويلة من الفوضى والانقسامات. وكانت التوازنات الدولية، والصراعات الأوروبية على المستعمرات تحول دون حسم الأمر لأي فريق "وبعد صراع بين القوى الاستعمارية الأوروبية (...) استمر حتى نهاية القرن الثامن عشر، تمكن الإنجليز من تثبيت نفوذهم في الهند وبعض أجزاء الخليج العربي الجنوبي"[114] فقد احتلوا الإمارات عام 1820م، وذلك لأهميتها الاستراتيجية بالنسبة إلى تجارة الشرق وتمهيداً للاستيلاء فيما بعد على الدولة العثمانية (الرجل المريض) التي لم يطل عمرها إلا خشية الدول الأوروبية أن تدخل في حروب مباشرة فيما بينها إذا أقدمت أي منها منفردة على إسقاط الدولة العثمانية والاستيلاء على الجزء العربي من أراضيها، الذي تخترقه تجارة الشرق، في وقت كانت فرنسا من ناحيتها تعمل على تأسيس نفوذ لها على ساحل بلاد الشام تمهيداً للغرض نفسه، ما أوقع حروباً أهلية في جبل لبنان (1840م-1860م) كانت كل من فرنسا وبريطانيا تدعم أحد أطرافها، بينما كانت الدولة العثمانية تراقب عاجزة ما يجرى في الخليج وساحل بلاد الشام، ولا تزيد تدخلاتها في لبنان،

(114) دراسات، مصدر سابق، ص 41.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العاجزة وغير المباشرة الوضع إلا تعقيداً، هذا الصراع الدولي الذي لم تكن روسيا وبروسيا والنمسا بعيدة عنه، والذي لم يجد نهاية له إلا باتفاقية سايكس-بيكو، التي وقعتها بريطانيا وفرنسا لتقاسم المنطقة عام 1916م، أي بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى، وخروج ألمانيا التي كانت تطالب بمد خط سكة حديدية من برلين إلى البصرة. هذا الانتداب الذي أعطى بريطانيا حقاً حصرياً في فلسطين، الذي أطلقت على أثره "وعد بلفور" بإعطاء فلسطين لليهود مقابل تمويلهم للحرب البريطانية، وتنفيذاً لمقررات مؤتمر كامبل بانرمان (عام 1905م-1907م)[115].

الإمارات بين الاحتلالين البرتغالي والبريطاني (1640-1820)

أما على المستوى المحلي لمنطقتي عمان والإمارات وبعد سقوط اليعاربة، فقد ظهرت ثلاث قوى محلية، آل بوسعيد في عمان وبنو ياس في الظفرة وليوا، والقواسم في رأس الخيمة. وكان حلف بني ياس يتكون من مجموعة قبائل عربية تحالفت فيما بينها في المناطق الداخلية، واتخذت من الظفرة مقراً لها، وكانت أقوى هذه القبائل وأكثرها عدداً هي قبيلة آل بو فلاح التي يرأسها آل نهيان. والراجح لدينا أن نسب هذه القبائل يرجع إلى عامر بن صعصعة، تلك القبيلة التي سيطرت بطونها على العديد من المناطق الواسعة من شرق شبه الجزيرة العربية لفترة طويلة من الزمن. فقد كانت قبائل بني ياس جزءاً من الحلف الجبري الذي حكم منطقة الخليج العربي حتى مجيء البرتغاليين، ونتيجة للتدهور الذي أصاب دولة بني جبر بعد هزائمهم أمام البرتغاليين تمكن آل بوفلاح بالاتصال مع القبائل الأخرى من بسط سيطرتهم على المناطق الداخلية لمنطقة الإمارات. وبعد اليعاربة امتد نفوذ بني ياس ليشمل جميع المناطق الداخلية من البريمي إلى مشارف الأحساء، وذلك في عهد نهيان الأول. وفي عهد شخبوط بن دياب الذي حكم إلى سنة 1816م،

(115) انظر: ساحل بلاد الشام، مرجع مذكور آنفاً، ج2 ص 299-302، وكذلك: العقيد الركن د. ياسين سويد، مؤامرة الغرب على العرب، المركز العربي للدراسات والتوثيق، بيروت عام 1992م، ص 31.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تمكن آل بو فلاح من السيطرة على المناطق الساحلية، وتم نقل نشاطهم السياسي والعسكري إلى أبوظبي. وشهد عهد شخبوط توسعاً كبيراً في حلف بني ياس، وذلك بانضمام عدد كبير من القبائل إلى هذا الحلف كما ازدهرت في عهده حركة التجارة، ونشطت تجارة اللؤلؤ. هذا وسادت علاقات المودة بين آل بوفلاح والقواسم الذين برزوا كقوة بحرية آنذاك.

حلف القواسم

ضم حلف القواسم معظم قبائل المناطق الشمالية والشرقية للإمارات، وبدأت قوتهم في الظهور في النصف الأول من القرن الثامن عشر، عندما انضم رحمة بن مطر القاسمي إلى القبائل الغافرية ضد القبائل الهناوية. وفي عهده استطاع القواسم السيطرة على المناطق الشمالية لشبه جزيرة عمان، ثم اتسعت سلطتهم لتشمل جميع المناطق الواقعة بين رأس مسندم إلى دبي، كما استطاع القواسم فرض سيطرتهم على بعض الموانئ والجزر الواقعة على الساحل الشرقي للخليج، وخاصة جزيرتي قشم ولنجة. ووصل النشاط القاسمي إلى ذروته في زمن سلطان بن صقر (عام 1803م-1866م)، حيث شهد عهده ازدياد قوة القواسم البحرية، الأمر الذي أزعج الإنجليز فبادروا إلى إرسال حملاتهم العسكرية للقضاء على قوة القواسم. فقد شنت القوات البريطانية حملات عدة على معاقل القواسم في أعوام 1805م و1809م و1816م وآخرها في عام 1819م، تمكن البريطانيون خلالها من حرق رأس الخيمة وتدمير موانئ القواسم في الشارقة والجزيرة الحمراء والرمس وتحطيم سفنهم الحربية. وقد كان الإنجليز يبررون عدوانهم هذا بحجة القضاء على القرصنة، في حين كان القواسم يدافعون عن مصالحهم السياسية والتجارية ضد الإنجليزية. وبفضل قوتهم البحرية المتقدمة، وأسلحتهم المتطورة تمكن الإنجليز من فرض سيطرتهم على منطقة الإمارات، وعملوا على تجزئتها وعزلها عن العالم. وقد تم لهم ذلك نتيجة انفرادهم بالمنطقة، وتغلبهم على القوى المنافسة لهم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الساحل المهادن

انتهزت بريطانيا الفرصة وقامت بعقد معاهدات منفردة مع شيوخ المنطقة وزعمائها البارزين ثم فرضتها على شكل معاهدة سلام عامة على كل المشايخ وأطلقت على الإمارات آنذاك "الساحل المهادن" في يناير 1820م. ثم وقع المشايخ على التوالي بين 14 و1838/4/17[116] معاهدة الملاحة البحرية الثالثة ونصت بنود تلك المعاهدة في مجملها على وقف أعمال المقاومة العربية للوجود البريطاني في المنطقة أو ما أطلقت عليه بريطانيا "النهب والسلب والقرصنة" في البر والبحر بصورة دائمة، وعلى وقف الحروب والنزاعات المسلحة بين أمراء وشيوخ المنطقة، ومنع "تجارة الرقيق، وتنظيم الملاحة في الخليج وتأمينها" ومعاقبة المخالفين لذلك.

وهكذا نصَّبت بريطانيا نفسها حكماً بين الأمراء والمشايخ العرب في الخليج العربي بهدف فرض مزيد من الفرقة والتجزئة. وكانت معاهدة عام 1820م، تمثل الحلقة الأولى من سلسلة المعاهدات التي عقدتها بريطانيا مع شيوخ المنطقة وأمرائها لإخضاعهم لسيطرتها. وتعتبر هذه المعاهدة بداية للاستعمار البريطاني والتجزئة السياسية في المنطقة التي استمرت لأكثر من قرن ونصف القرن من الزمان. وأتبعت معاهدة عام 1820م بسلسلة من المعاهدات غير المتكافئة كتلك التي فرضتها في أعوام 1837 و1838 و1853 و1892 و1902 و1922م.

المعاناة وجنين الحكمة الإماراتية

كان لهذه التجربة المريرة لمعاناة أهل الخليج بداية ملهمة لحكمة تنبع من اللاوعي الجماعي لشعب الإمارات، ومن وعي للظروف الراهنة والمخاطر المحتملة دفعت مؤسس دولة الإمارات العربية المتحدة، وأبا نهضتها الحديثة

(116) فالح حنظل، المفصل في تاريخ الإمارات، لجنة التراث والتاريخ، ج2، ص 497.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المغفور له –بإذن الله تعالى– الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان –رحمه الله– بحكمته ووطنيته، إلى جمع أصحاب السمو شيوخ الإمارات العربية عام 1971م لإنشاء دولة اتحادية، تقوم على مبادئ تستند إلى التجربة التاريخية، والهوية الوطنية، وتعمل للحفاظ على الأرض والشعب، واستنهاض الهوية الوطنية، بنظرة مستقبلية لحفظ أمن المواطنين الإماراتيين، ومستقبل أجيالهم، وأرسى للدولة الفتية سياسة خارجية أكسبتها محبة العرب واحترامهم في مختلف أقطارهم، وحضوراً فاعلاً على الساحتين العربية والدولية تقوم على المبادئ الثابتة التي نص عليها دستور دولة الإمارات العربية المتحدة:

1- أمن الخليج مسؤولية أبنائه وهو جزء لا يتجزأ من الأمن القومي العربي.

2- الالتزام بالمصلحة العربية العليا والدفاع عن القضايا العربية.

3- الالتزام بميثاق الجامعة العربية وبالقرارات العربية كافة.

4- الالتزام بمبدأ التعايش السلمي وحسن الجوار.

5- الالتزام بمبادئ عدم الانحياز.

6- احترام مبدأ السيادة والمساواة بين دول العالم، وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى.

7- تنمية علاقاتها مع دول العالم كافة، والابتعاد عن سياسة المحاور والأحلاف العسكرية.

8- الالتزام بميثاق الأمم المتحدة والإيمان الراسخ بالتعاون الدولي.

9- اعتبار منطقة المحيط الهندي منطقة سلام دائم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد ثبّت الشيخ زايد، تغمده الله بواسع رحمته، بمعونة إخوانه حكام الإمارات، السياسة الحكيمة التي اتبعها طوال مدة حكمه، هذه الحكمة التي شهد له بها القاصي والداني، وكتبت فيها المجلدات، وأكد طوال حياته المباركة مبادئ، لا يشكل ما اقتطفناه منها بين دفتي هذا الكتاب إلا غيضاً من فيض، ونبراساً لكل إماراتي وعربي على الطريق الواجب سلوكها، لبناء مستقبل واعد للإماراتيين والعرب أجمعين، استيحاءً من عظمة الماضي والحكمة المستفادة منه.

وحيث إن السياسة الحكيمة لأية دولة لا يمكن أن تبنى دون الإدراك العميق لموجبات الموقع الجغرافي، ومن التجربة المستفادة من التاريخ، ومن متطلبات الواقع الراهن، وما ينبثق من ذلك من استراتيجية ثابتة تلتزم بها الحكومات على تعاقبها لثوابت المصلحة الوطنية، فقد تابع صاحب السمو الشيخ خليفة بن زايد بن سلطان آل نهيان، رئيس الدولة –حفظه الله– ونائبه صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم –رعاه الله– هذا النهج الذي استنه مؤسس دولتهما، وهما يلتزمان بوعي وبصيرة بهذه السياسة على صعيد العلاقات الخارجية لدولة الإمارات العربية المتحدة، ويعملان لاتخاذ إجراءات من شأنها تقوية الاتحاد وترسيخ الهوية.

الهوية الجغرافية للإمارات

جيواستراتيجية الموقع

تحدثنا فيما سبق عن أن أنماط الحضارة وليدة علاقة الإنسان بالطبيعة، أي بالجغرافيا بكل مدلولاتها: الموقع، والبيئة، والطبيعة، والتضاريس، والجوار... إلخ، وهذا يقودنا إلى البحث في جغرافيا الإمارات وأثرها في خصوصية هويتها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المجال الإقليمي الجغرافي والجيواستراتيجي للإمارات خاصة، ومنطقة الخليج والجزيرة العربية عامة، رسمت الطبيعة حدوده بين بلاد العرب وبلاد فارس منذ القدم، موجدة كيانين عريقين لهما ثقلهما الإقليمي والحضاري، يفصل بينهما الخليج العربي الذي يمثل محطة أساسية وأحد خطوط التواصل التجاري بين الشرق والغرب، وقد أثر المجال الإقليمي لكلا الكيانين في الآخر على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي، كما أوجدت التضاريس وحدة متنوعة للطبيعة الجبلية والسهلية والصحراوية والساحلية والنهرية والبحرية، وقد شكلت هذه الطبيعة والتجاور الإقليمي والتنوع الجغرافي منذ القدم عاملاً مؤثراً في المواريث والترسبات التاريخية والتفاعل الثقافي والحضاري الذي أنتج مجموعة من الأوضاع السياسية والاجتماعية المتداخلة والمعقدة بين الطرفين، وقد ترتب على هذا التقارب في المجال الإقليمي انتقال كثير من الفرس، وخصوصاً بعد اعتناقهم الإسلام، للعيش مع عرب الخليج وكذلك انتقال كثير من العرب للعيش في فارس، وإذا كان ساحل الخليج العربي الغربي تعايشت فيه العديد من الأعراق الفارسية والإفريقية والهنود والبلوش بالإضافة إلى العرب فإن الأقاليم الشرقية لساحل الخليج سكنها الأذريون والتركمان والأرمن والأكراد والقاشقاجي والبختياريون واللور الشماليون والعربستانيون بنو لام وبنو كعب واللور الوسطيون واللار والسيستانيون وعرب آل بوشامس وقتاب وعرب الحوالة (الهولة) والبلوش (جنوباً)، ليشكلوا بذلك فاصلاً سكانياً وأنثروبولوجياً بين سكان فارس وسكان الخليج والجزيرة العربية، ومع ذلك فإن هذا الفاصل لم يحل دون التمازج الثقافي والحضاري والاجتماعي بين تلك الأعراق نظراً إلى التقارب الشديد في المجال الحيوي الإقليمي لكلا الكيانين، وبالرغم من ذوبان إقليم عربستان وتفككه وتحول سكانه إلى النطق باللغة الفارسية تحت وطأة القوة الإيرانية في العصور الحديثة بدءاً من العهد الصفوي حتى يومنا هذا، فإن السكان القاطنين في التخوم العربية والأذرية والأرمنية والكردستانية والتركمانية لم يذوبوا واحتفظوا بلغتهم وظلوا حتى العصور الحديثة مصدراً ومرجعاً

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مهماً لمعرفة الحدود الفاصلة بين الأقاليم العربية والفارسية، حيث لم تكن الحدود ترسم على أساس الخطوط بل كانت ترسم على أساس التخوم بترك بعض الأراضي كمجال جغرافي فاصل بين الجانبين.

وتبرز أهمية النطاق الإقليمي العربي فيما مر بالمنطقة من أحداث تاريخية أثرت فيها وفي سكانها، كونها مثار اهتمام الإمبراطوريات لكونها مفصلاً بين الشرق والغرب، من غزو التتار لبغداد، إلى توجه موجة الاستعمار في العصور الوسطى إلى العراق وبلاد فارس وعمان وساحل الخليج، وصولاً إلى الحروب المتوالية الحديثة على الخليج وما جرته على المنطقة من تداعيات.. هذه الحقيقة الجيوستراتيجية تفرض نفسها على واقعنا فنحن نتأثر بها ونؤثر فيها، ولا يمكن للشخصية الإماراتية أن تعيش بمعزل عنها أو أن تعيش دون إدراك لنطاقها الإقليمي العربي الذي يشمل العراق وبلاد الشام ومصر شمالاً، ونطاقها الخليجي وفقاً لوصف لومير الذي يمتد المجال الإقليمي فيه إلى الجنوب الغربي من فوهة شط العرب شمالاً وحتى ظفار وصلالة جنوباً، وعرضاً من سواحل وأرخبيلات وجزر الخليجين العربي والعماني الشرقية شرقاً، وحتى غرب الأحساء والربع الخالي غرباً. أما في الشرق فتمتد سواحل الخليجين العربي والعماني وبحر العرب الغربية حتى خليج عدن عند المكلا شرقاً وجنوباً.

الإمارات.. هوية المكان

تفرض خصائص الموقع نفسها على مختلف نشاطات الإنسان المقيم فيه، كما على سياسات الدول وعلاقاتها الخارجية.

لقد أشار فلاسفة اليونان مثل إسترابو وأفلاطون وأرسطو، ومن بعدهم ابن خلدون، إلى أثر البيئة الجغرافية بوجه عام والموقع بوجه خاص في الإنسان والدولة، فربط ابن خلدون في مقدمته بين الموقع والعمران من الأرض وما فيه من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأشجار والأنهار والأقاليم، وتأثيره في ألوان البشر وسلوكهم والكثير من أحوالهم وأخلاقهم، وإذا ما تناولنا نظريات المفكرين والفلاسفة وعلماء الجغرافيا والاجتماع وطبقناها على دولة الإمارات فسنقف بكل إجلال وتعظيم للآباء والأجداد الذين استطاعوا، على قلة الموارد المتاحة لهم والظروف المناخية القاسية، أن يواجهوا تلك الظروف ويتعايشوا معها بل ويخرجوا أبدع ما فيها، والذين استطاعوا على مدى التاريخ أن يبدعوا بإنجازاتهم كلما توافرت لهم الظروف الموضوعية المواتية.

إن تناولنا للهوية ليدفعنا إلى أن نتعمق في مدخلات ذلك الواقع الجغرافي الذي بالرغم من قسوته فإن نشاط إنسانه يبعث على الفخر والاعتزاز لكل من عاش على هذه البقعة من العالم، حيث ولّدت فيه قسوة الطبيعة روح التحدي والعزم والإصرار ضمن منظومة رفيعة من الأخلاق الحميدة يقودها الصبر والرضا بالقضاء والسعي الدائم نحو غد أفضل.

الموقع الطبيعي

تقع الإمارات العربية المتحدة غرب الخليج العربي في القسم الجنوبي الشرقي لشبه الجزيرة العربية بين خطي طول 51 - 56.5 درجة شرق جرينتش ودائرتي عرض 22 - 26.5 درجة شمال خط الاستواء، وتبلغ مساحتها 77 ألف كلم^2، وتتخذ مساحتها مثلث قائم الزاوية بضلعين يمتد رأسه حتى مياه الخليج العربي جنوب مضيق هرمز وتفصله عن المملكة العربية السعودية صحراء الربع الخالي، وتمتد أضلاعه غرباً على ساحل الخليج العربي بطول 640 كيلومتراً من شعم شمالاً حتى السلع جنوباً، أما ضلعه الآخر فيمتد على طول ساحل خليج عمان لمسافة 90 كيلومتراً من دبا شمالاً حتى ختم الملاحة جنوباً لتشكل الأرض بذلك رقعة واحدة خالية من النتوءات والبروز المتداخلة مع الدول المجاورة، ويبلغ طول حدودها البحرية 1740 كيلومتراً وهي مسافة كبيرة جداً بالمقارنة بالمساحة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الكلية لليابسة، وهو ما يفسر أهمية البحر بالنسبة للدولة والسكان حيث عملوا غواصين وملاحين وتجاراً، كما أن طول الحدود البحرية يفسر العلاقة الحميمة بين السكان والبحر منذ القدم، فقد تكثفت مراكز العمران في المدن الساحلية بينما تشتتت الكثافة السكانية وقلت كلما ابتعدنا عن الساحل باتجاه الصحراء والكثبان الرملية وندَرَت المياه، ما انعكس أثره على النشاط الإنساني وألقى بظلاله على طرق المواصلات قديماً وحديثاً، ما جعل شبكة الطرق تمتد بخطوط متوازية تبدأ من الساحل إلى الداخل الصحراوي والجبلي، أما حدودها البرية السياسية فتبلغ 1100 كيلومتر منها 470 كيلومتراً مع المملكة العربية السعودية و540 كيلومتراً مع سلطنة عمان وهو ما يفسر العلاقة الخاصة التي تربط الدولة بالسعودية وسلطنة عمان.

ويقودنا الموقع الجغرافي وشكله إلى الخريطة السياسية لدولة الإمارات العربية المتحدة، التي تضم إمارات أبوظبي ودبي والشارقة وعجمان وأم القيوين ورأس الخيمة والفجيرة التي تشكل في مجموعها دولة ذات سيادة ضمن اتحاد فيدرالي يؤكد وجود حدود خاصة لكل إمارة يمارس حاكمها سلطاته المحلية ضمنها، وقد عانت الإمارات الكثير بسببها قبل الاتحاد إذ عمد الاستعمار إلى تقسيمها، مستغلاً التطورات السياسية والمنازعات القبلية، متجاهلاً تماثل بناءاتها السياسية القائمة على أسس واحدة وظروف متشابهة، بالإضافة إلى وشائج القربى التي تربط بين الأسر في الإمارات.

ولقد توجهت الحملات البحرية البريطانية إلى الخليج بحجةٍ ظاهرها القضاء على ما سمته "القرصنة البحرية" وباطنها القضاء على التحالفات القبلية المنافسة لسيطرتيها الاقتصادية والعسكرية على الخليج العربي والمحيط الهندي، وقامت بإحكام سيطرتها على منطقة الخليج والإمارات، وقسمت الحدود السياسية الداخلية بين بعض القرى والمناطق في الإمارات إلى أجزاء متداخلة بشكل يؤدي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى إثارة النزاعات القبلية وإثارة الجفوة بين السكان وخلق النزاعات المستمرة بين أفراد الأسرة الواحدة إلى أن انتهى الأمر بالساحل المتصالح للتفتت إلى وحدات قبلية أعطتها بريطانيا الصفة القانونية والسياسية بسيادة قانونية معلقة واستقلال وهمي خاضع للتاج البريطاني، ولم يستسلم سكان الإمارات إلى تلك التجزئة التي فرضها الاحتلال، فكثيراً ما كانت تلوح في الأفق بوادر فردية وجماعية للوحدة في أوقات متفاوتة لمواجهة الأخطار المحيطة بالمنطقة، فظهر حلف القواسم البحري، وحلف بني ياس البري اللذان تصدَّيا للاستعمار البريطاني في المنطقة، ولكن سرعان ما تغلبت عليهما بريطانيا بحملاتها العسكرية البحرية وهي التي تتفوق عليهم تقنياً وعدة وعدداً، ولذلك فقد ارتهن حلم الاتحاد بزوال الظروف السياسية والعسكرية التي فرضت على المنطقة فرضاً لا يتفق مع طبيعتها الجغرافية والبشرية إلى أن انسحبت بريطانيا من الخليج، ما أتاح لحكام الإمارات أن يبسطوا نفوذهم وسيادتهم ويمارسوها، الأمر الذي خلق جواً ملائماً لدعوة الشيخ زايد -يرحمه الله- لإقامة دولة الاتحاد، تلك الدولة التي أصلحت ما أفسده الاستعمار وقضت على التمزقات السياسية التي أوجدها وعمل على تغذيتها.

فمساحة إمارة أبوظبي العاصمة أكبر مساحات الإمارات حيث تبلغ 67340 كيلومتراً مربعاً بنسبة 86.6% من المساحة الإجمالية للدولة، وتتألف من قطاع واحد متصل على الخليج العربي يمتد من السلع جنوباً حتى رأس غنتوت ويتوغل في الداخل شرقاً حتى خط طول 56 درجة شرق جرينتش، وتليها إمارة دبي بمساحة كلية قدرها 3885 كيلومتراً مربعاً بنسبة 5% من المساحة الكلية للدولة، وتتألف من قطاعين هما القطاع الساحلي ويطل على ساحل الخليج العربي بين إمارتي أبوظبي والشارقة، والقطاع الداخلي يمتد في المنطقة الجبلية حول قرية حتا، وتليهما إمارة الشارقة التي تبلغ مساحتها 2590 كيلومتراً مربعاً بنسبة 3% من المساحة الكلية للدولة، وتتألف من قطاعين هما القطاع الغربي ويطل على الخليج

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العربي ما بين إمارتي عجمان ودبي، ويتوغل نحو الداخل حتى السهول الحصوية في الذيد ومليحة والمدام، أما القطاع الآخر فهو القطاع الشرقي الساحلي على خليج عمان، وهو متقطع ويتركز حول كلباء وخورفكان ودبا الحصن، وتأتي إمارة رأس الخيمة في المركز الرابع حيث تبلغ مساحتها 1684 كيلومتراً مربعاً بنسبة 2.2% من المساحة الكلية للدولة، وتتألف من قطاعين هما قطاع يطل على الخليج العربي ويمتد من حدود الإمارات مع سلطنة عمان في ولاية مسندم شمال شعم حتى حدودها مع إمارة أم القيوين، وقطاع جبلي داخلي في الحويلات والمنيعي قرب حتا ومصفوت. أما إمارة الفجيرة ففي المركز الخامس حيث تبلغ مساحتها 1165 كيلومتراً مربعاً بنسبة 1.5% من المساحة الكلية للدولة، وتتألف من قطاع يطل على خليج عمان ما بين الغرفة حتى سور كلباء تقطعه إمارة الشارقة في خورفكان، ثم يمتد نحو النطاق الجبلي إلى ثوبان والسيجي شرق الذيد بالإضافة إلى قطاع جبلي جنوب غرب أوحلة وأحفرة، بينما إمارة أم القيوين في المركز السادس حيث تبلغ مساحتها 777 كيلومتراً مربعاً بنسبة 1% من المساحة الكلية للدولة وتتألف من قطاع واحد متصل يطل على الخليج العربي ما بين إمارتي رأس الخيمة وعجمان، ويتوغل نحو الداخل حتى فلج المعلا شرق الذيد، وآخرها إمارة عجمان في المركز السابع حيث تبلغ مساحتها 259 كيلومتراً بنسبة 0.3% من المساحة الكلية للدولة، وتتألف من ثلاثة قطاعات هي: القطاع الغربي الساحلي ويطل على الخليج العربي ما بين إمارتي أم القيوين والشارقة، وقطاع داخلي يتركز حول قرية المنامة شمال الذيد في السهل الحصوي، وقطاع جبلي في مصفوت قرب قريتي حتا والمنيعي.

لقد شكلت الإمارات السبع كياناً سياسياً لدولة ذات سيادة تقع في القطاع الشرقي لشبه الجزيرة العربية حيث تشرف أراضيها بساحلين يطلان على الخليج العربي من ناحية الغرب والشمال الغربي، وعلى خليج عمان من ناحية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشرق، وتلتقي أراضيها شمالاً مع ولاية مسندم العمانية بينما تمتد حدودها الجنوبية والجنوبية الشرقية مع حدود المملكة العربية السعودية، وتسير حدودها الشرقية مع سلطنة عمان بمحاذاة السفوح الغربية لجبال الحجاز الشرقية حتى مدينة العين.

إن هذا الموقع الجغرافي جعل من الإمارات نقطة ارتكاز تربط شبه الجزيرة العربية ورأس الخليج العربي وسواحله الغربية بالهند وشرق إفريقيا وسواحل الخليج العربي الشرقي، ما أهل الإمارات لتكون ثانية البوابات الشرقية الرئيسية لشبه الجزيرة العربية بعد مضيق هرمز الذي تعرض لاضطرابات عديدة طوال الحقب الماضية، وقد تجلت أهمية موقع الإمارات كمعبر ومنطقة التقاء وتعاون اقتصادي لشبه الجزيرة العربية وما يليها من أقاليم بعد رحيل بريطانيا وقيام دولة الاتحاد، حيث عادت موانئها إلى سالف عهدها، إذ تنشط في الاستيراد والتصدير وإعادة التصدير.

إن دولة الإمارات العربية المتحدة تمثل نمطاً متميزاً في حوض الخليج العربي لتمتعها بموقع متميز ذي طبوغرافيا متنوعة تجمع بين السهل والجبل والبادية، وهو ما انعكس أثره على النشاط السكاني والعمراني حيث تطور حجم الإنتاج الزراعي والصناعي وتنوع النشاط التجاري وتوسعت قطاعات الخدمات والمرافق العامة ونمت المدن والقرى، إن هذا الازدهار ما هو إلا حلقة من سلسلة حلقات التاريخ الحضاري للإمارات، وهو ما أكدته الاكتشافات الأثرية حيث كشفت عن وجود حياة بشرية في بقع متناثرة على أرض الإمارات منذ أكثر من خمسة آلاف عام من خلال حضارة "ماجان أو ماكان" بمنطقة أرض المحن بجنوب أبوظبي و "ميلوخا" بمنطقة مليحة حالياً، كما تشير الاكتشافات الأثرية إلى وجود علاقة ثقافية واقتصادية بين هذه الحضارات والحضارات الأخرى التي عاصرتها في تلك الفترة، ومنها السومرية والفينيقية والأكادية ودلمون وجبيل وجرها وتاروت والسلد وبلوخستان.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تتمتع أرض الإمارات بطبيعة طبوغرافية مزدوجة حيث توجد الأراضي السهلية المنخفضة والأراضي الجبلية وبينهما أقاليم تضاريسية تكوِّن النسيج البنائي للدولة، وتنحدر أرض الإمارات من سلسلة الجبال التي تشكل عمودها الفقري نحو الخليج العربي في الغرب، ونحو خليج عمان في الشرق، ما ترك أثراً كبيراً في التوزيع الجغرافي لسكان الإمارات وأنشطتهم الاقتصادية، حيث نشأت المستوطنات عند مجاري الأودية ومصباتها، وخصوصاً في الساحل الشرقي والساحل الغربي شمال رأس الخيمة وفي السهول الحصوية، حيث كانت تلك المناطق تمثل مسالك برية تربط الساحل الشرقي بالغربي وكانت قيعانها تتميز بوفرة المياه العذبة، وتربتها خصبة ومتجددة.

أما المرتفعات الجبلية فهي تشكل جزءاً من النطاق الهامشي للرف العربي المتحرك الذي تكون في بحر تيشس نتيجة للشد الذي تعرضت له الكتلة العربية أثناء تكسر جوانديالاند القديمة وانزلاق القارة الهندية إلى موقعها الحالي، ومن أهم سماتها الوعورة والتعقيد في تكويناتها الجيولوجية والبنيوية حتى ليصعب في كثير من المواقع التمييز والفصل بين تكويناتها المتداخلة من الصخور النارية كالبريدوتيت والجابرو، والصخور المتحولة كالشيست والكوارتز، والصخور الرسوبية كالحجر الجيري والحجر الرملي والصوان، وهي امتداد طبيعي لجبال عمان التي هي امتداد لجبال زاجروس، وتتكون مرتفعات الإمارات من كتلة مرتفعات رؤوس الجبال، التي تكثر فيها الأودية الطويلة والكبيرة والمسيلات ومنها وادي شعم ووادي غليلة ووادي سدر ووادي بيح ومهاني ومعترضة ووادي أذن، حيث قام على جانبيها ومصباتها بعض مراكز الاستقرار البشري التي يعمل سكانها بالزراعة معتمدين على تربتها المتجددة ومياهها الجوفية العذبة والمتجددة القريبة من سطح الأرض.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جزر الإمارات

تضم الإمارات بصفة عامة أكثر من مئتي جزيرة متباينة الأحجام والأشكال والنشأة، كما تتباين في أهميتها الاستيطانية والاقتصادية والاستراتيجية، وبعضها يكاد يلتصق بالساحل، وبعضها الآخر يبعد عنه عشرات الكيلومترات، وقد اتخذت تلك الجزر البعيدة كمحطات استراحة تلجأ إليها السفن والصيادون والغواصون عند هبوب العواصف، وهناك العديد من تلك الجزر الخالية من السكان إما لانخفاضها إلى درجة تسمح بطغيان ماء البحر، وإما لخلوها من متطلبات الحياة من مياه وتربة صالحة للزراعة، وقد شهدت العديد من الجزر اهتماماً متزايداً من الدولة والحكام شيوخ الإمارات منذ قيام الاتحاد، حيث أجريت إصلاحات وتم تطوير البنية الأساسية والعمل على توطين سكانها وتوفير احتياجاتها كافة لتسير عجلة التنمية فيها متزامنة مع مناطق الدولة كافة.

الثروة المعدنية والمياه الجوفية

إذا كان الموقع والتربة والمناخ لها الأثر الكبير في المجتمعات البشرية المتعاقبة على أرض الإمارات، فإننا لا يمكن أن نغفل التكوينات الجيولوجية وعلاقتها بالثروة المعدنية والمياه الجوفية، فقد كان الآباء والأجداد قديماً يستغلون المياه السطحية الموجودة في أقرب نقطة من سطح الأرض، أما في عصرنا الحالي فقد مكنت التكنولوجيا ابن الإمارات من أن يغوص في الأعماق ضارباً في الأرض باحثاً عن الماء مستكشفاً للثروة المعدنية، وبصورة خاصة النفط، وباحثاً عن المياه الجوفية لتلبية احتياجاته للزراعة والري ولم يكتف بذلك بل ضرب في البحر ليُذهب ملوحته ويستخرج منه ماءً عذباً وفق أرقى مستويات النقاء العالمية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومن أهم الخامات المعدنية اللافلزية خام النفط (البترول) الذي يرجع أصله إلى نظريات عدة، منها الكيميائي الذي ينسب وجود النفط إلى تفاعلات كيميائية في أعماق الأرض تحت ضغط عالٍ وحرارة شديدة، وبعضها الآخر ينسب وجوده إلى التحلل العضوي حيث تجمعت رواسب الكائنات الحية من الحيوانات الدقيقة والطحالب النباتية التي ترسبت في البحار الضحلة أثناء العصر الجوراسي والكريتاسي بوساطة البكتريا تحت ضغط عالٍ وحرارة أسفل الطبقات الرملية والطينية والجيرية المتراكمة عليها عبر العصور الجيولوجية التالية، وقد يستخرج النفط من صخور المصدر مباشرة، أو قد يستخرج من صخور المستودع حيث يتجه من صخور المصدر إلى صخور المستودع، وهي تسمى مصائد البترول، ويوجد النفط عامة مختلطاً بالغازات الطبيعية والمياه على شكل طبقات، وكنتيجة لموقع الإمارات الجغرافي بوجودها في الرف القاري للكتلة العربية فقد مكنها الموقع من الوجود في المصايد الجيولوجية المناسبة لتجميع النفط في المياه الإقليمية مثل حقول أم الشيف وزاكوم والبندق وأبو البخوش وفاتحة ومبارك، وكذلك في طبقات اليابسة الرسوبية ومربان وبوحصا ومرغم والضبعة.

كما يتوافر في مرتفعات جبال الحضيض وسهولها في الإمارات العديد من الخامات اللافلزية مثل الجبس والكبريت والرخام والأملاح التبخرية، كما يوجد الإسبستس والباريت وخام السماد الفوسفاتي في جبل حفيت والظنة وبعض الجزر الساحلية، أما الزنك والرصاص فيوجدان في جبل الظنة وجزيرة قرنين وأرزنة، ويتوافر الكروميت والنحاس والحديد والمنجنيز وأحجار الزينة في مرتفعات مصفوت ودبا ومسافي وأذن ورأس الخيمة.

وفيما يخص المياه الجوفية، فإنها المصدر الأول الذي يعول عليه في التنمية الزراعية نظراً إلى عشوائية الأمطار وارتفاع كمية التبخر وفصلية الجريان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السطحي للأودية، ومعظم المياه المستخدمة حتى الآن تؤخذ من تكونات رسوبية سطحية بعضها حديث والآخر موغل في القدم، فغالبية المياه الجوفية المستخرجة في سهول الحضيض والساحل الغربي مأخوذة من تكوينات حديثة للزمن الجيولوجي الرابع تتغذى مباشرة من مياه الأمطار التي تسقط على أرض الإمارات والأراضي المجاورة عبر ممرات تحت سطح التربة، كما يستفاد من المياه الجوفية الموجودة في تكوينات الزمن الجيولوجي الثالث في تكوينات الفارس وسهيل التي تظهر مكشوفة على السطح في واحات ليوا والظفرة، وهي تتغذى بمياه الأمطار عن طريق التسرب الرأسي من أعلى إلى أسفل وتزداد عذوبتها كلما زادت الأمطار وتقل عند انخفاضها، فهي موجودة في خزانات مائية جوفية بكل من السمسمة والجويزة ومسندم والفنستون والوسيع، وهي محدودة الاستخدام لأعماقها البعيدة باستثناء تكوينات مسندم في المرتفعات الوسطى بمسافي والطويين وأذن وشمال الدقداقة، وينطبق الوضع نفسه على خزانات الزمن الجيولوجي الأول حيث يستفاد بمياهه في مناطق محدودة وفقاً لقربها من سطح الأرض مثل الآبار التي في شمال جبال القمر في رأس الخيمة وفي جبل الظنة وجزر قرنين وأرزنة وصير بني ياس، وتحتوي تكوينات هذا الزمن على مخزون هائل من المياه العذبة ويحول دون استخدامها وجودها في أعماق سحيقة.

وينتج عن الخزانات الجوفية ظهور بعض الينابيع والعيون التي تتسرب منها مياه الخزان الجوفي إلى سطح الأرض بفعل الضغط، وهو مصدر مهم للعديد من المستوطنات البشرية في المرتفعات الجبلية وواحات الكثبان الرملية، ومنها ما مياهه حارة كبريتية يستخدم في الري والاستشفاء والاستحمام مثل عين الفايضة وعين خت وعين مضب والغيل والغمور، ومنها ما هو عذب الماء ويستخدم في الشرب والزراعة مثل عين الوريعة ومساوي ومصفوت وحتا والعسيلي والسيجي والبثنة والحيل والفرفار وحبحب والسخنة وعين واحة ليوا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مناخ الإمارات

يتراوح متوسط درجات الحرارة في فصل الصيف بين 35 و45 درجة مئوية في أكثر الأوقات حرارة في شهر يوليو، أما في فصل الشتاء فتتراوح بين 15 و20 درجة مئوية في أكثر الأوقات برودة بشهر يناير، ويبلغ متوسط معدل درجات الحرارة على مدار العام 31 درجة مئوية، إن ارتفاع متوسط درجات الحرارة على مدار العام يؤثر سلبياً في مخزون المياه الجوفية حيث يزداد معدل التبخر لمياه الأمطار بدرجة كبيرة تبلغ 88% من كمية الأمطار الساقطة سنوياً، الأمر الذي يفقد الخزانات المائية الجوفية كمية كبيرة من مصادر تغذيتها كما يؤثر أيضاً في ارتفاع الرطوبة في الجو، حيث يبلغ متوسطها 59% على مدار العام، ويبلغ المتوسط العام لكمية الأمطار التي تسقط في الإمارات 113 مليمتراً، وهي أمطار قليلة تضعها ضمن المناخ القاري، أما كمية التبخر فهي تبلغ 30 ضعف كمية الأمطار المتساقطة سنوياً بسبب ارتفاع درجة حرارة مياه الخليج العربي وخليج عمان وركود الهواء المحمل ببخار الماء في الطبقات السفلى للغلاف الجوي.

التربة

أما عن التربة في الإمارات، فهي بصفة عامة غير خصبة نظراً إلى افتقارها إلى المواد العضوية المؤثرة في تماسك التربة ونسيجها الرملي، كما تتراكم كربونات الكالسيوم بنسب متفاوتة على شكل قشرة ملحية على سطحها، بالإضافة إلى وجود الصوديوم والكلور اللذين يسببان مشكلات للتربة، ويستثنى من ذلك بعض الأراضي القابلة للاستصلاح والتي تتركز في سهول الحضيض والمدرجات الجبلية والمنبسطات على جوانب الأودية وفي واحات الكثبان الرملية التي تتوافر فيها الموارد العضوية والعناصر المعدنية، وفي مطلق الأحوال فإن الأراضي القابلة للزراعة بعد استصلاحها وتوفير المياه تشكل 0.7% من المساحة الإجمالية للدولة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لقد أثرت العوامل الطبيعية والاقتصادية والتاريخية في التوزيع الجغرافي للسكان، فقد كان للموقع أثره الكبير في التجمعات البشرية في الساحلين الشرقي والغربي حيث ساد الاستقرار تلك المدن لتوافر الإمكانات الاقتصادية، بينما ارتبط التوزيع الجغرافي للسكان في الصحراء بالإمكانات الاقتصادية المتوافرة في المكان واستمرارية المياه، لذلك اتخذ التجمع السكاني في الصحراء شكل الرعي المتحرك فيما عدا بعض الواحات والمناطق حيث تتوافر المياه بصفة دائمة.

بادية الإمارات

إذا كانت السواحل قد شكلت فيما مضى مركزاً حضارياً للاستيطان البشري، فإننا على الجانب الآخر لا يمكن أن نتجاهل دور البادية حيث شكلت عنصراً مهماً للتجمعات البشرية داخل الصحراء، حيث أخذت الحياة صفة الترحال من مكان إلى آخر بحثاً عن الماء والكلأ، وقد كانت البداوة حتى وقت قريب قبل الاتحاد تشكل أكثر من 17% من إجمالي السكان وخصوصاً في أبوظبي، أما الآن فإن البداوة في سبيلها إلى الانقراض، حيث لا تتجاوز في أغلب الأحيان أكثر من 2% من إجمالي السكان، وذلك يرجع إلى اهتمام الدولة بتوطين العناصر البشرية من أبناء البادية لإقامة مجتمعات مستقرة تتوافر فيها الخدمات والاحتياجات كافة، وهو ما كلف الدولة مبالغ طائلة في سبيل توطين أهل البادية واستقرارهم، فضلاً عما مثلته المناطق الحضارية في الإمارات المختلفة من جذب لأبناء البادية للعمل في الصناعة والتجارة والوظائف الحكومية، وإذا كانت الدولة قد اهتمت بتوفير الوسائل كافة لتحويل المجتمعات البدوية المتنقلة إلى مستوطنات بشرية تأخذ صفة الاستقرار لتتمكن من تطوير قدرات أفرادها، فإنها لم تغفل أهمية القيم والعادات وموروثات أهل البادية وما تمثله من معانٍ أصيلة ألقت بظلالها على الهوية فيما سبق ولا يمكن إغفالها فيما هو آتٍ لأنها جزء لا يتجزأ من الهوية الإماراتية وأبناؤها نبتوا في أحضان طبيعة وجغرافيا قاسية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فلم تزيداهم إلا ثباتاً وصدقاً وإخلاصاً وأملاً في غد أفضل، الأمر الذي استتبع الاهتمام بالتراث وبمختلف جوانب الحياة البدوية.

الإنسان والبيئة الطبيعية

تكشف الطبيعة القاسية للإمارات عبقرية الإنسان الإماراتي في التعامل معها، فهذه الظروف المناخية القاسية، من حرارة شديدة ورطوبة وبيئة صحراوية وتربة لا تصلح للإنبات وندرة الماء، وضعت الإنسان الإماراتي منذ القدم أمام تحدٍّ لإثبات الذات واستمرار الوجود في تلك البقعة التي يصعب على أي من الكائنات العيش فيها، ومع ذلك فإن الصورة لتبدو أمامنا جلية لإنسان يلهث من شدة العطش وارتفاع الحرارة والرطوبة وراء قطرة الماء، وما إن يجدها حتى يقيم تجمعاً بشرياً يسعى بكل طاقته إلى استغلال الماء لتستمر الحياة، وهو ما يفسر وجود تجمعات بشرية كثيرة في مناطق مشتتة ومتباعدة. إن هؤلاء الأفراد هم نواة المجتمع الإماراتي الحديث فهم كأعراق لم تختلط أنسابهم بل حافظوا على جذورهم العربية الأصيلة، حيث كان من الصعب على الأعراق الأخرى أن تعيش في تلك البيئة الشظفة التي تحتاج إلى إرادة حديدية للعيش فيها في تحدٍّ لقوى الطبيعة القاسية والتعايش معها، كما قامت العديد من التجمعات بامتهان الزراعة والرعي في الأودية وعند الأفلاج والعيون والواحات.

وإذا كان سكان الصحراء قد بذلوا أقصى الجهد للتعايش مع الطبيعة، فقد قام سكان البحر ببذل أقصى الجهد للاستفادة منه وتطوير قدراتهم بما يتلاءم وطبيعته، فعملوا في الصيد والغوص والتجارة لتقوم على امتداد الساحل مستعمرات بشرية حضارية منفتحة على العالم الخارجي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإمارات في عهد الشيخ زايد بن خليفة
(زايد الأول)
(عام 1855م–1909م)

كان النفوذ البريطاني في الخليج قد بلغ ذروته في مطلع القرن العشرين، ولا سيما أن بريطانيا كانت المزاحمة الشديدة على امتلاك أمر الخليج من الدول الإقليمية والأوروبية، وهي الأجواء التي كانت بحدتها تمهد لقيام الحرب العالمية الأولى. وبرغم هذه الأجواء المحمومة، فقد شهدت أبوظبي في فترة حكم الشيخ زايد بن خليفة الطويلة تطوراً ملحوظاً في المجالات كافة. فقد استطاع التغلب على الأزمة الاقتصادية التي رافقت نهايات القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين نتيجة تضخم الروبية الهندية وارتفاع سعر الريال النمساوي، وشهد عهده ازدهاراً في إنتاج التمر والشعير وتجارة اللؤلؤ، وازدادت الضرائب التي يجنيها لازدهار تجارة اللؤلؤ والعائدات الجمركية.

وتدخَّل في حل الكثير من القضايا والمشاكل التي تنشأ بين القبائل، ومثال على ذلك تدخله لفضّ الخلاف بين شيخ القواسم وجماعة من الثائرين عليه في المنطقة الشرقية وساحل الشميلية. وقد لعب الشيخ زايد دوراً كبيراً في تهدئة الأوضاع الداخلية، خاصة في حلف القواسم. فقد حدث أن ثار الانفصاليون في عهد الشيخ خالد بن سلطان بن صقر القاسمي (عام 1866م–1868م) وكاد ساحل الشميلية أن ينفصل عن القواسم لولا تدخل الشيخ زايد لتهدئة الأوضاع عن طريق الوساطة بين زعيم القواسم والانفصاليين، وقد أدى تحالف الشيخ زايد مع الشيخ خالد بن سلطان القاسمي إلى تقوية العلاقات بين الطرفين، وقد أثبتت الأعوام التالية مدى نفع هذا التحالف.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكان الشيخ زايد بعيد النظر في سياسته الخارجية حيث اتبع سياسة متوازنة مع بريطانيا وحصل على تأييد الأخيرة له في مطالبته بخور العديد واسترجاعه من العثمانيين، وعمل على توثيق علاقاته بالفرنسيين بصفتهم القوة المنافسة للسيطرة البريطانية. وقد عَرض ميناء أبوظبي كي يستخدمه الفرنسيون، وأبدى استعداده للتعاون التجاري والسياسي معهم. وعلى الصعيد الإقليمي وثّق الشيخ زايد علاقة أبوظبي مع أشراف مكة عندما قام بالحج عام 1880م، وقدّم إليهم هدايا من الإبل والجمال. كما وثق علاقته مع حكام العتوب في البحرين وهم (آل خليفة) عندما أرسل ابنه خليفة ليوثق علاقة آل خليفة مع آل بو فلاح. كذلك وثّق علاقة آل بو فلاح مع العمانيين، وخاصة مع فيصل بن تركي ابن السلطان تركي بن سعيد، واعترف الأخير له بنفوذه على البريمي، وعهد إليه برعاية مصالح السلطنة ليس في البريمي فقط، ولكن في إقليم الظاهرة وعبري.

وقام الشيخ زايد بن خليفة بمحاولات رائدة عدة للتغلب على الفرقة السياسية والاجتماعية التي كانت سائدة في مجتمع الإمارات، خاصة الخلافات السياسية بين فرق الهناوية والغافرية. وعمل على توطيد الروابط الاجتماعية عن طريق التحالفات والمصاهرات السياسية التي ارتبط بها مع شيوخ الإمارات ومع القوى المجاورة. وساعدت شخصية الشيخ زايد وحنكته على لم شمل حكام المنطقة، وكان من أهم تلك الاجتماعات المشتركة اجتماع الخوانيج عام 1906م، الذي دعا إليه الشيخ زايد، وضم جميع الشيوخ المستقلين، لمناقشة أمر تذمر الشيوخ وعدم حماستهم لرفع الأعلام البريطانية.

وكان من أهم إصلاحاته الإدارية تقسيم إمارة أبوظبي إلى خمس مناطق هي: أبوظبي عاصمة الإمارات ومقر الحاكم الرئيسي والمقر الإداري والسياسي للحكم والمركز التجاري، والظفرة (ليوا)، والعين، وجزيرة دلما، وخور العديد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعلى الرغم من الهيمنة الاستعمارية البريطانية، فقد شهدت المنطقة نهضة فكرية وثقافية تمثلت في بروز عددٍ من العلماء والأدباء أشهرهم عبدالله بن صالح المطوع الذي ترك العديد من المخطوطات لعل أبرزها "الجوهرة واللآلي" و"عقود الجمان"، والشيخ مانع بن مكتوم الذي تنسب إليه خريطة بحرية قيمة لمغاصات اللؤلؤ في الخليج والهيرات الموجودة، إضافة إلى عدد من شيوخ العلم أمثال الشيخ ابن حجر، والشيخ عبدالله المحمود، وشهدت ساحة إمارات ساحل عُمان وصول عدد من النشرات مثل فتح البصائر، التي كانت تحفل بالكثير من المقالات المنددة بالسيطرة الاستعمارية البريطانية[117].

(117) عن دراسات، مصدر سابق، ص 48.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الخامس

الإمارات العربية وتحديات القرن العشرين

الإنجازات الرائعة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإمارات العربية 1900-1971

في خضم تحولات القرن العشرين العاصفة والعميقة والخطيرة على كل الصعد، والتي شملت كل مناحي حياة المجتمعات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية، نتيجة السرعة المذهلة لتطور تكنولوجيا المواصلات والاتصالات وكافة نواحي المنتج المادي للحضارة، التي كان لعمق تأثيرها أن أنتجت في النصف الأول منها حربين عالميتين (1914-1918) و (1939-1945) ومن بعدهما حرباً باردة بين القطبين الجبارين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي، وبعد سقوط الأخير، في العقد الأخير من القرن العشرين، راحت الولايات المتحدة تسعى لفرض أحادية قطبية. في ظل ذلك كله، تم تحول مجتمع الإمارات العربية من مجتمع قبلي إلى مجتمع مدني.

ففي بداية القرن، ومع تلبد أجواء السياسة الدولية، والصراعات الدولية على وراثة الدولة العثمانية، ولا سيما على ممتلكاتها في بلاد الشام والجزيرة ومصر، لما لهذه المنطقة من موقع في المواصلات الدولية بين الشرق والغرب، كما سبق وأشرنا، بالإضافة إلى ازدياد الحاجة إلى النفط، وحيث تعتبر شبه الجزيرة العربية أكبر خزان في العالم لهذه المادة الاستراتيجية والحيوية، فقد شددت بريطانيا قبضتها على الإمارات، التي أضيف إلى أهميتها التاريخية كطريق للمواصلات بين الشرق والغرب، كون باطن أرضها يحتوي على هذه المادة التي تكتسب أهميتها ليس من الأرباح التي تجنيها منها الشركات والدول الأجنبية وحسب، وإنما كسلعة استراتيجية، لا غنى لآلة الحرب التي تشكل قوة الدول وقدرتها على السيطرة. وقد لعبت هذه العوامل الثلاثة: 1- التطور التكنولوجي، 2- طرق المواصلات، 3- أهمية النفط، الأثر الحاسم في الأوضاع الاقتصادية وتركيبة النظام الاجتماعي لمجتمع الإمارات.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي فترة ما بين الحربين العالميتين (1918-1939) عانى مجتمع الإمارات أزمة اقتصادية حادة، فقد أثَّر سوق الأسهم (البورصة في نيويورك) والأزمة الاقتصادية العالمية الناشئة عنه إلى تراجع سوق الكماليات، فكسدت تجارة اللؤلؤ، التي كانت مصدر الثروة الأول للخليج، وعَمل كثير من أبنائه ومصدر رزقهم؛ وما زاد هذا الكساد، إنتاج اليابان للؤلؤ الاصطناعي الزهيد الثمن، الذي احتل مكان اللؤلؤ الطبيعي في معظم أدوات الزينة.

"انصراف الغواصين في البحرين والسعودية والكويت عن حرفة الغوص الشاقة عندما بدأت هذه الدول باستغلال ثرواتها النفطية"[118] وكذلك نظراً إلى صعوبة هذه المهنة ومخاطرها. وأدى كل ذلك إلى افتقار أصحاب السفن وتجار اللؤلؤ وقد تأثر بالأزمة الجميع وحتى الشيوخ منهم، سبق ذلك مباشرة استخراج النفط.

سياسة بريطانيا على صعيدي المواصلات والنفط

أدت الحرب العالمية الأولى، من جملة التغييرات التي أحدثتها، إلى تطوير كبير في صناعة الطيران الحربي، واستغلت بريطانيا هذا التطور لإنشاء خط ربط سريع بين العاصمة ومستعمراتها الشرقية (الهند)، وكانت بحاجة إلى محطات لهذا الطيران.

وبالنظر إلى ثبات فعالية الطيران في الحرب، قررت بريطانيا نقل هذه المحطات الجوية في إيران إلى الإمارات العربية؛ بسبب توافر النفط في أرض الإمارات بالإضافة إلى موقعها، وبسبب التطورات السياسية التي وقعت في إيران

(118) دراسات، مصدر سابق، ص 49.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في عهد رضا شاه، وخوفاً من التقلبات السياسية التي يمكن أن تشهدها هذه الدولة الكبيرة والتي يمكن أن تنعكس على أمن مطاراتها العسكرية.

وبعد مفاوضات متعثرة أجرتها بريطانيا، استطاعت أن تقنع شيخ الشارقة عام 1932، بإنشاء قاعدة جوية تربط بين البصرة وكراتشي، وتشتمل على مطار واستراحة للركاب. وعقدت مع شيخ أبوظبي عام 1934 معاهدة مماثلة لبناء مطار في جزيرة بني ياس، وفي عام 1936 أنشأت مطاراً في كلباء "مقابل اعترافها باستقلال كلباء وفصلها عن إمارة الشارقة واعتبارها مشيخة قائمة بذاتها"[119] وقد استمر هذا الانفصال 15 عاماً، عادت بعده مشيخة كلباء إلى الاتحاد مع الشارقة عام 1951. وفي عام 1938 عقدت بريطانيا مع إمارة دبي اتفاقية طيران تجاري، وقد كان لهذه الاتفاقية تأثير كبير في تطور إمارة دبي، إذ خصصت الأموال العائدة من هذه الاتفاقية للتنمية، "من إنفاق على التعليم والأمن والتجارة وغيرها" ما أحدث وعياً اجتماعياً كبيراً في الخليج.

التطور الثقافي في الإمارات

"إن نهضة ثقافية بدأت في الإمارات مع بداية القرن العشرين لم يسبق لها مثيل في التاريخ الحديث للإمارات المتصالحة"[120] فقد ظهرت في تلك الفترة فئة من المثقفين والشعراء والأدباء، كما ظهر مخطوط مهم في تاريخ الساحل لعبدالله صالح المطوّع من الشارقة، كذلك نشر الشيخ مانع بن راشد، وهو أحد أفراد العائلة الحاكمة في دبي، خريطة للمغاصات عام 1941. ومن أبرز شعراء تلك الفترة سالم بن علي العويس، ومبارك بن سيف الناخي، ومن الشارقة مبارك بن حمد العقيلي، ومن دبي، أحمد سلطان بن سليم، كما ظهر عدد من العلماء منهم الشيخ محمد بن سعيد بن غباش والقاضي ابن حجر.

---

(119) الدراسات، مصدر سابق، ص 50.

(120) د. محمد مرسي عبد الله، دولة الإمارات المتحدة وجيرانها، دار القلم، الكويت 1981، ص 149.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هذه العلاقة مع بومباي جذبت إليها كثيراً من الشخصيات العربية، فحينما نفى البريطانيون عام 1915 طالب باشا النقيب قصدَها وقضى سنوات من حياته فيها، وكذلك فعل المصلح عبد الوهاب الزياني حينما نُفي من البحرين عام 1923، فقضى بقية حياته في هذه المدينة، لذا غدت بومباي مقصداً للكثيرين من مفكري العرب ومصلحيهم، حيث كانوا ينزلون بضيافة الطبقة الثرية من التجار العرب فيها، ومن هؤلاء: الشيخ رشيد رضا 1912، وحافظ وهبة 1913، ومحب الدين الخطيب 1915، وأمين الريحاني 1923، وعبدالعزيز الثعالبي عامي 1923 و 1936 [122].

كما تأسست في بومباي مطبعة عربية، كان يمولها نظام حيدر آباد بالإضافة إلى مطبعة الجامعة العثمانية في حيدر آباد، وقد قامت هذه المطابع بطباعة القرآن الكريم وكتب الحديث الشريف، كما طبعت عدداً كبيراً من كتب الدين والتراث[123].

هذا الإحياء التراثي وجد صداه لدى هؤلاء التجار الأثرياء، الذين كانوا يتسوقون هذه الكتب من بومباي والقاهرة، حيث كانت تصل كتب من مختلف العواصم العربية ولا سيما من بيروت. وقد باشر هؤلاء التجار الأثرياء برعاية التعليم ودعم فتح المدارس، ففي عام 1903 فتحت في الساحل ثلاث مدارس مهمة:

1- المدرسة التميمية في الحيرة.

2- المدرسة الأحمدية في دبي.

3- مدرسة ابن خلف في أبوظبي.

---

(122) حافظ وهبة: خمسون عاماً في جزيرة العرب، القاهرة 1960.

(123) أمين الريحاني: رحلة حول سواحل الجزيرة العربية، لندن 1930، ص 262-263.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وراح الطلاب من مختلف الإمارات يتوافدون على هذه المدارس، ويقيم بعضهم على نفقة بعض التجار، وكان من أبرزهم "التاجر علي المحمود"[124] وتوالى بعد ذلك فتح المدارس.

العوامل التي ساعدت على الوحدة:

1- النفط

استغلت بريطانيا قوتها في فترة ما بين الحربين، ولا سيما منذ عام 1922، ففرضت على الشيوخ ألا يعطوا أي امتيازات للتنقيب عن النفط إلا بموافقتها، وتمكنت بذلك شركة التنقيب "الأنجلو-فارسية" من احتكار جميع امتيازات النفط في الإمارات مقابل عائدات زهيدة.

واستتبع اكتشاف النفط مزيداً من الخلافات بين الإمارات، بإضافة مسألة ترسيم الحدود فيما بينها. ولم يكن هذا الأمر يثير اهتمام القبائل أو النزاع فيما بينها قبل ذلك التاريخ، وكانت القبائل تتنقل بين هذه الأراضي دونما اعتراض، ووصلت هذه النزاعات أحياناً إلى "أبعاد دقيقة" كما حدث بين أبوظبي ودبي عام 1945م، وهو الخلاف الذي كاد أن يؤدي إلى ما لا تحمد عقباه لولا حكمة الشيخ زايد والشيخ راشد حينما وقّعا اتفاقية للحدود بينهما في 18 شباط (فبراير) 1968م. وتزامن ذلك مع اتفاق الاتحاد الذي مهد لاتفاق 1971م الذي أنشئت بموجبه دولة الإمارات العربية المتحدة.

وقد تباينت نظرة المثقفين لتأثير الأموال التي تدفقت إلى الإمارات، على أوضاعها الاجتماعية وعلاقاتها البينية، فمنهم من رأى فيها عاملاً أدى إلى المنافسات الأسرية، وأثرت سلبياً في الترابط الاجتماعي والسياسي، وهي تفسيرات

(124) محمد مرسي عبدالله، مرجع مذكور آنفاً ص 151.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان لها بعض الأثر على الوحدة الأصلية، وأثارت نزاعات حدودية لم تكن معروفة من قبل، وكذلك أثرت في ظهور كيانات إقليمية لكل إمارة من هذه الإمارات. ومنهم من رأى فيها عاملاً موحداً للاعتبارات التالية:

1- إن الشركات صاحبة الامتياز، كانت تتعامل مع هذه الإمارات، بسياسة واحدة، أوجدت عاملاً مشتركاً ومصلحة مشتركة في الدفاع عن مصالحها.

2- ساعدت هذه الأموال الشيوخ على بسط سيطرتهم ونفوذهم على مناطقهم، ما ساعد على مركزية القرار في كل مشيخة، وساعد بدوره على قيام الوحدة.

3- أحست الإمارات بضرورة اتحادها لإيجاد قوة موحدة تستطيع الدفاع عن أمنها ومصالحها المشتركة.

4- عدم ظهور النفط في وقت واحد في جميع الإمارات واستعمال الموارد المتاحة لتنميتها جميعاً ساعد على اتحادها.

وفي مطلق الأحوال، فإن المال وسيلة، وككل الظواهر لها وجهان وما يرجح وجهاً على آخر، هو الإرادة والحكمة في استعمال هذه الوسيلة، التي كثيراً ما تكون مستفادة من التجربة.

ففي بادئ الأمر، أثار ظهور النفط مشكلات كثيرة تتعلق بالحدود فبين عامي 1952 و1955، أثار النفط مشكلات حدود مع المملكة العربية السعودية، أحيل إلى التحكيم الدولي، ولكن هذا التحكيم فشل، ففرضت بريطانيا وجهة نظرها فيما يتعلق بالبتّ في هذا الخلاف. ثم عادت هذه المشكلة للظهور من جديد، الأمر الذي استدعى مفاوضات مباشرة بين الشيخ زايد والعاهل السعودي، أفضى إلى اتفاق عام 1974 على الحدود المشتركة، أنهى خلافات طويلة عليها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكانت بريطانيا عام 1963، وبعد إبرام اتفاق حدود مشتركة بين الإمارات، قد أثارت خلافات بين مسقط وأبوظبي حول البريمي.

والأرجح أن مصالح الشركات الأجنبية ودسائسها ودسائس بريطانيا كانت تلعب دوراً خفياً في إثارة هذه النزاعات[125].

لم تكن بريطانيا في فترة حكمها للإمارات ونفوذها المطلق عليها تهتم بشؤون الإمارات الداخلية، اللهم إلا بإذكاء النزاعات فيها حفاظاً على مصالحها جرياً على قاعدة "فرق تسد" الاستعمارية، فقد عينت وكيلاً وطنياً لرعاية مصالحها، اتخذ الشارقة مقراً له، ونشر عملاء له في مختلف الإمارات، وكان يرتبط مباشرة بالمقيمية البريطانية، ويحصر اهتمامه برعاية مصالح الرعايا الإنجليز من الهنود، بينما كان يقوم بمهمة تقديم التقارير إلى البريطانيين عن كل شاردة وواردة، وكان يتغاضى، إن لم نقل يشجع عملاءه على أبشع استغلال للسلطة، فكانوا يتآمرون ضد الشيوخ لزعزعة نفوذهم، ويبالغون في إرسال التقارير إلى البريطانيين لتعزيز موقعهم الشخصي لديهم. وبرغم كل محاولات بريطانيا لإبقاء شعب الإمارات على جهله وتخلفه فإنها لم تفلح في عزله عن مجريات الأمور في محيطه العربي والتأثر بها، وبالحركات الفكرية التي تتفاعل فيها، وهذا ما يؤكد دور الهوية في توحيد الأوطان وتطويرها.

2- حركات التحرر وبواكير اليقظة العربية

وجدت حركات التحرر عن الفرنسيين والبريطانيين في مختلف أرجاء الوطن العربي بين الحربين العالميتين، صداها في الرأي العام الخليجي، ووجدت بعض الشخصيات العربية التي زارت بلدانه شعوراً وطنياً وقومياً عارماً، وجاءت نكبة فلسطين لتؤجج هذه المشاعر، ومما أثار هذا الوعي كذلك، أن صحفاً من

(125) عبدالله، محمد مرسي، دولة الإمارات المتحدة وجيرانها، ص 22.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دمشق وبغداد والقاهرة كانت تدخل عن طريق ميناء دبي، كما أن بعض مواطني الإمارات كانوا يدرسون في جامعات هذه الدول وفي الجامعة الأمريكية في بيروت، ما نقل التيارات الفكرية والمناقشات الدائرة هناك إلى داخل المجتمع وبرز ذلك على صفحات المجلات المحلية، ومن أبرزها الحديقة والزهراء، كما لعبت كل من مجلتي الفتح والشورى دوراً في إذكاء الروح العربية وصحوتها.

3- الهويّة والمد القومي العربي

لقد أذكت أحداث العقدين السادس والسابع من القرن العشرين في الوطن العربي من ثورة يوليو في مصر، إلى معارضة حلف بغداد من قبل مصر وسوريا والعدوان الثلاثي على مصر، وإعلان الوحدة بين مصر وسوريا عام 1958، وثورة يوليو في العراق، التي أسقطت حلف بغداد والسيطرة البريطانية على العراق، كل ذلك أذكى المشاعر القومية العربية، وكان له أثره في تعزيز الروح القومية التحررية والمشاعر الوطنية، التي لم يفلح المستعمرون البريطانيون في إخمادها.

ولم تنسَ الدول العربية في فترة المد القومي هذا شقيقتها في الإمارات فأرسلت البعثات التعليمية، ما ساعد على نشر هذا الوعي الوحدوي بين أبناء مجتمع الإمارات بفضل المثقف، الذي أسهمت بإيجاده، وبرز من هذا الجيل الإماراتي مفكرون يمكن اعتبارهم أعلاماً في الفكر والنضال العربي.

وقد انعكس هذا المد القومي على نشاط جامعة الدول العربية، ففي سبتمبر من عام 1964، عملت جامعة الدول العربية على اتخاذ الإجراءات الفاعلة لتأكيد عروبة منطقة الخليج والحفاظ على هويتها، ففي مؤتمر القمة العربية الذي عقد في الإسكندرية بهذا التاريخ، جرى التشديد على ضرورة اجتذاب الخليج والإمارات بخاصة إلى المجموعة العربية، فأنشأ المؤتمر صندوقاً للتنمية يتولى مهام دراسة المشروعات الإنمائية الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية، كما مد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإمارات بالخبرات والمساعدات الفنية التي تحتاج إليها في عملية التنمية. كما أوفد مؤتمر القمة العربية بعثة عرفت باسم "لجنة الأُخوَّة لتقصي الحقائق في الإمارات"، التي ألقت المسؤولية على بريطانيا بتشجيعها عمليات التسلل للأجانب، ولا سيما الهنود، لإسقاط "عروبة الإمارات، والعمل على تكوين شخصية إقليمية أكثر ارتباطاً بالهند وشرق آسيا منها إلى المجموعة العربية"[126].

وقد لمست لجنة جامعة الدول العربية قوة الشعور العربي ورغبة الإمارات في التحرر من الاستعمار، واتخذت قرارات للمساعدة على ذلك، ولكن بريطانيا عارضت تلك القرارات مدَّعية أنها تخالف اتفاقياتها مع إمارات الخليج، ولكن مساعي هذه اللجنة حركت التوجه نحو الوحدة، وفتحت نظر أبناء الإمارات إلى مخاطر السيطرة الاستعمارية.

ولقطع الطريق على الخطة العربية، بادرت بريطانيا إلى "إنشاء مكتب لتطوير الإمارات، (...) ليتولى القيام بمشروعات التنمية تحت إشرافها"[127] وحاولت بريطانيا أن تمنع كل ما من شأنه تشكيل خطر على نفوذها، فراحت تصادر الصحف والمجلات الواردة من البلدان العربية، وتمنع زيارة الشخصيات العربية، ولكن وجود الإذاعات كان يُفشل حصارها، وأكثر الإذاعات التي كانت تحرك الرأي العام في الإمارات إذاعة صوت العرب وإذاعة الملك غازي وقصر الزهور وغيرها من الإذاعات التي كانت تبث الروح الوطنية وتفضح تآمر المستعمرين، وراح الإماراتيون الذين يعجزون عن اقتناء جهاز راديو، يترددون على المقاهي المحلية ليستمعوا إلى مكبرات الصوت فيها، إذ قام المواطنون عام 1936 مثلاً بمظاهرات تأييد للانتفاضة الفلسطينية، ولا سيما في الشارقة ورأس الخيمة، وراح المواطنون برغم ظروفهم الصعبة آنذاك يجمعون التبرعات لثورة فلسطين

(126) دراسات، مصدر سابق، ص 54.

(127) دراسات، مصدر سابق، وانظر كذلك، تقرير بعثة جامعة الدول العربية عن زيارتها للإمارات العربية، في 10 فبراير 1965. ملحق رقم 2 من تقرير الأمين العام إلى مجلس جامعة الدول العربية، في دور انعقاده الـ 43 في 15 آذار 1965، ص 177 وما بعدها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وشهدائها، وعلت أصوات الجوامع تأييداً لحق الفلسطينيين في أرضهم ونصرةً لقضيتهم، وقد حاول بعض الشبان حرق القاعدة البريطانية في الشارقة.

وحينما اندلعت الحرب العالمية الثانية، أنشأت بريطانيا مزيداً من القواعد الجوية والعسكرية، واتخذت إجراءات تمس بحرية الإماراتيين، ما أشاع جواً من التذمر وبلغ الاستياء حده، وأثار ذلك قلق البريطانيين إلى حد جعلهم يتهمون الشيخ صقر بن سلطان، حاكم الشارقة بتأليب الناس ضدهم، إذ كان قد نظم قصيدة تذم البريطانيين وتشيد بانتصارات الألمان، واتهم البريطانيون ألمانيا بإرسال عملاء مخابراتها لإثارة الإمارات ضدهم.

وزادت الحرب الأحوال الاقتصادية تدهوراً، وارتفعت الأسعار وتوقفت عمليات استغلال "ما تم اكتشافه من نفط المنطقة بسبب استمرار الحرب، وتخوف البريطانيين من الضبابية التي تخيّم على نتائجها".

4- الخروج البريطاني

خرجت الجيوش البريطانية من الخليج عام 1971 وكذلك من الإمارات بعد احتلال دام مائة وخمسين عاماً، وكان ذلك من أواخر تداعيات سقوط الإمبراطورية البريطانية بعد العدوان الثلاثي على مصر عام 1956، وحلَّ محل القطبين الفرنسي والبريطاني، القطبان اللذان لعبا الدور الحاسم في الحرب العالمية الثانية، وهما الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي.

وخلفت بريطانيا وراءها في الخليج مشكلات لا تحصى، في المجالات الاجتماعية والسياسية.

ومن أبرز المشكلات التي خلفتها بريطانيا، التي لايزال بعضها قائماً حتى اليوم، مسائل الحدود بين الإمارات، وبين دولة الإمارات ودول الجوار الجغرافي،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأعقد هذه المشكلات هي مسألة الجزر الثلاث: طنب الكبرى وطنب الصغرى وأبو موسى، حيث استغلت إيران خروج بريطانيا، لتحتلها منذ 30 تشرين الثاني (نوفمبر) 1971، حتى يومنا هذا، الأمر الذي أدى إلى انعدام الثقة بين دول الخليج العربي وجارتهم إيران.

كما حالت المعاهدات المجحفة التي فرضتها بريطانيا على الإمارات بينها وبين إقامة علاقات دبلوماسية مباشرة مع الدول الأخرى، فلم تكن لديها خبرة في التعامل الدبلوماسي، بالإضافة إلى تخلف البنية التحتية، وضعف الحركة الثقافية والتعليمية وضآلة الكوادر المؤهلة في الدولة الناشئة، فاستعانت بالكفاءات العربية لإدارة شؤون الاتحاد. وكانت بريطانيا تعمل على تأكيد نفوذها والنفوذ الغربي عامة على الخليج بأسره.

فبعد استقلال الهند عن بريطانيا عام 1947، أُتبعت إدارة الخليج إلى وزارة الخارجية البريطانية، بعد أن كانت حكومة الهند البريطانية تتولى هذا الأمر منذ زمن بعيد. وكانت بريطانيا قد أنشأت عام 1952 مجلساً لشيوخ الإمارات المتصالحة، وفي عام 1965 أُلحق بهذا المجلس مكتب للتطوير، بعد ازدياد عدد المتعلمين، ووفود عدد كبير من الفلسطينيين، الأمر الذي زاد من درجة الوعي لدى الرأي العام الخليجي. وقد شمل مكتب التطوير البحرين وقطر وأبوظبي المنتجة للنفط، وقد أسهمت الكويت في تمويل هذا المكتب ثم أخذت أبوظبي هذا المكتب بصورة شبه كاملة على عاتقها. كان ذلك هو الحال عندما وصل الشيخ زايد بن سلطان إلى الحكم عام 1966.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قيام اتحاد الإمارات العربية
وبناء مؤسسات الدولة

"إنه (الاتحاد) يجسد نموذجاً من نماذج الوحدة الشاملة، التي يسعى إليها الوطن العربي الكبير"

الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان –طيب الله ثراه– 1971/8/5

القائد المؤسس والرائد

كان الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان حاكماً لمدة تقارب العشرين عاماً. (1946–1966م) على العين في أثناء حكم أخيه الشيخ شخبوط بن سلطان، وفي فترة حكمه على العين شهد أحداثاً مهمة، كان من أبرزها قيام أزمة واحة البريمي بين مسقط وأبوظبي من ناحية والمملكة العربية السعودية من ناحية أخرى.

وكان رحمه الله، في فترة حكمه للعين قد حظي بمحبة البدو واحترامهم، فقد استطاع بحكمته أن يحقق كثيراً من المصالحات بينهم، كلما نشأ نزاع، حتى إن الرحالة البريطاني W. Theziger الذي أطلق عليه البدو آنذاك اسم مبارك بن لندن، قد زاره في عام 1948 في مقر إقامته في قلعته بالمويجعي، لكثرة ما سمع عنه في مراحل تجواله في صحراء الربع الخالي، كما تحدث عنه Kelly في كتاب له صدر عام 1966، عنوانه "الحدود الشرقية لشبه الجزيرة العربية" فأشاد بشخصيته القوية، وبالدور الذي كان يلعبه في حكمه للمنطقة الشرقية من أبوظبي، كذلك أشاد كلارنس مان بقدرته السياسية وعدالته وروحه الإصلاحية[128].

---

(128) Mann, Abu Dhabi, Birth of an oil Sheikhdom, 2nd ed Beirut, 1969, p97-98.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعلى الرغم من الإمكانات المتواضعة في أثناء حكمه للعين، استطاع الشيخ زايد أن يحقق كثيراً من المشروعات الإصلاحية والتنموية، ووجه عناية خاصة إلى مياه الري، فأصلح الأفلاج القديمة التي كان قد أتلفها القتال بين القبائل، وأنشأ أفلاجاً جديدة، لما لها من قيمة تراثية وعملية، كما ينسب إليه فلج الصاروج في مدينة العين، وكان آخر الأفلاج التي أنشئت بالطريقة التقليدية القديمة، واستمر إنشاؤها 18 عاماً (من عام 1948 إلى عام 1966)، وجعل السقاية مشاعاً، بعد أن كانت حكراً على الأغنياء الذين يشترون هذا الحق فيضطر الفقراء لبيع بساتينهم بأبخس الأثمان؛ لقلة المياه اللازمة لسقايتها، ما يحيلها أرضاً جدباء.

وكذلك أدخل الشيخ زايد التعليم، فأسس المدرسة النهيانية الابتدائية عام 1955 في حين لم يدخل التعليم النظامي إلى أبوظبي إلا عام 1962.

كما أثبت بعد توليه حكم أبوظبي "أنه على قدر كبير من الوعي والاستنارة، حيث وجه إيرادات النفط لتحسين مستوى المعيشة في البلاد واستثمار عائدات النفط في الإنفاق على مشروعات التنمية الضخمة التي نقلت الإمارة في زمن قياسي إلى مصاف الدول المتقدمة"[129] فأنشأ مجلساً للتنمية عام 1968 وترأسه شخصياً، وقام بإنفاق كبير على الصحة والتعليم والزراعة والمواصلات... إلخ.

ومن أهم مشروعاته بين عامي 1968 و1972، إنشاء محطة تكرير لمياه البحر، ومشروع زراعة السعديات.

وكان رحمه الله "يسعى إلى بناء مجتمع جديد مبني على الرخاء والعدالة والكرامة، وهدفه الرئيسي هو سعادة بلده وشعبه، وكان يرنو إلى تأسيس دولة

(129) دراسات، مصدر سابق ص 58.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رفاهية حديثة، على قاعدة التقاليد العربية الإسلامية"[130] وكان حسب تعبير كلود موريس يتمتع بـ "فن إدارة شؤون الدولة المتصف بالإبداع والإنسانية"[131].

ونتيجة للسياسات المعتدلة والمتوازنة التي اتبعها مع الإمارات المجاورة، فقد سوَّى الحدود البحرية والبرية بين دبي وأبوظبي ومهَّد الطريق للاتحاد بين البلدين، وكذلك فعل مع الشيخ صقر بن محمد القاسمي حاكم رأس الخيمة، كل ذلك إضافة إلى الأدوار التي لعبها، التي سبق لنا ذكرها، احتل الشيخ زايد مكانة أهلته لرئاسة اتحاد الإمارات العربية عند قيامه عام 1971[132].

(130) د. جوينتي مايترا، زايد من التحدي إلى الاتحاد، مركز الوثائق والبحوث أبوظبي 2007. ص 92.
(131) Morris, Claud, The Desert falcon, London, p 81.
(132) Morris, Claud نفسه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحدث الكبير

قيام الاتحاد

"قامت (دولة الاتحاد) تؤكد الانتماء العربي الأصيل، وتعبر عن ذلك الواقع بلسان حالها، بل بالاسم الذي اتسمت به، فكان اسمها وشعارها في الوقت ذاته معبراً عن العروبة والتجمع والوحدة"[133]

لم يكن قيام الاتحاد بين الإمارات العربية حدثاً ابتهج له أبناء الإمارات وحدهم، بل كان حدثاً أدخل الفرحة والبشر على قلوب العرب من المحيط إلى الخليج، وقد جاء هذا الحدث ليغذي أمل العرب جميعهم، خاصة الطامحين إلى اتحاد ينهض بأوضاعهم ويصون بلادهم من المطامع الاستعمارية التي عاشوا على مآسيها خمسة قرون، وما زالت أقطارهم كافة تتعرض لعدوان تلو الآخر، وما زالت أرض فلسطين محتلة وشعبها مشرداً، ما بث فيهم أملاً بعد أسباب الإحباط المتراكمة.

حينما أعلنت بريطانيا عزمها على الانسحاب من منطقة الخليج قبل نهاية عام 1971، كانت فكرة توحيد الإمارات قد اختمرت لدى شيوخ المنطقة، بفضل المساعي الحثيثة والحكيمة والدؤوبة التي كان يقوم بها الشيخ زايد بن سلطان، والاحترام والمكانة اللتين كسبهما عبر العقود الماضية. وكان أكثر المتجاوبين معه والمتحمسين للاتحاد، أخوه الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم -رحمه الله تعالى- وكان هدفهما إنشاء دولة لها وزنها السياسي والاقتصادي وتلبي في آنٍ معاً رغبة أبنائها في الاتحاد، وانطلقت فكرة الاتحاد الأولى.

---

(133) من خطاب الشيخ زايد -طيب الله ثراه- في العيد الوطني الخامس (في 1976/12/2).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تواريخ مفصلية [134]

اجتماع "السميح" – أعلن الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان –رحمه الله– وأخوه الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم –رحمه الله– في بيان مشترك بينهما، عزمهما على إقامة اتحاد فيدرالي بين إمارتيهما ودعوة الإمارات العربية بما فيها قطر والبحرين للانضمام إلى هذا الاتحاد.

استقلال قطر والبحرين– وقبل أن يدخل هذا الاتحاد حيز التنفيذ، أعلنت إمارتا قطر والبحرين استقلالهما وإنشاء كل منهما دولة مستقلة وذات سيادة.

يوليو 1971 – اجتمع حكام الإمارات الست المتصالحة: أبوظبي، ودبي، والشارقة، وعجمان، وأم القيوين، والفجيرة في دبي وأعلنوا عزمهم إقامة اتحاد سداسي بينهم؛ استجابة لرغبة شعوبهم التواقة إلى الوحدة.

18 يوليو 1971 – صدر الدستور المؤقت لاتحاد الإمارات العربية المتحدة الذي ينص على اختيار الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان –طيب الله ثراه– حاكم أبوظبي، رئيساً للاتحاد، واختيار أبوظبي عاصمة مركزية للاتحاد، وتمَّ الاتفاق على توزيع الحقائب الوزارية.

2 ديسمبر 1971 – أعلن في أبوظبي استقلال الإمارات، وأقرَّت الحكومة البريطانية بإلغاء جميع المعاهدات والاتفاقيات التي

---

(134) عن دراسات ، ص 58–59.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت تربطها بالإمارات مقرة "باعتبارها غير متكافئة، وغير مسايرة لروح العصر". وهكذا فقدت بريطاليا نفوذاً على الإمارات امتد على مدى قرن ونصف قرن (من عام 1821 إلى عام 1971).

23 ديسمبر 1971 - بعثت رأس الخيمة برسالة إلى المجلس الأعلى للاتحاد تطلب منه الانضمام إلى اتحاد الإمارات العربية، فوافق المجلس بإجماع الأصوات على انضمامها.

10 فبراير 1972 - تم انضمام رأس الخيمة إلى الاتحاد، فاكتمل عقدها الحالي، وغدت تتكون من الإمارات السبع، وقد ساعد قيام الاتحاد إلى حد كبير على قيام مجلس التعاون الخليجي عام 1981.

يعتبر قيام الاتحاد نقطة تحوّل مفصلية، في التاريخ الحديث لمنطقة الخليج العربي، بعد التفكك الذي أصاب البلاد العربية، وبعد خمسة قرون من تاريخ خضوع أغلب هذه البلدان وبتواريخ متوالية للاستعمار الغربي، فساور الشعب العربي أمل بأن يكون هذا الحدث إيذاناً بفجر جديد بعد عملية التفكك والتقسيم التي ترجمتها اتفاقية "سايكس بيكو" على البلاد العربية فبددت قدراتها، واستنزفت خيراتها، وكان كذلك فسحة أمل مشرقة للعرب جميعاً بعد نكسة الانفصال بين سوريا ومصر عام 1961، وكان قيام الاتحاد عاملاً محفزاً ومثلاً، لتوحيد شطري اليمن فيما بعد، كما ويأمل العرب جميعاً أن تكون وحدة الإمارات، ووحدة اليمن، ومجلس التعاون الخليجي مقدمات لقيام مؤسسات توحد الكيانات العربية على الأقل في مجالات الدفاع، والخارجية والتكامل الاقتصادي، وتحفظ جميع الكيانات العربية، بوجه الاستغلال الاستعماري لها، فتحقق المصالح

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المشتركة للأمة العربية، مع الحفاظ على الكيانات التي تتناسب مع خصوصيات كل كيان، فتحول التكوين الفسيفسائي للأمة العربية، الذي يعود لعراقتها الحضارية وما رسَّبته تجربتها التاريخية ومراحل رسالتها من تنوع ديني ومذهبي وعرقي إلى عامل قوة وغنى وتنوع وتسامٍ على التعصب والعنصرية، ومبعثاً لروح التسامح والتعايش، تحت سقف الهوية والمصالح العليا الجامعة.

وإذا كانت الظروف الدولية، والمساعي الإقليمية العربية الخيرة قد ساعدت على تحقيق هذه الإنجازات، فإن الفضل الأكبر في تحقيقها يعود إلى القيادة الحكيمة والوطنية والقومية الصادقة، التي تميز بها الشيخ زايد بن سلطان -رحمه الله- والتجاوب الذي أبداه مشايخ الإمارات وشعبها مع مساعيه الحكيمة والخيرة، التي يجب أن تكون قدوة ومثلاً يحتذى لمزيد من التعاون العربي، ليعيد للأمة دورها، ويعيدها إلى رسالتها التاريخية بنشر الحضارة والأمن والسلام العادل، والعيش الكريم للبشرية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التكوين السياسي
لدولة الإمارات العربية المتحدة

"إن التجربة الوحدوية ليست وليدة وقتها، بل هي عصارة قرون، فلقد كان طريق الاتحاد موجوداً، وبارزاً قبل أن يبدأ الحديث عن الاتحاد ذاته، ولا يخفى عليك أن العشائر والقبائل الموجودة في أنحاء المنطقة تربطها أواصر القربى والنسب، ولذلك كان الاتحاد مقبولاً منذ اللحظة الأولى التي طرحت فيها فكرته، فالعائلة الواحدة ينتشر أفرادها في أكثر من إمارة من إمارات الاتحاد، ولم يكن قبول الشعب لفكرة الاتحاد نابعاً من مصالح مادية، بل كان نابعاً في المقام الأول من رغبة المواطنين في زيادة أواصر القربى بينهم"[135].

وُضع دستور الإمارات العربية المتحدة وبنيت السلطة السياسية بموجبه، تجسيداً لواقع الإمارات ومكوناتها ولهويتها الوطنية، فبالإضافة إلى مقدمة الدستور التي تحدد هوية الدولة الناشئة، فقد بُني النظام السياسي على قاعدة الانتقال الطبيعي من مرحلة البداوة إلى مرحلة بناء الدولة الدستورية الحديثة، وقد قال مؤسس الدولة -رحمه الله- الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان في أكتوبر عام 1971م. "نحن بالشورى نعيد ماضي أسلافنا مع الحاضر، لقد أجمعنا الرأي على أن تتحملوا معنا مسؤولية الحكم... إن مبدأ الشورى الذي استمر في هذا البلد مئات السنين، سوف يظل باقياً أبد الدهر"[136]، فكانت المؤسسات والمجالس الاتحادية تأكيداً لهذا التوجه، كما جاءت بنود الدستور تجسيداً لهوية الدولة التي حددتها مقدمته.

دستور الإمارات العربية المتحدة

أكّد الدستور المؤقت لدولة الإمارات، أن اتحاد الإمارات العربية المتحدة جزء من الوطن العربي تربطها به روابط الدين واللغة والمصير المشترك. وأن شعب

(135) حديث الشيخ زايد، رحمه الله، لصحيفة الجزيرة السعودية 1974/10/4.
(136) زايد والبناء الوطني، مرجع مذكور آنفاً، ص 55.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإمارات جزء من الأمة العربية. كما أكّد دستور الإمارات أن الإسلام هو الدين الرسمي للاتحاد، ولغته هي اللغة العربية، وسياسته الخارجية هي مناصرة القضايا والمصالح العربية والإسلامية.

وتتكون السلطات الاتحادية كما نص عليها الدستور من الهيئات التالية:

أ- المجلس الأعلى الاتحادي.

ب- رئيس الاتحاد ونائبه.

ج- مجلس الوزراء الاتحادي.

د- المجلس الوطني الاتحادي.

هـ- السلطة القضائية الاتحادية.

ويتضح من قراءة الدستور أن السلطات العامة في الاتحاد تتمثل في سلطة تشريعية تضم المجلس الأعلى للاتحاد، والمجلس الوطني الذي أُعطيَ صلاحيات استشارية بموجب الدستور، وسلطة تنفيذية تضم رئيس الدولة ونائبه ومجلس الوزراء، ثم السلطة القضائية التي يمارسها القضاء الاتحادي.

وتعدّ دولة الإمارات العربية المتحدة ثاني دولة في الخليج تطبق حكماً دستورياً يقوم على أساس فصل السلطات مع تعاونها بعد الكويت. وتعتبر هذه خطوة مهمة، حيث إنها غيّرت من مفاهيم الحكم في المنطقة ونقلتها من نظام قبلي إلى نظام دستوري. صدر الدستور المؤقت في دبي في 18 يوليو 1971م بناءً على القرار الاتحادي رقم (1) لعام 1969م، الصادر من المجلس الأعلى للاتحاد. ويشمل الدستور 152 مادة تحدد مقومات الاتحاد وأهداف السياسة العليا للاتحاد، بالإضافة إلى الحقوق والواجبات العامة للأفراد، وقد نص الدستور على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن دولة الإمارات هي دولة مستقلة ذات سيادة، كما يجوز لأي قطر عربي أن ينضم إلى الاتحاد متى وافق المجلس الأعلى بالإجماع على ذلك. أما مقر الاتحاد فقد نص الدستور المؤقت على إنشاء عاصمة اتحادية في منطقة الكرامة على الحدود بين إمارتي أبوظبي ودبي، وأن تكون أبوظبي العاصمة المؤقتة للاتحاد.

والمؤسسات الدستورية في دولة الإمارات العربية المتحدة هي:

أ- المجلس الأعلى الاتحادي:

يعتبر المجلس الأعلى للاتحاد أعلى سلطة في البلاد، ويشكل من جميع حكام الإمارات المكونة للاتحاد، أو من يقوم مقامهم، ولكل إمارة صوت واحد في مداولات المجلس. ويتولى المجلس الأعلى للاتحاد أمور رسم السياسة العليا في جميع المسائل الموكولة إلى الاتحاد بمقتضى الدستور المؤقت، والنظر في كل ما من شأنه تحقيق أهداف الاتحاد العليا ومصالح الإمارات المشتركة. والتصديق على المراسيم والاتفاقيات الدولية، وإلى ما هناك من اختصاصات أخرى ينص عليها الدستور أو القوانين الاتحادية، وللمجلس الأعلى للاتحاد رئيس ينتخب وللرئيس نائب ويكون رئيس المجلس الأعلى هو رئيس الاتحاد، ولكن نائب الرئيس يمارس جميع اختصاصات الرئيس عند غيابه لأي سبب من الأسباب. ويمارس المجلس الأعلى للاتحاد طائفتين من الاختصاصات: الأولى، اختصاصات حصرية يمارسها بنفسه وبصفة فعلية ودون تدخل سلطة أخرى: ك: تعيين رئيس الوزراء، ورسم السياسات العامة للدولة، والتعديلات على المعاهدات، وإعلان الحرب، وإعلان الأحكام العرفية.

ب- مجلس الوزراء الاتحادي:

يعتبر تشكيل الوزارات الاتحادية خطوة اتخذها الاتحاد نحو الوحدة الكاملة بين الإمارات. ويعد مجلس الوزراء أحد أركان السلطة التنفيذية الأساسية بعد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رئيس الاتحاد ونائبه، ويهدف إلى معاونة المجلس الأعلى في سلطاته ويمارس اختصاصاته وفقاً للسياسة العليا التي يقرها المجلس الأعلى. وتنص المادة (155) من الدستور أن يتكون مجلس الوزراء من رئيس المجلس ونائبه وعدد من الوزراء. ويتم تعيين رئيس الوزراء بموافقة المجلس الأعلى للاتحاد بناءً على اقتراح رئيس الاتحاد. ويشكل مجلس الوزراء بمرسوم يصدر من رئيس الدولة، وبناءً على عرض رئيس الحكومة المكلف. ولا يحدد الدستور الكيفية التي يتم بها اختيار الأعضاء ولا المدة الزمنية. ويضم المجلس عدداً من الوزارات هي: الخارجية والداخلية والدفاع والمالية والصناعة والعدل والتربية والتعليم والتعليم العالي والصحة والأشغال العامة والإسكان والزراعة والثروة السمكية والشباب والرياضة والكهرباء والماء والبترول والمعادن والاقتصاد والمواصلات والعمل والشؤون الاجتماعية والإعلام والتخطيط والدولة لشؤون المجلس الأعلى والدولة لشؤون مجلس الوزراء والدولة لشؤون المالية.

ج- المجلس الوطني الاتحادي:

منح الدستور المجلس الوطني الاتحادي في دولة الإمارات العربية المتحدة سلطة استشارية، ويبلغ عدد أعضائه (40) عضواً يمثلون الإمارات السبع التي تشكل الدولة الاتحادية (أبوظبي 8، دبي 8، الشارقة 6، رأس الخيمة 6، عجمان 4، الفجيرة 4، أم القيوين 4). ويشترط في العضو أن يكون من المقيمين في الإمارة التي يمثلها وألا يقل عمره عن خمسة وعشرين عاماً، وأن يكون متمتعاً بالأهلية المدنية، ومحمودَ السيرة والسلوك، حسن السّمعة، لم يسبق الحكمُ عليه في جريمة مُخِلّة بالشرف، وأن يكون لديه إلمام كافٍ بالقراءة والكتابة، وقد أجاز القانون لكل إمارة حق اختيار الأعضاء الذين يمثلونها في المجلس وبالطريقة التي تراها مناسبة، ويختار المجلس الوطني رئيساً من بين أعضائه، هو رئيس المجلس الوطني وتتضمن اختصاصات المجلس الوطني مراجعة مشروعات القوانين المالية قبل رفعها إلى رئيس الاتحاد، وللمجلس الأعلى أن يقبلها أو يعدّلها، كما ينظر المجلس الوطني في مشروع قانون الميزانية العامة للاتحاد، وتتولى الحكومة إبلاغ المجلس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بالمعاهدات والاتفاقيات الدولية التي تجريها مع الدول الأخرى، وللمجلس الوطني أن يناقش أي موضوع من الموضوعات العامة المتعلقة بشؤون الاتحاد.

وقد منح الدستور سلطات مستقلة للمجلس؛ منها اختيار رئيس المجلس الذي يتم بالانتخاب في أول جلسة من الفصل التشريعي، كما ينتخب نائباً أول ونائباً ثانياً لرئيس المجلس. وللمجلس سلطة تنظيم أمانته العامة، إذ تنظم بقرار من رئيس المجلس يصدر بعد موافقة هيئة مكتب المجلس، ويرأس الأمانة العامة أمين عام يعين بقرار من رئيس الاتحاد بناءً على ترشيح من رئيس المجلس، ويتولى الأمين العام سكرتارية هيئة المكتب، ويكون مسؤولاً عن شؤون الأمانة العامة وموظفيها أمام رئيس المجلس، وللمجلس السلطة المطلقة في وضع لائحته الداخلية التي تصدر بمرسوم عن رئيس الدولة بعد موافقة مجلس الوزراء. وعزز الدستور استقلالية المجلس في عدم جواز الجمع بين عضوية المجلس وأي وظيفة لضمان تحرر العضو من أي تأثير أو نفوذ للسلطة التنفيذية عليه، ومن مظاهر استقلال المجلس بشؤونه انفراده بالفصل في الطعون التي تقدم في صحة نيابة أعضائه وفي طلبات إسقاط هذه العضوية. وثمة صورة أخرى من صور استقلال المجلس عن السلطة التنفيذية هي حرمة المجلس، فللمجلس حرسه الخاص الذي يأتمر بأوامر رئيسه، ولا يجوز لأي سلطة أو قوة دخول المجلس أو اقتحامه دون إذن من رئيسه الذي له وحده حق الاستعانة برجال الشرطة إذا اقتضى الأمر. ويتمتع أعضاء المجلس بحصانة نيابية ضد جرائم الرأي حيث تنص المادة (81) على عدم محاسبة أعضائه على ما يبدونه من الأفكار والآراء في أثناء قيامهم بتأدية مهامهم داخل المجلس ولجانه، كما كفل الدستور حصانة الأعضاء ضد الجرائم الجنائية.

د- السلطة القضائية الاتحادية:

يعتبر القضاء مظهراً من مظاهر سيادة الدولة وقوتها، خاصة أن الدستور المؤقت لدولة الإمارات العربية المتحدة قد كفل حرية القضاء بإعطائهم استقلالهم فهم لا يخضعون إلا للقانون. وتنقسم المحاكم الاتحادية إلى أربعة أنواع، هي:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- المحكمة الاتحادية العليا.
- محكمة الاستئناف.
- المحكمة الاتحادية الابتدائية.
- المحاكم المحلية (المدنية والشرعية).

ملامح السياسة الخارجية لدولة الإمارات:

على الرغم من محدودية حجم دولة الإمارات وقلة إمكاناتها البشرية والعسكرية، فإنها حققت حضوراً فاعلاً على الساحة الدولية. وتقوم السياسة الخارجية لدولة الإمارات العربية المتحدة على مبادئ ثابتة تشكل المنطلقات الأساسية لفهم سياستها الخارجية، ويمكن إجمال هذه المبادئ في النقاط التالية:

1- أمن الخليج مسؤولية أبنائه، وهو جزء لا يتجزأ من الأمن القومي العربي.

2- الالتزام بالمصلحة العربية العليا والدفاع عن القضايا العربية.

3- الالتزام بميثاق الجامعة العربية وبالقرارات العربية كافة.

4- الالتزام بمبدأ التعايش السلمي وحسن الجوار.

5- الالتزام بمبادئ عدم الانحياز.

6- احترام مبدأ السيادة والمساواة بين دول العالم وعدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول الأخرى.

7- تنمية علاقاتها مع دول العالم كافة والابتعاد عن سياسة المحاور والأحلاف العسكرية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

8- الالتزام بميثاق الأمم المتحدة والإيمان الراسخ بالتعاون الدولي.

9- اعتبار منطقة المحيط الهندي منطقة سلام دائم.

وحرصت دولة الإمارات العربية المتحدة منذ قيامها في الثاني من ديسمبر 1971م على تدعيم مكانتها الدولية من خلال الانضمام إلى المنظمات الدولية العالمية والإقليمية والتفاعل مع القضايا الدولية المعاصرة. فقد انضمت دولة الإمارات إلى جامعة الدول العربية في السادس من ديسمبر 1971م. مباشرة بعد استقلالها وأصبحت العضو الثامن عشر في الجامعة العربية. وانضمت إلى الأمم المتحدة في التاسع من ديسمبر من العام نفسه لتصبح العضو الثاني والثلاثين بعد المائة. وتسهم دولة الإمارات في العديد من الوكالات الدولية المتخصصة التابعة للأمم المتحدة وتقدم المساعدات المادية لها، مثل: اليونسكو واليونسيف والفاو ومنظمة العمل الدولية والبنك الدولي للإنشاء والتعمير والصندوق الدولي للتنمية ومؤسسة التنمية الدولية والوكالة الدولية للطاقة الذرية... وغيرها. كما انضمت الإمارات العربية إلى "منظمة المؤتمر الإسلامي" و"حركة عدم الانحياز". وأخيراً كانت أحد الأطراف المؤسسة لـ "مجلس التعاون لدول الخليج العربية".

مجلس التعاون لدول الخليج العربية

ترجع فكرة إنشاء مجلس التعاون الخليجي إلى عام 1975م، عندما صدر بيان في أبوظبي عقب زيارة ولي عهد الكويت آنذاك الشيخ جابر الأحمد -رحمه الله- إلى أبوظبي، وبعد مباحثات مطولة بين الجانبين، صدر بيان مشترك دعا في حينه إلى تشكيل لجنة وزارية مشتركة يرأسها وزير خارجية أحد البلدين، تجتمع مرتين كل سنة على الأقل وفي ديسمبر 1978م، زار الشيخ سعد العبدالله، الذي أصبح ولياً للعهد، دول الخليج العربية ودعت البيانات المشتركة التي صدرت في أعقاب زيارته إلى تحرك سريع لتحقيق وحدة حتمتها الظروف الإقليمية وأماني شعوب المنطقة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولكن الجهود المكثفة لإنشاء مجلس التعاون لم تبدأ إلا في مؤتمر القمة العربي الحادي عشر الذي عقد في عمان/ الأردن 1980م، حيث أطلعت دولة الكويت الزعماء الخليجيين على التصور الكويتي لاستراتيجية خليجية للتعاون في جميع المجالات، الذي يقوم على تقوية الروابط بين دول الخليج العربية في المجالات كافة، في إطار تنسيق مشترك. وفي يناير 1981، تم إرسال المشروع الكويتي للتعاون الخليجي إلى الدول المعنية، وفي أثناء انعقاد مؤتمر القمة الإسلامية في الطائف في الفترة ما بين 25 و28 يناير 1981م، جرت بعض الاتصالات بين القادة الخليجيين تبلورت فيها الأفكار الرئيسية التي تركزت حولها أهداف المجلس، ومن أهمها تعميق التعاون المشترك بين دول الخليج في شتى المجالات.

وإدراكاً منها لما يربط بينها من روابط خاصة وسمات مشتركة نابعة من عقيدتها المشتركة وتشابه أنظمتها ووحدة تراثها وتماثل تكوينها السياسي والاجتماعي والسكاني وتقاربها الثقافي والحضاري، ورغبة من هذه الدول في تعميق التعاون وتطويره والتنسيق بينها في مختلف المجالات بما يعود على شعوبها بالخير والاستقرار، سعت دول الخليج العربية إلى قيام مجلس التعاون لدول الخليج العربي.

وفي 4 فبراير 1981م عُقد في الرياض مؤتمر ضم وزراء خارجية دول الخليج العربي الست، وهي: الإمارات- البحرين- قطر- السعودية - عُمان- الكويت، حيث تم فيه مناقشة خطة العمل المقدمة من الكويت، وقدمت السعودية مشروعاً لعقد اتفاقيات تعاون أمني ثنائي بين السعودية وكل دولة خليجية على حدة، بحيث تشكل هذه الاتفاقيات الثنائية اتفاقية أمنية واحدة، وقد أسفر اجتماع الرياض عن الاتفاق على إنشاء مجلس للتعاون من هذه الدول؛ لبلورة التعاون وتطويره والتنسيق بين الدول الخليجية الست. وفضلت دول الخليج أن يقوم المجلس على شكل التعاون بين الدول الأعضاء وليس على شكل وحدة أو اتحاد، وتمَّ تعيين عبدالله يعقوب بشارة أميناً عاماً للمجلس.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جاء إعلان مولد مجلس التعاون الخليجي متماشياً مع الأهداف القومية للأمة العربية وفي نطاق ميثاق الجامعة العربية، الذي يحث على التعاون العربي الإقليمي، وقد اتفق زعماء الدول الخليجية على إنشاء مجلس يضم دولهم وقاموا بالتوقيع على النظام الأساسي للمجلس، الذي يهدف إلى تطوير التعاون بين الدول وتنمية علاقاتها وتحقيق التنسيق والتكامل والترابط وتعميق وتوثيق الروابط والصلات القائمة بين شعوبها في مختلف المجالات، وأن تكون مدينة الرياض بالمملكة العربية السعودية مقراً دائماً للمجلس. وتلبية لدعوة الشيخ زايد بن سلطان -طيَّب الله ثراه- تم في أبوظبي في 25 و26 مايو 1981، عقد الاجتماع الأول للمجلس الأعلى لدولة مجلس التعاون لدول الخليج العربية.

أهمية مجلس التعاون

إدراكاً لحتمية التكامل الاقتصادي بين دولهم والاندماج الاجتماعي بين شعوبهم ونظراً إلى ظروف المنطقة السياسية والإقليمية، فقد صرح الشيخ زايد - رحمه الله- قائلاً "إن القيمة الحقيقية لمجلس التعاون تتجسد أساساً في كونه تتويجاً لفترة طويلة من الجهود المتصلة والمخلصة، عبر السنوات الماضية، من دول المنطقة لبلورة أوجه التعاون والتنسيق فيما بينها وتثبيتها وتعزيزها".

وقد احتضنت أبوظبي في مايو 1981 مؤتمر القمة الأول لدول الخليج العربية الست، فكان أول مؤتمر قمة خليجية، وحضر المؤتمر الأمين العام لجامعة الدول العربية، والأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي.

بعد المراحل الأولية من إنشاء مجلس التعاون، انبثقت منه لجان لتنسيق أوجه التعاون بين دول المجلس، منها لجنة التخطيط الاقتصادي والاجتماعي ولجنة التعاون المالي والاقتصادي والتجاري ولجنة التعاون الصناعي ولجنة النفط ولجنة الخدمات الاجتماعية والثقافية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رحبت الدول العربية والأجنبية بقيام مجلس التعاون، كما رحبت الجامعة العربية ومنظمة المؤتمر الإسلامي. ولعل أبرز المتغيرات التي أدت إلى قيام مجلس التعاون الخليجي هي:

1- احتلال قضايا أمن الخليج الصدارة في أولويات السياسة الخارجية لدول الخليج العربي، خاصة في أعقاب الخطاب العدائي لعدد من قادة الثورة الإيرانية واندلاع الحرب العراقية – الإيرانية، والغزو السوفيتي لأفغانستان، الأمر الذي ولد رغبة قوية لدى الدول الست في تحقيق الأمن الذاتي لمنطقة الخليج العربية وإبعادها عن صراعات القوى العظمى في إطار منظومة تعاونية.

2- التماثل في النظم السياسية والأوضاع الاقتصادية والعوامل الثقافية والاجتماعية المشتركة.

3- الاعتبارات الجغرافية والروابط التاريخية بين دول مجلس التعاون.

4- الموقع الاستراتيجي وامتلاكهم لأكبر مخزون عالمي من النفط والتغيرات في العلاقات الاقتصادية العالمية التي نتجت عن انتقال السيادة النفطية من الشركات العالمية إلى الدول المنتجة في أعقاب حرب أكتوبر 1973م.

5- الأخطار المشتركة التي تهدد المنطقة، سواء أكانت إقليمية أم دولية.

6- الرغبة في تجنب ازدواج المشروعات الصناعية وإيجاد سوق مشتركة لاستيعاب منتجاتهم الصناعية.

7- إن أحد أهم الأهداف لقيام مجلس التعاون الخليجي، الحفاظ على الهوية العربية والخليجية للمنطقة، وذلك في ظل التزاحم الاقتصادي الذي فرض استجلاب عمالة تزيد عن عدد السكان الأصلين بنسبة كبيرة، هذه العمالة الوافدة والقادمة بثقافتها وعاداتها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الهوية العربية
بين التحدي والاستجابة

مع سقوط غرناطة عام 1492 اكتمل سقوط الحضارة العربية الإسلامية وسقط معها الأمن العربي، كما أسلفنا، باحتلال البرتغاليين لمنطقة الخليج بعد ذلك بثلاثة عقود أي عام 1522، ومع نهاية القرن التاسع عشر، بدأ عصر النهضة العربية الحديثة انطلاقاً من بلاد الشام، وامتدت من هناك إلى مصر، ثم ما لبث إشعاعها أن وصل إلى شبه الجزيرة العربية، وإلى الإمارات العربية كما سبق وذكرنا. وشهد القرن العشرون كذلك استقلال الأقطار العربية، وكان آخرها استقلال الإمارات 1971. إذن كما تزامن تساقط حضارة الأمة تزامنت نهضتها وهذه الظاهرة هي الأبرز بين ظواهر وحدة الأمة وهويتها. فوحدة الأمة هي وحدة الثقافة والمصير.

التحدي والاستجابة

في نهاية القرن التاسع عشر، كانت الإمبراطورية العثمانية تعاني سكرات الموت، وكان قد أُطلق عليها اسم "الرجل المريض" ولم تحافظ على استمرارها إلا بفضل العناية الفائقة التي أحاطتها بها الدول الأوروبية خشية اندلا ع الحروب فيما بينها على الإرث، وبمحاولة لإنقاذ الدولة العثمانية، أسست مجموعة من الضباط الأتراك جمعية الاتحاد والترقي، وحينما استلمت هذه الجمعية الحكم، رسمت سياسة تتريك الشعوب التابعة لها.

وكانت الدولة العثمانية حتى ذلك التاريخ تتمتع بولاء السنة من رعاياها الذين يشعرون نحوها بارتباط ديني مذهبي، أما الشيعة وبقية المجموعات المذهبية والدينية، فكانت، ومنذ احتلال العثمانيين للبلدان العربية، تقوم بعمليات تمرد وثورات للتخلص من سلطتها. وكانت المناطق العربية التابعة لها تعاني حالة تخلف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شديد، وتعيش في ظل جهل شبه تام. ولا يُستثنى من ذلك إلا مسيحيو جبال لبنان، إذ سمح نظام الامتيازات الأجنبية الذي كانت الدولة العثمانية قد أعطته منذ زمن مبكر لفرنسا، بالاستفادة من امتيازاتها لترسل بعثات تبشيرية وتعليمية لتعليم مسيحيي سوريا وإيجاد موطئ قدم فيها، وقد تركز عمل هذه المدارس والإرساليات في جبال لبنان "مدخل الشرق وقلعة سورية" حسب تعبير استراتيجيي الغرب في القرن التاسع عشر.

لقد برز الكثير من المفكرين الداعين إلى بعث الهوية والقومية العربية، كرد على تحدي التتريك، الذي كان الاستياء منه عمّ مجمل الطوائف، وانضم إلى هذه الدعوة نُخَبٌ من المثقفين من مختلف الأديان والمذاهب، وبذلك ظهرت حركة القومية العربية بوجه محاولات التتريك، وقد هاجر عدد من المفكرين إلى مصر هرباً من اضطهاد العثمانيين، وأنشؤوا هناك الصحف والمجلات، مثل الأهرام والمقطم ومجلة المقتطف، وغيرها مما قدموه من الإبداعات الأدبية التي تحيي التراث العربي والهوية العربية.

الهوية والخطر السيكولوجي والأيديولوجي

حمل العرب في القرن السابع الميلادي رسالة الإسلام ونشروها في مشارق الأرض ومغاربها، وأقاموا حضارة يعترف كل المؤرخين الثقاة والمستنيرين بأنها كانت أزهى حضارة في التاريخ على الصعد الاجتماعية والإنسانية والمعرفية كافة، وكانوا "أرحم الفاتحين".

ولكن شأنها شأن كل الحضارات تمر بمراحل الاندفاع وقوة العطاء، ثم لا تلبث أن تصل إلى مرحلة النضج والاستقرار، ثم تصل إلى مرحلة الشيخوخة والوهن فتعجز عن العطاء، وحال الحضارة كحال مراحل حياة الإنسان بحيوية الطفولة، ثم النضج، ثم وهن الشيخوخة وعجزها. وتبقى الأمة في حالة العجز عن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العطاء وتبهت معالم هويتها، لتتهيأ الظروف الموضوعية لانبعاثها وعودتها إلى العطاء. وحينما تبدأ مرحلة الانبعاث تبدأ من مكان معين وتتسع "تدريجياً بحلقات لتبلغ المدى الاجتماعي الذي يعاني المشكلة، وهو الأمة، نظراً إلى وحدة موقع الأمة السيكولوجي والأيديولوجي، على طريقة الحجر الذي يُرمى في وسط بركة ماء، بكل أوجه هذا التشبيه"[137].

على هذه القاعدة انتشرت الحضارة الإسلامية بحيوية كبيرة فتخطت حدود الأمة، ثم مرت بمرحلة عطاء واستقرار، ثم حلّ بها العجز، فكان سقوطها التدريجي على مدى قرنين حتى وهنت وتلاشى فعلها الإيجابي في الحضارة على مدى أربعة قرون، بدايةً من القرن السادس عشر وحتى نهاية القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، ثم أخذت حركة النهضة التي بدأت في بلاد الشام تتسع لتصل إلى مصر ثم إلى شاطئ الأطلسي وشرقاً وجنوباً إلى العراق وشبه الجزيرة العربية والسودان، ومازالت في مراحل تكونها الجديدة. وحدة الحال والمصير هذه، هي دليل على وحدة الأمة، وفي مراحل عجزها وتخلفها نمت لدى شعوبها سيكولوجية واهنة، ورتابة وشلل أيديولوجيان. وحينما بدأت نهضتها، تفتح نظرها على عالم شديد التقدم، فكان حالها كحال الغائب عن الوعي لأمد طويل، صحا ليجد العالم قد تغير وتطور تطوراً مذهلاً، فأصيب بحالة من الانبهار والدهشة، رافقتها حالة من عدم الثقة بالذات، لتفوُّق غيرها عليها، كمريض يحتاج إلى مرحلة نقاهة بعد مرض طويل ليستعيد قيم العمل والإنتاج والثقة بقدرته على اللحاق بهذا التقدم، وكذلك ليستعيد ثقته بنفسه وبقدرته على العطاء.

التحول وخصوصية الهوية الإماراتية

وإذا كانت كل المجتمعات العربية من المحيط إلى الخليج، قد واجهت حالة الانبهار والدهشة وانعدام الثقة بقدراتها الذاتية واستنكافها عن تسليم زمام أمورها في

(137) الإنسان والحضارة، مرجع مذكور آنفاً ص 103.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عالم شديد التطور، وأدركت حاجتها إلى التعليم، فاتجهت إلى تقليد المجتمعات الغربية المتفرقة في طرائق معاشها ونظمها الاجتماعية والسياسية، واقتباس الحلول لمشكلاتها بتقليد الغرب، فإن ذلك أولاً، قد تم في مجتمع عربي تلو الآخر تبعاً لزمن التحاقه بركب الحضارة الحديثة في زمن بلغت فيه سرعة التحول حدّاً يُعجز بُناتها الغربيين عن التأقلم، بعد أن أحست بأنها تتعرض لضياع هويتها بهذا الانتقال السريع، وشعرت هذه البلدان كذلك بأن الحلول التي وضعها علماء الغرب للكثير من مشكلاتهم الاجتماعية، على أهميتها، لا تناسب تماماً حالة العرب "فأفضل الأدوية هو ما يناسب حالة المريض" فصارت تبحث عن هويتها لتدرك حقيقة مشكلاتها وتضع العلاج لها، وتبين لها أن الوصفات الجاهزة غير مُجدية لأنها لم توضع لها، وهل نستغرب إن لم ينفع دواء للمعدة كسراً في العظم؟! إن معالجة دوائنا لا تتم إلا بالعودة إلى ذاتنا لمعرفة دائنا فنبتكر له الدواء الناجع، وهويتنا تؤكد أننا لسنا عاجزين عن مثل هذه المهمة، بالإضافة إلى أن العلوم التي تطورت عبر آلاف السنين، تستطيع أخي العربي الحصول على درجة الدكتوراه في كل فرع من فروعها، بالمدة نفسها التي يحصل عليها الإنسان الغربي، وتكون حينئذ أقدر على إدارة أمرك بنفسك أفضل من أن تديرها لك خبرات أجنبية، لأن هؤلاء درسوا داءً غير دائك ويصفون دواء بالتالي لغير هذا الداء، ولأنك أيضاً أحرص على نفسك من الآخرين، ولأنك ثالثاً تعرف أيديولوجية مجتمعك وسيكولوجيته، وبالتالي تعرف كيف تتعامل مع حالته "وما حكَّ جلدك مثل ظفرك".

أما خصوصية حال الإمارات، فإنها تواجه تحولين كبيرين جداً في آنٍ، وهما: الانتقال من حالة البداوة، فضلاً عن حالة التخلف التي تشارك بها أمتها العربية، فتعمل الدوائر الغربية تحت شعار الديمقراطية والحداثة والعولمة إلى التشكيك بطبيعة الأنظمة العربية، وإلى استبدالها بالديمقراطية الغربية والعولمة "نهاية التاريخ"، فهل يناسب ذلك المرحلة التحولية التي نعيشها؟ وهل إن إسلامنا حقاً مصدر للإرهاب،... إلخ، وهل دساتيرهم أكثر ملائمة لمجتمعنا، ولا سيما في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مرحلته التحولية من دساتيرنا، وهل فوكوياما أو غيره من المنظرين المهووسين أدرى بأحوالنا من الشيخ زايد -رحمه الله- وإخوانه الذين أسسوا الاتحاد وأقروا دستوره؟ أو من مفكرينا ومثقفينا الذين يعيشون آلام وآمال شعبنا؟ أم أنهم يريدون إلباسنا جلباباً غير جلبابنا وجلداً غير جلدنا فنضيع وتضيع هويتنا معنا؟

وفي وقت تسارعت وتيرة التغيير فيه بصورة مذهلة في كل مناحي الحياة، وفي عصر تحولات اقتصادية سعت إلى العولمة، وإن تكن الآن لحظة ترقب، لمعرفة توجهات ما بعد أزمة النظام الاقتصادي العالمي. وبالإضافة إلى المشكلات التي يواجهها في ظل التسارع، فإن المجتمع الإماراتي يواجه خللاً سكانياً، إذا شكل خطراً على الهوية، فإنه يشكل خطراً مضاعفاً على المصير. وفي مثل حال دولة الإمارات، كدولة ناشئة تعاني نقصاً في السكان، يصبح العمل الدؤوب مسؤولية الأجيال القادمة والراهنة لترسيخ وجود الدولة وإرساء قواعد بنيانها.

القيمة الاجتماعية والأخلاقية للعمل [138]

الأخلاق في أساسها قياس اجتماعي، والميزة الكبرى للإنسان التي تعطيه امتياز وجوده، وقدسية هذا الوجود، بكونه خلق على أحسن تكوين، تكمن بأنه صانع للحضارة، فهو على خلاف كل المخلوقات الأخرى، يطور ما تقدمه الطبيعة فيستنبت الأرض ويطور منتجاتها، ويستخرج ما فيها من موارد يعالجها لتلبي أغراضه وتخدم غاياته. ويعمل على دراسة قوانين هذه الطبيعة ليستفيد من معارفه في تحسين شروط حياته وليسخر الطبيعة لتحقيق إرادته، فكل فرد منا منذ ساعة ولادته أو قبل ذلك يستفيد من نتاج هذه الحضارة التي هي حصيلة تجارب الإنسان وعمله وإبداعه، وبالتالي فإن أي إنسان يستحق صفته الإنسانية، بمقدار ما يسهم في هذه الحضارة بإبداعه وعمله لإعادة إنتاجها وتطويرها.

---

(138) الإنسان والحضارة، مصدر سابق، ص 114-116.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وإذا كان الفرد يكتسب قيمته الإنسانية من خلال عمله الذي يخدم فيه نفسه ثم مجتمعه واستكمالاً وطنه والبشرية بأسرها؛ أي بمقدار إسهاماته في عجلة الإنتاج والتنظيم الاجتماعي يعطي الحضارة الإنسانية كما يستفيد منها، فإن صفته الإنسانية هذه يفقدها ليقترب من صفة الحيوانية كلما زادت اتكاليته وقلّت فعاليته فعاش عالة على الإنتاج والإبداع الإنساني من دون أن يعطيه.

وإذا كانت هذه هي القيمة الأخلاقية والإنسانية المطلقة للعمل، فإن فائدته الاجتماعية والوطنية تكون بانضمام ناتج عمل الفرد إلى ناتج عمل الآخرين في مجتمعه ووطنه، ليشكل مجموع هذا النتاج في حده الأدنى ما يمكّن المجتمع من العيش، وفي حدوده العليا ما يرفع حياة المجتمع والوطن إلى درجة الرفاه؛ ويكفي للدلالة على قيمة العمل أن نتصور ما يمكن أن يحدث إذا ما امتنع كل الناس عن العمل، ألا يؤدي ذلك، في ظل تزايد عدد البشر، إلى نقص في الموارد يؤدي إلى الاقتتال للحصول على ما يسد الرمق؟ فضلاً عن انهيار الحضارة بأسرها، إذن، فأمن المجتمعات واستقرارها، وبالتالي رفاهيتها تتوقف على عمل أفرادها وإنتاجهم وطريقة توزيعها لهذا الناتج الاجتماعي.

والتطور التقني والروحي كانا على مدى التاريخ من الأسباب التي تجعل مجتمعاً أو دولة تسيطر على مجتمعات أخرى ودول أخرى، الإنتاج هو بالتالي وسيلة اللحاق بركب العصر وهو الوسيلة اللازمة لتحقيق الاستقلال وتوفير الأمن الخارجي للدول والمجتمعات.

إن العمل لا يفرض صبغة قيمة أخلاقية على المجتمع فحسب، بل أيضاً يعطيه هويته العامة لجهة نوع العمل السائد في المجتمع، كأن تقول: مجتمع زراعي أو صناعي أو تجاري؛ ليصبح العمل جزءاً مرافقاً للهوية الوطنية العامة، وبالنظر إلى مجتمع الإمارات نرى أنه كان في السابق مجتمعاً بدوياً، ما يمنحنا صورة، وإن كانت جزئية، عن نوعية العمل الذي يمارسه أفراد المجتمع، ويترك انطباعاً حول القيم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الاجتماعية السائدة، وكذلك حين نصف مجتمعاً ما بأنه متخلف أو متقدم، فإن هذه الهوية تحدد طابع العمل، ففي الأول يدوي شاق وشبه بدائي، بينما في الثاني يعتمد التقنيات بشكل واسع.

وبالنظر إلى التحول الوظيفي الذي فرضه اكتشاف النفط نجد تغييراً عاماً أصاب الهوية الاجتماعية للمجتمع الإماراتي، فتحول من البداوة إلى مجتمع قيد النمو والبناء والتطور، وغدا المجتمع يعتمد في حياته على البناء العمراني، إضافة إلى استخدام التقنيات الحديثة والمتطورة.

إن المجتمعات تحتاج في توفير احتياجاتها واستمرار حياتها إلى مختلف أنواع الأعمال، فكل إنسان من مكانه ومن خلال العمل الذي يقوم به يوفر حاجة اجتماعية لا تنتظم شؤون المجتمع دون وجودها، وعلى ذلك فكل الأعمال متساوية في قيمتها الاجتماعية، طالما أنها تغطي حاجة اجتماعية، وتبقى قيمة الإنسان الحقيقية في مدى إتقانه لعمله، فإذا لم يقم مثلاً عامل التنظيفات بواجبه، فلن يستطيع كل الأطباء أن يعالجوا الأمراض التي يمكن أن تنجم عن القذارة، فعامل التنظيفات إذاً تترتب على عمله فوائد للمجتمع يعجز الطبيب عن تقديمها، وقس على ذلك. إذاً، فكل الأعمال شريفة بالمقدار نفسه، طالما أنها تلبي حاجة اجتماعية، وعامل التنظيفات الذي يؤدي عمله بإتقان لأشرف من طبيب يهمل واجبه ولا يقوم بمسؤولياته، وهذا يعني أن كل إنسان يستحق احترام المجتمع بقدر صدقه وإخلاصه بتأدية واجبه وليس بنوع العمل الذي يمارسه، طالما أنه يمارس عملاً يحتاجه المجتمع، وإتقان العمل كواجب أخلاقي نحو المجتمع والإنسانية يتطلب المعرفة، ولا سيما بعد التطور العلمي الذي وصلت إليه الحضارة الحديثة. والمجتمعات تبقى عرضة لكل أنواع الأخطار إذا لم تلحق بركب الحضارة، ويقدم لنا التاريخ أمثلة كثيرة عن شعوب انقرضت لأنها لم تستطع أن تواكب تطور الحضارة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الهوية العربية والمصير في تجربة تاريخية

"إن العالم العربي ليس بحاجة إلى أمة يسترشد بها"[139]

ذكرنا في الفصول السابقة أن العرب من المحيط إلى الخليج، خرج معظمهم في هجرات متوالية من شبه الجزيرة العربية، من فجر التاريخ حتى يومنا هذا، فحتى ماضٍ قريب، وقبل ظهور النفط وعوائده المالية التي مكنت العرب في شبه الجزيرة العربية من توفير شروط الاستقرار، كانت معظم مناطقها، ما عدا الزراعة الضيقة والتجارية منها تعيش حياة البداوة، واستمرت رافداً لمجموعات بشرية تخرج منها وتستوطن في محيطها الخصب، كما سبق وذكرنا.

ولكن ذلك لا يعني أن هذه البلاد يتميز سكانها بنقاء إثني، وإن كانت بعض شرائحها السكانية تعرف حتى يومنا هذا أنسابها، والمكان الذي هاجرت منه من شبه الجزيرة العربية، وكانت مجتمعاتها وحتى زمن قريب، مازالت تنقسم إلى حزبيتين عربيتين قديمتين هما القيسية واليمنية، هذه الحزبيات التي كانت سائدة منذ أيام الجاهلية. كما أن العشائر العربية الوافدة مع الفتح العربي- الإسلامي انضم كثير منها إلى بطونها التي كانت قد سبقتها في الخروج من شبه الجزيرة والاستقرار في محيطها.

ولكن هذه المجتمعات ومع الهجرة العربية- الإسلامية، اختلطت بعد هذا الخروج بالسكان المقيمين، الذين كان معظمهم من الهجرات السابقة، من كلدانية وبابلية وآشورية وكنعانية... إلخ، كذلك فإن أسرى الحروب التي خاضها المسلمون، وبفضل العقيدة الإسلامية، لم يتحولوا، كما كان الوضع قبل هذا الفتح، كلهم إلى عبيد، بل تحول معظمهم؛ بفضل تشجيع الإسلام على عتق الرقاب، إلى موالٍ، ما شكل نقلة في مجال كرامة الإنسان وتكريساً لحريته، واستمراراً للرسالة العربية، ومرحلة

(139) زايد والبناء الوطني، ص 150.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من مراحلها، ولكنه شكل كذلك خللاً ديموغرافياً، لم يصب في مصلحة العشائر الوافدة التي غدت الطبقة الحاكمة تشدها العصبية العربية أيام الدولة الأموية.

وثمة عامل آخر زاد في الخلل لغير مصلحة العشائر، هو أن الوطن العربي بمجمله ولا سيما في مصر وبلاد الشام كونه في موقع الوسط بين العالمين الشرقي والغربي، كان قبلة الحملات العسكرية المتوالية للسيطرة على الطرق التجارية، وكذلك، فإن كثيراً من حواضره كانت تستقطب تجاراً وجاليات من الشرق والغرب للإقامة فيها، وهي قاعدة تبقى سارية على مر القرون، فكل المدن التجارية عبر التاريخ يتنوع فيها السكان والجنسيات.

ولكن هذا الخليط السكاني والإثني على مر قرون ذاب في محيطه العربي، وغدا جزءاً من هذه المجتمعات، ويحمل هويتها.

وإذا كان هذا الخلل الديموغرافي قد بلغ أحياناً معدلات عالية، غير أن ما يحدّ من مخاطره على الهوية أنه كان يتركز في المدن، فتبقى الكثافة السكانية في الأرياف الضامن الأكبر لغلبة الهوية الوطنية، فالعمق الجغرافي لسيادة الهوية، ودرجة الارتباط السكاني والاقتصادي الحيوي والتنسيق السياسي والأمني مع هذا العمق، هو الضمانة الأولى للمخاطر التي يمكن أن تحيق بهوية المدن التجارية المختلطة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الباب الثالث

الفصـل السادس

الهويـة الإماراتيـة بين اندفاعيـة الصحوة وخطـر الـوأد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الهوية والهواجس المشروعة

استهل د. حسين غباش مقاربته لهذا المشروع بقوله: "مع إعلان دولة الإمارات العربية على الخريطة السياسية في ديسمبر 1971، كانت أول التحديات التي واجهتها، هو كيف يُبنى على هذه الأرض، الصغيرة والثرية، وطن متماسك وآمن لأهله؟! وكيف يمكن لهذا البلد الصغير أن ينمو وينهض دون أن يكون ضحية تنميته وثرائه؟"[140].

بهذه الكلمات عبّر الدكتور غباش ليس عن هاجس ساوره واقتصر عليه، إنما هو الهاجس الذي شغل كل مواطن إماراتي مخلص وواعٍ لا فرق بين مسؤول في أعلى درجات السلطة والمواطن المنزوي في بيته والبعيد عن المشاركة في الشأن العام، الذي لم تفقده الثروة وهواجس زيادتها والبحبوحة صوابه، ولا أعشاه وهج الذهب وبهرجة الحياة الرغيدة والحديثة، وشغله عن التفكير في وجه هذه الطفرة السلبي ومخاطرها على حاضر الجيل الإماراتي ومستقبله، فلا غرو من أن يشغل هذا الهاجس اهتمام المثقفين الإماراتيين، والمفكرين والمثقفين العروبيين الذين لمست من خلال احتكاكي بهم ومن إسهاماتهم في المنتديات أو المقالات، أن هذا الأمر يمثل هماً من همومهم، تَحُول خشيتُهم من إثارة بعض الحساسيات بينهم وبين طرحه وإثارته، باعتبار الخليج وأهله ليسا جزءاً من كيانهم القومي وحسب، إنما الإمارات بالنسبة إلى المتبصرين بالأمور منهم جزءاً من أمنهم القومي وسلامة أوطانهم.

وإذا كانت سياسات التنمية في الإمارات، من النواحي العمرانية مبهرة في نجاحها، وسجلت تقدماً ملحوظاً كذلك في مجالَي التنمية الإنسانية والاجتماعية، وإن يكن الإنسان والمجتمع يحتاجان إلى التنمية المستدامة، ولا يمكن الوصول بهما

(140) د. حسين غباش، الإمارات والمستقبل، وقضايا راهنة، دار الفارابي بيروت 2008 ص 9.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى حد التخمة كما حدث في المجال العمراني، فإن الحفاظ على هذه المكتسبات فضلاً عن متابعتها يتهدده محظور تجاوز حدود الخطر المحتمل الذي يجب استدراكه، إلى مرحلة الخطر الراهن والملحّ، الذي يستوجب وضعه في غرفة العناية الفائقة والمباشرة الفورية في معالجته بحكمة وشجاعة في الفكر والعمل، فالعلاج ينفع ما دام الجسم حياً، والندم لم يكن يوماً علاجاً.

وتعريف الوطن بأنه أرض وشعب هو تعريف مختصر وناقص كما تُعلّمنا التجارب التاريخية، وكما تَمثُل أمامنا أمثلة صارخة لشعوب مشردة أو مذابة وليست مهمشة في أوطانها وحسب، وهل ثمة حاجة إلى التذكير بمصير الهنود الحمر في القارة الأمريكية، ولا سيما في الولايات المتحدة وغيرها من بلدان، فالتعريف الكامل للوطن هو: شعب وأرض وهوية، ذلك ما يحفظ وحدة الشعب ويجعلها متصلة ويحفظ الأرض، وحفظ الأرض لا يكون إلا بالسيادة عليها، وهو ما أوافق د. حسين غباش تماماً عليه.

صحيح أن الصهيونية من العقائد التي تكاد تكون فريدة بوحشيتها، ولكن هل يجب أن نذكّر بما حل بالفلسطينيين حينما فقدت الأرض هويتها، وما يعانيه المهَجَّر منهم والمقيم، وهل رحم الثراء من كانوا أثرياء في أوطانهم حينما فقدت الأرض هويتها؟

إذن فمسألة الهوية هي مسألة أمن قومي بامتياز، والمسائل المتعلقة بها لا تجد حلها الأمثل إلا بإجراءات تنبع من صلب الهوية.

الهوية والخطر الديموغرافي

ذكرنا في الأبواب السابقة، كيف كانت الإمارات العربية قبل الاحتلال البرتغالي محطة رئيسية من محطات الاتصال بين الشرق والغرب، وكيف كانت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مدنها زاهرة، وديارها عامرة، برغم ضآلة مواردها الطبيعية في تلك الأيام، وكيف كانت أساطيلها تجوب البحار، حاملة ما يأتيها من سلع من شرقها عبر القفار، أو من شمالها من بلاد ما بين النهرين بالسفن البحرية أو القوافل البرية، إنها عبقرية المكان، التي فرضت نفسها من قدم الأزمان، إنه الانبعاث بعد وأد كان يداهمها مع كل تبدل في الظروف الإقليمية والدولية ولا يلبث أن يليه ولادة جديدة، وبعد توافر الظروف الموضوعية والقيادة الرشيدة والحكيمة التي تستفيد من عبقرية المكان لتعيد بناء الوطن والإنسان.

وفي كل مرحلة من مراحل تطور الإمارات، وبحكم دورها التجاري كانت لابد من أن تستقطب أعداداً كبيرة من التجار الأجانب والعمالة الأجنبية، لإيفاء احتياجات نهضتها شأنها في ذلك شأن كل المدن التجارية في العالم، مع فارق هو أنها لقسوة بيئتها الطبيعية، فإن تعدادها السكاني كان يشكل دوماً نقطة ضعف لها، ولا يصبح صارخاً ومهدداً إلا في فترات ازدهارها.

وفي مرحلة النهوض الحديث، وعلى الرغم من ظهور النفط والغاز واستخراجهما في مرحلة مبكرة من القرن العشرين، وهو العامل المساعد على النهضة، فإن عملية الانبعاث هذه لم تتم إلا لتزامن عاملين موضوعيين تمما شروطها، أولهما خروج الاستعمار البريطاني وتراجع قدرته على رمي الفتن وحماية مثيريها، وثانيهما حكمة قادته، وعلى رأسهم والمغلِّب للرأي الحكيم بين قادة الإمارات الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان -رحمه الله- الذي استطاع أن يغلِّب الحكمة ويقود المسيرة، وتبرز مع نظرائه من المشايخ الأفاضل في باقي الإمارات، سمة الحكمة التي تمثل إحدى الميزات الحميدة التي تميز أهل البادية كما سبق ونوَّهنا.

وجاء الاتحاد، في وقت كان المناخ العربي العام عام 1970 يميل إلى التقهقر والتراجع بعد نكسة حزيران 1967 وتداعياتها، والاستغلال الاستعماري

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لها على جميع الصعد، الذي غلّب روح انعدام الثقة بالنفس وروّج التشرذم لدى العرب، فكان هذا الاتحاد الحكيم نقطة مشرقة ووهجاً مبعثاً للأمل وإنجازاً لا لشعب الإمارات وحده، إنما للشعوب العربية كلها، ومثالاً يحتذى به في نظر عدد كبير من قادة الفكر والناشطين السياسيين العرب، في تغليب الحكمة لاستغلال مكامن القوة في مجتمعاتنا، والتسامي على الخلافات وأسباب الفرقة، فشكلت هذه الوحدة نبتة تبشر بنموها وتحولها إلى شجرة، في الوطنية والحكمة والأخلاق، وهي صفات اشتهر فيها العرب بتاريخهم، وما أمس حاجة حاضرنا إليها لتكون الأساس والركيزة لمستقبل آمن وكريم.

وعلى قاعدة أن لكل ظاهرة وجهين إيجابي وسلبي، فإن اجتماع الشروط الثلاثة، عبقرية المكان، وحكمة القيادة، وتوافر الإمكانات بالدخل الذي أوجده البترول، أدى إلى حركة ازدهار مذهلة بنمائها وقياسية في سرعتها، ما استجلب أعداداً كبيرة من البشر من كل أنحاء الأرض للاستفادة مما أتاحته هذه النهضة الهائلة، ما أوجد خللاً عميقاً في التركيبة السكانية للإمارات، تشكل خطراً سرطانياً على مستقبل الهوية، أي على مستقبل الوطن وسكانه الأصليين. فلا وطن من دون هوية، ولا مستقبل لشعب من دون وطن.

الواقع السكاني [141]

وبنظرة سريعة إلى طبيعة هذا الخطر يكفي أن نذكر ما أعلنته معالي الشيخة لبنى بنت خالد القاسمي وزيرة التجارة الخارجية أن "عدد سكان الإمارات بلغ 4.104.695 نسمة في ديسمبر 2005 بنسبة زيادة قدرها 74.8% على عدد السكان عام 1995، وقد بلغ عدد إجمالي المواطنين في الدولة 824.921

(141) الأرقام الواردة في الصفحات التالية هي من إحصاء نشرته الشيخة لبنى بنت خالد القاسمي، وزيرة التجارة الخارجية عام 2005.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نسمة بنسبة 21.9% من إجمالي عدد السكان الذين شملهم الإحصاء ليلة التعداد وما نسبته 20.1% من إجمالي عدد السكان في الدولة" ومشيرة كذلك إلى "أن عدد السكان الذين شملهم الإحصاء في الدولة حسب لحظة الإسناد الزمني وهي ليلة السادس من ديسمبر 2005 بلغ 3.169.080 نسمة" وأن "عملية الإحصاء لم تشمل عدداً من الفئات يبلغ تعدادها 335.615 نسمة وهم من غير المواطنين" ولا تشمل هذه الأرقام الزائرين للدولة.

وفي عرض قدمه السيد راشد السويدي[142] للنتائج الأولية لهذا التعداد، قال "إن إجمالي عدد السكان الذي شملهم الإحصاء ليلة التعداد في الدولة بلغ 3.769.080 نسمة، وبلغ إجمالي عدد السكان الذكور 2.547.043 بنسبة 67.6% من إجمالي السكان الذين شملهم العد ليلة التعداد. وبلغ إجمالي عدد السكان الإناث 1.222.037 بنسبة 32.4% من إجمالي السكان الذين شملهم العد ليلة التعداد. كما بلغ إجمالي عدد المواطنين في الدولة 824921 بنسبة 21.9% من إجمالي السكان الذين شملهم العد ليلة التعداد، وبنسبة 20.1% من إجمالي عدد السكان في الدولة.

بلغ إجمالي عدد المواطنين الذكور 418.057 بنسبة 50.7% من إجمالي عدد المواطنين. وبلغ إجمالي عدد المواطنات الإناث 406.864 بنسبة 49.3% من إجمالي عدد المواطنين.

وأوضح أن إجمالي عدد الوافدين الذين شملهم العد بلغ 2.944.159 بنسبة 78.1% من إجمالي السكان الذين شملهم العد. أما عدد الوافدين الإجمالي فقد بلغ 3.279.774 نسمة بنسبة 79.9% من إجمالي عدد السكان في الدولة، وبلغ إجمالي عدد الوافدين الذكور الذين شملهم العد 2.128.986 بنسبة

(142) راشد السويدي، وكيل وزارة الاقتصاد لشؤون التخطيط والإحصاء، نفسه ص 4.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

72.3%، وبلغ إجمالي عدد الوافدات من الإناث اللواتي شملهن العد 815.173 بنسبة 27.7%.

وبلغ سكان الدولة 4.229.000 مليون نسمة، حسب إحصاء عام 2006، ويشكل المواطنون الإماراتيون قرابة 20% من السكان، ومعظم العدد المتبقي من الآسيويين، والأفارقة والأوروبيين. وتستحوذ إمارتا أبوظبي ودبي على أكثر من ثلثي (67%) إجمالي سكان البلاد. وتميل كثافة السكان بقوة نحو المناطق المدنية، حيث تستضيف المدن 82% من المقيمين في الدولة.

وبتلخيص إجمالي للوضع السكاني في الإمارات لعام 2005 نورد ما يلي:

عدد السكان: 4.1 مليون (تعداد 2005).

نسبة المواطنين: 21.9% من إجمالي عدد السكان (3.8 مليون).

نسبة الوافدين: 78.1% من إجمالي التعداد السكاني.

الذكور بين المواطنين: 50.7%.

الإناث بين المواطنين: 49.3%.

المواطنون دون الـ 20 عاماً: 51.1%.

اللغة الرسمية: العربية.

الديانة: الإسلام، ويسمح بممارسة المعتقدات الدينية الأخرى.

معدل الولادة (تقديرات 2005): 18.78 مولود لكل 1000 نسمة.

معدل الوفيات (تقديرات 2005): 4.26 وفاة لكل 1000 نسمة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

متوسط العمر: 78.3 عاماً.

إجمالي معدل الخصوبة (2000-2005): 2.5 (ولادة لكل امرأة).

معدل الوفيات تحت سن الخامسة (2004): 8 بالألف.

معدل وفيات المواليد الجدد (2004): 5.54 بالألف.

معدل وفيات الأطفال (2004): 7.7 بالألف.

معدل وفيات الأمومة (2004): 0.01 لكل 100 ألف.

معدل الأمية: 9%.

وهذا التعداد الذي أعلن نهاية عام 2005 كان التعداد الأول، الذي تلا سابقه منذ عشرة أعوام:

"ووفقاً للنتائج الأولية لتعداد السكان في الإمارات في ليلة السادس من ديسمبر (كانون الأول) الماضي 1995، فقد بلغ إجمالي عدد السكان من الذكور 2.5 مليون بنسبة 67% من إجمالي السكان بينهم 418 ألف مواطن، في حين أن عدد السكان من الإناث، بلغ 1.22 مليون نسمة وبنسبة 32% من الإجمالي، بينهم 406 آلاف مواطنة. ويقطن نحو 1.3 مليون نسمة في العاصمة أبوظبي، في حين حلت ثانياً دبي بـ 1.2 مليون نسمة، ثم على التوالي الشارقة 724 ألف نسمة، وعجمان 189 ألف نسمة، وأم القيوين 45 ألف نسمة، ورأس الخيمة 197 ألف نسمة، وأخيراً الفجيرة بـ 118 ألف نسمة فقط"[143].

(143) إحصاء عام 2005، مصدر سابق، ص 15.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جدول (1)

عدد سكان دولة الإمارات العربية المتحدة عام 2007

السكان POPULATION						
السكان حسب الإمارة POPULATION BY EMIRATE						
EMIRATE	2007	2006	*2005	*1995	*1985	الإمارة
Abu Dhabi	1493000	1430000	1399484	942463	566036	أبوظبي
Dubai	1478000	1372000	1321453	689420	370788	دبي
Sharjah	882000	821000	793573	402792	228317	الشارقة
Ajman	224000	212000	206997	121491	54546	عجمان
Umm Al-Quwain	52000	50000	49159	35361	19285	أم القيوين
Ras Al-Khaimah	222000	214000	210063	143334	96578	رأس الخيمة
Fujairah	137000	130000	125698	76180	43753	الفجيرة
Total	**4488000**	**4229000**	**4106427**	**2411041**	**1379303**	جملة الدولة

*Census Data(Dec.)

* بيانات تعداد (ديسمبر)

جدول (2)

التوزيع النسبي للسكان حسب الإمارة PERCENT DISTRIBUTION OF POPULATION BY EMIRATE						
EMIRATE	2007	2006	2005*	1995*	1985*	الإمارة
	%	%	%	%	%	
Abu Dhabi	33.27	33.81	34.08	39.09	41.04	أبوظبي
Dubai	32.93	32.44	32.18	28.59	26.88	دبي
Sharjah	19.65	19.42	19.33	16.71	16.55	الشارقة
Ajman	4.99	5.01	5.04	5.04	3.95	عجمان
Umm Al-Quwain	1.16	1.18	1.20	1.47	1.40	أم القيوين
Ras Al-Khaimah	4.95	5.06	5.11	5.94	7.00	رأس الخيمة
Fujairah	3.05	3.08	3.06	3.16	3.17	الفجيرة
Total	**100**	**100**	**100**	**100**	**100**	جملة

*Census Data(Dec.)

* بيانات تعداد (ديسمبر)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد ردت الشيخة لبنى القاسمي لـ "الشرق الأوسط": "لا توجد خطط حكومية لتعديل التركيبة السكانية[144] ويرى كثير من الباحثين الاجتماعيين أن المعطيات تشير إلى أن الخلل السكاني سيستمر ولا يبدو أنه سيتوقف قريباً. كما أن نسبة المواطنين ستتراجع يوماً بعد يوم وستتناقص سنة بعد سنة، ولا يبدو من المبالغة توقع أن نسبة المواطنين ستصل بحدود عام 2010 إلى 10% فقط، أما عام 2020 فإن نسبة المواطنين من إجمالي سكان الإمارات ربما لن تزيد على 5%، وإن صحت هذه التوقعات السكانية أو لم تصح، فإن الإمارات هي أمام مأزق حقيقي"[145].

وإذا ما راقبنا طفرة الازدياد السكاني (انظر الجدول التالي) وجدنا أنها رافقت طفرة النماء الاقتصادي، وبلغت ذروتها عام 2005، ففي حين ارتفع عدد السكان ما بين عامي 1985 و2005 من 1.379.303 إلى 4.106.427 أي ما نسبته 345.38% أي بمعدل سنوي يفوق 16% فإن العدد ارتفع بين سنتي 2005 و2007 من 4.106.427 إلى 4.488.000 أي بزيادة قدرها 381.573 نسمة أي بما يقل عن 2% سنوياً، ما يشير إلى خطأ التوقعات شديدة التشاؤم حول تناقص نسبة عدد المواطنين في الدولة ولا سيما إذا ما أخذنا في نظر الاعتبار انعكاسات الأزمة الاقتصادية العالمية الراهنة، على الاستثمارات وعدد الأجانب في دولة الإمارات.

طبيعة الخلل السكاني الراهن

من مراقبة نتائج إحصاءات عام 2007 وتحليلها، نجد أن عدد الذكور من غير المواطنين نحو 2.646.000 نسمة، بينما يبلغ عدد الإناث من غير المواطنين حوالي 978.000 نسمة، وإذا ما أخذنا في الاعتبار أن عدد الإناث غير

(144) التقرير الإحصائي عن عام 2005، مصدر سابق، ص 14.
(145) أ.د. محمد توفيق سعيد، ود. يوسف محمد شراب، مجتمع الإمارات الأصالة والمعاصرة، مكتبة الفلاح، الكويت 2005.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المواطنات يبلغ 4/10 أربعة أعشار عدد الذكور، وأن نسبة كبيرة منهن يعملن خادمات في المنازل، أي يعتبرن بحكم العازبات، من حيث أن عائلاتهن لا ترافقهن، بالإضافة إلى عدد العاملات في القطاعات الأخرى العازبات، فقد تتدنى نسبة النساء المقيمات إلى ما دون الـ 4/10 بكثير، وإذا كان عامل الاستقرار في المكان يستتبع وجود حياة عائلية، فمن النسب المدروسة أعلاه، يتبين لنا أن عدد العائلات الأجنبية المقيمة قليل نسبياً، وأن معظم المقيمين من الرجال والنساء غير المواطنين، هم عزاب يسعون وراء كسب الرزق لتمويل عائلاتهم في بلدانهم الأصلية، ولادخار الفائض للعودة به إلى أوطانهم، وأن وجودهم يعود إلى ارتفاع دخولهم في الإمارات ولتوفر سوق العمل واتساع مجالات الاستثمار العقاري، ومن المفترض أن هذه الأرقام كذلك، تتضمن العائلات التي مضى على إقامتها أوقات طويلة في الإمارات من البلوش و"البدون".

جدول (3)

السكان حسب فئات السن والجنسية والجنس 2007
Population by Age Group , Nationlity and Sex 2007

Total جملة			Non Citizens غير مواطنين			Citizens مواطنون			فئات السن
T. جملة	F. إناث	M. ذكور	T. جملة	F. إناث	M. ذكور	T. جملة	F. إناث	M. ذكور	
304902	147196	157706	192307	92440	99867	112595	54756	57839	0 - 4
290912	139412	151500	183988	87413	96575	106924	51999	54925	5 - 9
268177	127050	141127	158938	74387	84551	109239	52663	56576	10 - 14
249456	118753	130703	136268	63813	72455	113188	54940	58248	15 - 19
473105	174230	298875	364744	119015	245729	108361	55215	53146	20 - 24
728573	193125	535448	644302	150153	494149	84271	42972	41299	25 - 29
706268	163520	542748	651537	135863	515674	54731	27657	27074	30 - 34
551459	123575	427884	507853	101102	406751	43606	22473	21133	35 - 39
374763	85156	289607	342391	68090	274301	32372	17066	15306	40 - 44
246986	55460	191526	219528	41006	178522	27458	14454	13004	45 - 49
151602	34015	117587	130506	23639	106867	21096	10376	10720	50 - 54
72965	16976	55989	58090	10363	47727	14875	6613	8262	55 - 59
29496	9097	20399	18293	4357	13936	11203	4740	6463	60 - 64
15433	5615	9818	6428	2193	4235	9005	3422	5583	65-69
9990	4252	5738	3351	1438	1913	6639	2814	3825	70-74
4556	1951	2605	1583	691	892	2973	1260	1713	75-79
9357	4617	4740	3893	2037	1856	5464	2580	2884	80+
4488000	1404000	3084000	3624000	978000	2646000	864000	426000	438000	الجملة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعلى الرغم من أن نتائج هذا التحليل تشير إلى أن معظم الخلل السكاني ناتج عن عاملين عزّاب يرغبون في العودة إلى أوطانهم، فإن هذا الخلل الكبير على أي حال يمثل أخطاراً على الهوية؛ لذا سنتطرق هنا إلى الشقين الأمني والمعيشي تاركين الأخطار الاجتماعية على الهوية الإماراتية إلى القسم الثاني الاجتماعي من هذا الفصل.

ولكي نمضي قدماً في هذا التحليل نورد فيما يلي إحصاء أحدث من السابق لنستنتج منه تفاصيل هذا الخلل وتطوره، لكي نكمل الصورة قبل أن نبني عليها آراءنا واقتراحاتنا للمعالجة (انظر جدول رقم 3).

وقد قامت الدولة بجهد ملحوظ لتشخيص الداء في عمل مسحي للتركيبة السكانية حتى يمكن علاجه قبل أن يستفحل ويتعذر الحصول على الدواء، حيث قدمت إحصائية دقيقة تبعد عن التكهنات والتوقعات ولعل هذه الأرقام تكشف بوضوح عن المأزق الكبير الذي تعانيه الدولة الوطنية.

وتنبع خطورة التركيبة السكانية ليس في تأثيرها على الهوية فحسب، إنما تمتد إلى جوانب المواطنة وحقوقها، فضلاً عما تشكله من تهديد لسيادة الدولة الوطنية التي تخطت البيئة الجيوسياسية، والتطورات الدرامية في الاتصال، والنقل، والفضاء المفتوح، وبروز التكتلات الاقتصادية الكبرى، والشركات المتعددة الجنسيات، فضلاً عن بروز منظمات وهيئات غير حكومية، وجماعات مخالفة للدولة ومقاومة لسلطتها، وتضخم الجماعات الباحثة عن المكاسب المادية والمعنوية غير المشروعة، بمخالفتها لقانون الدولة بل والقوانين الدولية، كعصابات تجارة المخدرات وتجارة الأسلحة وغيرها من العصابات.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قد تقوض كل هذه العناصر سلطة الدولة الوطنية بسبب انقلاب علاقات القوى لمصلحة الأسواق العالمية، وفقدانها لمعنى السيادة سينصب بصورة مباشرة في النهاية على فقدان الهوية، حتى على فقدان السلطة الوطنية لا سمح الله، في حال حدوث كوارث أو تطورات سياسية عالمية غير متوقعة، أو في حال بروز أسباب داخلية قد تثير هذه العرقيات المختلفة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طابعاً أفكاراً وسلوكيات جديدة حكماً ستترك في المستقبل تأثيرات ما في العادات والتقاليد.

يتصف التراث الشعبي في الإمارات بأنه واقعي في الشكل والمضمون يخلو من الصور الخرافية والأسطورية، خلافاً لكثير من التراث عند الشعوب الأخرى، وضعه الآباء والأجداد ليخدم واقع حياة الإنسان ويلبي متطلباته.

من هنا فإن هذا المخزون التراثي الشعبي لو وظف وقدم بشكل موضوعي سيبث في الإنسان العديد من القيم والقدرات، والاعتماد على الميراث الشعبي الذي يملكه المجتمع يدفع باتجاه التنمية السياسية وترسيخ الاندماج ويمد الأفراد بالانتماء إلى الوطن الواحد ويقلل مشاعر الانتماء القبلية.

ومن أبرز التحديات التي تواجه مجتمعنا هو العثور على معادلة صحيحة توفق بين الأخذ من هذا التراث والانفتاح على التقدم المادي في العالم، لذا يجب علينا إيجاد علاقات أكثر ديناميكية بين عناصر التراث الشعبي والواقع المجتمعي خاصة في بعث القيم والمبادئ التراثية لجهة علاج تصدعات البنية الاجتماعية، وعلينا البحث في طرق ووسائل استخدام الموروث الشعبي أيضاً من أجل مزيد من الولاء الاتحادي والاندماج السياسي، والدفع إلى رؤية جديدة لهذه الوحدة وتأكيد الشخصية التاريخية له.

فالتراث هو الذي يجسد أرقى حالة من التماسك والشعور بالهوية ضمن الجماعة ومطابقته مع الأهداف المستقبلية لبناء كيان وحدوي ديمقراطي وإنساني.

والتراث الشعبي هو الخيط الرابط بين الماضي والحاضر والمستقبل، والخروج الكامل عليه يعني انفصاماً في الشخصية وفقداناً للذاكرة وضياعاً للحكمة المكتسبة والقدرة على الإبداع.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وحيث إن مبحث الهوية، على صلته الحميمة بالتراث الشعبي، لا يمكن أن نحمله ذاك الكم من المعلومات، فإني أحيل القارئ إلى كتابين من تأليفي:

1- التراث الشعبي في دولة الإمارات، عام 2001 وأعيد طبعه 2002-2003.

2- سوسولوجيا العادات والتقاليد لمرحلة الميلاد في مجتمع الإمارات- دار القراءة للجميع.

وإذا كانت ثورة التكنولوجيا والمعلومات وفورة النفط، قد جلبت تغيراً عميقاً في طرق الحياة وأساليبها ونمطها، وإذا كانت خاصة التطور لا تسمح ولا تتحمل العلاقات الاجتماعية والمفاهيم على ما هي عليه، فالمجتمعات تفقد بوصلتها وتضل طريقها إن لم تحتفظ في مراحل تكونها الجديدة بحصيلتها الإيجابية من هذا التراث، من حكمة وإنسانية وأخلاق.

الحفاظ على هويتنا يعني إبقاء صلتنا بتراثنا لنستمد منه مضمون هويتنا، أي عروبتنا وإسلامنا، ورسالتنا التاريخية.

مسائل الهوية ومبادئ حلها

إن مسائل الهوية لا يمكن إيجاد الحل الناجح لها إلا من ضمن خصائص الهوية.

فالاغتراب العرقي والثقافي يعمق من أزمة الدولة الوطنية، حيث يحيط بالدولة مناخ يعمل على تقويض سيادتها من الخارج إلى الداخل، بينما يعمل اختلاف الجنسيات وعمليات الإحلال العرقية على تقويض سلطتها من الداخل، لتقع الدولة الوطنية بين فكي الرحى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وإذا كانت الهوية العربية-الإسلامية ليست موضع خلاف بين الإماراتيين، وتحظى بإجماعهم، فتثبيت هذه الهوية لا يمكن أن يتم إلا من ضمن هذا الإطار.

وفي هذا الإحصاء التفصيلي الذي قدمته الدولة، ظهر فيه، وهو الأمر الصحيح والمنطقي، أعداد الجنسيات الموجودة من دون أن يكون ثمة إحصاء لعقائدهم الدينية، إذن فالخطر يقوم على عروبة الهوية، وليس على إسلامها، وبالعودة إلى ما سبق من بحثنا فإن هوية الأرض (هي هوية المقيمين عليها) فالبلدان تسمى باسم المقيمين عليها، والعكس صحيح، بغض النظر عن عقائدهم، إضافة إلى أن هذا الخلل السكاني الخطِر لم ولن يؤثر في إسلام أهل الإمارات الراسخ في وجدانهم، إذن فإن إصلاح الخلل السكاني، يجب أن يتم وفقاً لما تمليه صفة العروبة وسماحة الإسلام وشرعة حقوق الإنسان التي كان الإسلام بمبادئه أول مُثبت لأسسها ومفاهيمها الحديثة. على قاعدة جرأة الجذور البدوية وحكمتها في اتخاذ القرار.

والمشكلات الصعبة تتطلب القرارات الجريئة والصعبة، وبمقدار خطورة الداء تُقرر كمية الدواء وكثافته، وقبل أن نبدأ بطرح وجهة نظرنا بالحلول التي نقترحها لا بد من أن نذكّر بالحديث الشريف "ليست العروبة بأحدكم من أب ولا أم إنما هي اللسان فمن تكلم العربية فهو عربي".

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصـل السابـع

الهويـة بين الضرورات والمحظـورات

الديموغرافية والأمن القومـي

"إن الوحـدة العربيـة الـشاملة هـي العـلاج الوحيـد لكـل أمـراض المجتمـع العربـي، وإن تجربتنا في الاتحاد، هنا على ضفاف الخليج، أكدت لنا هذه الحقيقة..."[146]

الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان –طيّب الله ثراه–

---

(146) أحمد علي السخني، زايد وتأصيل البناء الحضاري، مؤسسة عمون للدراسات والنشر 2002، ص 3.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المعادلة الصعبة والأرقام المرعبة

لسنا بحاجة إلى التذكير بنظريات توماس هوبز[147] أول فلاسفة السياسة في أوروبا في عصر النهضة الأوروبية، واعتباره الأمن (بشقيه الداخلي والخارجي) الشرط الأول لسلامة المجتمعات، ولقيام الحضارة بكل مجالاتها الاجتماعية والاقتصادية... إلخ، ولسنا بحاجة إلى منظرين عسكريين للاستشهاد بكلامهم، وكذلك لسنا بحاجة إلى ادعاء الغربيين بأن ما يهدد وجودنا هو نقص الديمقراطية والإخلال بحقوق الإنسان، كأولوية أولى لإصلاح أحوالنا، وهؤلاء الغربيون والمثقفون العرب المستغربون، وعن سوء نية أو جهل، ينصحوننا بمداواة داءٍ سرطاني بمساحيق تجميل، ولكننا حقاً بحاجة إلى أن يسمع الحكام رأي الخبراء والمثقفين الوطنيين، ولا سيما أن مصير الوطن يشمل كل أفراد الوطن. ولننتقل من التنظير والإنشاء إلى الأرقام، علماً بأن جميع الدول تجعل من أمنها القومي خطاً أحمر وأمراً لا يمكن التهاون به، لذلك نقول:

يبلغ عدد المواطنين في الإمارات العربية المتحدة حالياً ما يزيد قليلاً على 864.000 نسمة وتبلغ مساحتها 77.000 كم^2، ويساوي عدد الرجال تقريباً عدد النساء أي نحو 400.000 نسمة، وعدد السكان في الكيلومتر المربع نحو: 864.000 ÷ 77.000 = 11.22%. وإذا قسمنا هؤلاء على الفئة العمرية للرجال القادرين على حمل السلاح لحفظ الأمنين الخارجي والداخلي والدفاع عن الوطن والشعب، أي من هم ما بين الثامنة عشرة سنة والخامسة والأربعين سنة ومن دون حاجة إلى إحصاء ستقارب في أحسن الأحوال 40% من الذكور أي:

---

(147) توماس هوبز، انظر حاشية سابقة تم تعريفه بها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(40 × 400.000) ÷ 100 = 160.000

والحد الأعلى المعتمد لتشكيل الجيوش والقوى الأمنية 10%

أي: (10 × 160.000) ÷ 100 = 16.000

إذن فإن عدد الإماراتيين الذين عليهم الدفاع داخلياً وخارجياً عن الأمن القومي للإمارات يبلغ 16 ألف شاب، ولنعد إلى كل المهام الأمنية ودراسة القوة التي يمكن تقسيمها على الأرض.

الأمن والهوية هما الهاجس المؤرق لكل الإماراتيين من أعلى قمة الهرم حتى قاعدته الواسعة، وقد تنبه لهذا كثير من المفكرين والمثقفين فضلاً عن حكام الإمارات منذ عقود.

وفضلاً عن أن هذه المسألة تتفاقم يوماً بعد يوم. وأن ما كتب حول كيفية مواجهتها وطرق حلها لا يقع تحت حصر ولا تتسع له مجلدات، إلا أنني مع احترامي وتقديري لكل من كتب حول هذه المشكلة من خليجيين وعرب، حيث إن هذه الآراء جميعها تعالج فقط جوانب يجب بذل الجهود وتشابك الأيدي لحلها، التي سنفرد لها في نهاية هذا العمل باباً يلخص آراء عدد من المفكرين حول تلك المسائل المطروحة، إلا أن لب المشكلة برأيي لم يطرحه أحدٌ بعد، ولعله مُضمرّ في عقول الكثيرين منهم.

إن هذه المسألة تتطلب أولاً جرأة الفكر، ولا أدّعي لنفسي فضلاً ولكنني أذكّر بقول الشاعر:

إن الشجاعة في القلوب كثيرة

لكن شجعان العقول قليل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أو قد يكون ما سأطرحه فيما يلي ماثلاً في أذهان كثيرين ولكنهم يعتبرونه من المحظورات "ولكن الضرورات تبيح المحظورات" وهل ثمة من ضرورة أكثر من حفظ الشعب والوطن والهوية والدولة؟

وإذا ما نظرنا إلى نسبة توزيع السكان الذين عليهم حمل السلاح في كل كيلومتر مربع

16000 ÷ 77.000 = 0.207

أي على كل إماراتي واحد أن يدافع عن 1 ÷ 0.207 = 4.83 كلم^2.

إذن على كل إماراتي قادر على حمل السلاح أن يؤمن الأمن الداخلي والخارجي لـ 4.83 كم^2

وإذا ما حسبنا من ناحية أخرى نسبة الإماراتيين القادرين على حمل السلاح لحماية سواحلنا من التسلل البشري غير الشرعي أو مختلف أنواع الممنوعات

16.000 ÷ 730 كم = 22 نفراً

أي لو تفرغ كل الإماراتيين الحاملين للسلاح لحماية السواحل فقط لكان لكل كيلومتر 21 نفراً ولو حسبنا نسبة هؤلاء على عدد المقيمين لو تفرغ كلهم لحماية الأمن الداخلي

4.500.000 ساكن ÷ 16000 = 531 لكان هناك شرطي واحد لكل 281 ساكناً.

ناهيك عن حاجة الجمارك والجهات الأخرى إلى حاجات أمنية ولوجيستية... إلخ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هل نحن بحاجة إلى خبراء لتقييم هذه النتائج المرعبة؟

إذن في ظل الوضع القائم لا يمكننا بأي شكل من الأشكال أن نتحدث عن أمن قومي ولا عن سلامة حدود ولا عن حماية اجتماعية، ولا عن أمن فردي أو اجتماعي بإمكاناتنا الذاتية.

ولنكتفِ بهذا القدر دون حساب نسبة عدد الإماراتيين إذا ما قسمنا عدد الرجال البالغين والقادرين على القيام بمهام أمنية على هذه المهام الأربع، فالأرقام ستبدو محبطة لدرجة اليأس، لذا نوافق الدكتور غباش على قوله "يجب إدراك أن قبول تراجع الهوية هو قبول بالتنازل عن المكوّن لمفهوم الوطن، والمكنون الروحي والجوهري له"[148] وكذلك حين يقول: "لكي يكون هذا البلد وطناً حقيقياً وليس مقراً للإقامة فقط، يجب أن يكون، لا محالة، بلداً عربياً ذا غالبية عربية إسلامية وذا سيادة"[149] ولكننا لا نرى في الوقت عينه أن الحل الذي يقترحه بتخفيض عدد الآسيويين إلى 50% من تعدادهم الحالي على أقل تقدير[150] هو حلّ ناجع، وربما نوافقه على عديد من الاقتراحات الأخرى، ولكننا نخالفه تماماً حين يعبر عن اليأس فيقول "إنه ربما فاتنا القطار". لأن اليأس قرين الموت، وعلى الجسد أن يقاوم ما دام حياً.

الهوية والأرقام المرعبة

لعلها المرة الثالثة، كما يشير تاريخ الإمارات، التي تصبح فيها مدن الإمارات من أغنى مدن العالم، مرتين قبل البترول ومرة بعده، كما أظهرت الدراسات التاريخية، وبلدٌ له مثل هذه الأهمية الاستراتيجية ويملك مثل هذه الثروة، هل يجوز أن يبقى دون

(148) الإمارات والمستقبل، مرجع مذكور آنفاً ص 35.
(149) الإمارات والمستقبل، مرجع سابق، ص 26.
(150) الإمارات والمستقبل، مرجع سابق، ص 26.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حماية لأرضه وشعبه وهويته؟ وإذا ما اعتمد على حماية خارجية أو دولية، فهل قوة هؤلاء الحماة الأجانب ومساندتهم مجانية ودائمة؟ وأعتقد أن الإجابة بالإيجاب لا تنطوي على حكمة وتبصّر، فالدوام لوجه الله وحده.

وإذا كان الواقع الديموغرافي الحالي لا يمثل أدنى ضمانة، لأمن الشعب والأرض والهوية، فهل ستتغير هذه الشروط قياساً على حجم البلاد والمخاطر التي تتهددها، والمطامع التي يمكن أن تتعرض لها بأي وتيرة للتزايد السكاني؟ في ظني أن قرناً كاملاً ومهما تزايدت الولادات، لن يحل هذه المشكلة بالنظر إلى الخلل الفادح بين عدد السكان وحجم البلاد. فهل علينا أن نبقى وأولادنا وأحفادنا، نعيش هذا الهاجس ونواجه هذا الخطر بترقب نكبات جديدة، ولا نأبه لقول المؤرخ د. منير يوسف طه "إنه لم ير من خلال دراسته لتاريخ هذا البلد بلداً آخر عانى مثل معاناته وتحمل ما تحمله؟ وهل نترك أولادنا لمصيرهم ونتحمل هذا الوزر عن حاضرنا ومستقبل أجيالنا"؟!

ماذا علينا أن نفعل ؟

لو أوقفنا كل تنمية واستطعنا طرد كل غريب عن البلاد فهل نستطيع تغيير أهمية بلدنا الاستراتيجية المزدوجة؟ وهل نستطيع حل معضلة نسبة عدد الإماراتيين إلى حجم الوطن؟ قطعاً لا.

ونعود ونكرر القول إن حل مشكلات الهوية لا يكون ناجحاً إلا ضمن منطق الهوية وشروطها. ومشكلة دولة الإمارات العربية مشكلة بنيوية.

نحن بحاجة إلى جيش وقوى أمنية يتناسب حجمها مع متطلبات أمن البلاد الداخلي والخارجي، ولو فرضنا أنه ليس لدينا مشكلة سكانية، فما المواصفات المطلوبة للجيش المنويّ إنشاؤه؟ إنها أولاً "الولاء للوطن"، وذلك يعني:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

1. الولاء للهوية، أي الولاء للأرض والشعب.
2. الولاء للدستور، وما يستتبع ذلك.
3. الولاء للسلطة التي تنوب عن الشعب.

وبما أن كل جيش يحتاج إلى عقيدة قتالية كي تضمن التلاحم بين أفراده لخدمة أهداف الدولة العليا المتمثلة في أمن المجتمع وحماية الأرض والالتزام بدستور البلاد، حيث إن القاعدة الأساسية التي يقوم عليها الأمن القومي هي الولاء للهوية والسلطة، فلنعد إلى ذاكرتنا التاريخية، أي إلى هويتنا:

لقد كان لانضمام الغساسنة والمناذرة إبان الفتح العربي-الإسلامي الأثر الحاسم في انتصار العروبة والإسلام، ولولا هذا التضامن القومي العربي لتغير وجه التاريخ ولما انتصر العرب.

لقد كان إنشاء مجلس التعاون لدول الخليج العربية خطوة إيجابية، في منحى إيجاد تعاون عسكري بين كل أعضاء هذا المجلس، ولكن "التركيبة السكانية في دولة الإمارات العربية المتحدة، شأنها في ذلك شأن معظم الدول الخليجية، تعتبر تركيبة غير طبيعية أفرزتها عملية التحضر"[151].

وليس "وقف الخلل السكاني ممكن ولا استمراره مقبول"[152] إذاً الواقع الديموغرافي لدول التعاون الخليجي لا يمكن الاعتماد عليه، وقد تؤدي النظرة العامة إلى الواقع السكاني في دول التعاون الخليجي مجتمعة إلى الوصول إلى النتيجة نفسها أو إلى نتيجة تفضلها قليلاً، إذاً مثل هذا الاقتراح لا يشكل حلاً، فشبه الجزيرة العربية بأكملها إذا ما استثنينا اليمن، تتعرض لهذه المخاطر نفسها، فكيف المخرج؟

---

(151) مجتمع الإمارات، الأصالة والمعاصرة، مرجع مذكور آنفاً ص 325.
(152) مجتمع الإمارات، الأصالة والمعاصرة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قلنا إن مشكلات الهوية لا تحل حلاً ناجحاً إلا من داخل إطار الهوية، ومن لا تسعفه جرأته على مواجهة ضرورات الحياة يستدعي الموت لنفسه. والتقسيم الاستعماري للبلاد العربية، أوجد كيانات بعضها يعاني كثرة السكان وقلة الموارد، وذلك ينعكس على معيشة هذه الكيانات لا على هويتها، وبعضها الآخر يعاني نقص السكان ووفرة الموارد، وذلك يشكل خطراً على هويتها وأمنها القومي ومصيرها معاً (وذلك يتطلب وضع منظور عام للأمن القومي العربي ينطلق من هذه المعطيات) وتلك مسؤولية من هم أكثر حاجة إليه. وفي ظل مثل هذا الواقع وبالنظر إلى جميع جوانبه على مستوى الأمن والوجود فضلاً عن الهوية، نرى أن الإمارات بخاصة ودول مجلس التعاون الخليجي عامة، عليها اللجوء إلى الحل العربي الشامل، وذلك هو منظور مؤسس الدولة وحكيمها الشيخ زايد رحمه الله. وبذلك يعيد أهل الجزيرة دورهم السالف في إنقاذ العروبة وتثبيت هويتها وعقيدتها، ويكسبون شرفاً كالشرف الذي حظي به أجدادنا حينما استجابوا لدعوة رسول الله ﷺ فخرجوا إلى بلاد الشام والعراق ومصر، فأنقذوها من الروم والفرس، وحلوا الأزمة التي كان يعانيها مجتمع الجزيرة والتي كان الاكتظاظ السكاني في أساسها، وإن لم يكن باستطاعتنا الارتفاع إلى هذا الشرف، فلتكن لدينا على الأقل جرأة وضع حل لكل كيان من هذه الكيانات، أو لمجلس التعاون ولا جدوى من هذا الحل إلا ضمن مفهوم الهوية، أي أن نضع حلاً ينطلق من عروبتنا.

أما الحل الآخر فهو الحل السيادي الذي يعتمد بشكل أساسي على تعريب القوى الحامية لأمن الوطن ومقدراته كالجيش والشرطة وحرس الحدود.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هويتنا ومصيرنا

عودة إلى التاريخ

تتفلت هويتنا من بين أصابعنا كالقابض على حفنة رمل، ولا تهرب هي منا، إلا بمقدار ما نهرب نحن منها.

منذ خمسة عشر قرناً خرج أجدادنا العرب المسلمون من شبه الجزيرة العربية وانتشروا في بقاع الأرض من الأطلسي غرباً إلى الهند وحدود الصين شرقاً، وكان النبي محمد ﷺ هو أول من وجه العرب المسلمين لتعريب بلاد الشام والعراق وليدعوهم إلى الإسلام. فقد وجدوا حين خروجهم في بلاد الشام والعراق وكذا من مصر إلى المغرب، أسلافاً لنا قدامى، ففي بلاد الشام والعراق بالإضافة إلى عدد قليل من الذين ينطقون باللغة العربية، كانت الأغلبية هناك من أسلافنا الأقدمين، من كلدانيين وآشوريين وكنعانيين إلى ما هنالك من هجرات سابقة خرجت من شبه الجزيرة العربية، وما زال أحفاد هؤلاء موجودين في سوريا ولبنان والأردن وفلسطين والعراق، ويعرف كثير منهم حتى اليوم بأسمائهم القديمة، إنما غدت هذه الأسماء تشير إلى مذاهبهم المسيحية، أما لسانهم وهويتهم فعربيان، كما ما زال كثير من أحفاد الغساسنة والمناذرة هناك يعتدُّون بأنسابهم بعد أن حموا عروبة تلك البلدان من وقت خروجهم حتى يومنا هذا، ولم يكن هؤلاء بمجملهم بالإضافة إلى بقايا من رعايا الإمبراطوريات القديمة من يونان وروما وغيرهم الذين كانوا يشكلون الأغلبية الساحقة ينطقون باللغة العربية، وكان العرب المسلمون أقلية، وقد أبقى الأمويون الجيش عربياً، ولم يُدخلوا في صفوفه أياً من غير العرب على مدى 132 عاماً، عمر الدولة الأموية، واستمرت هذه السياسة في مطلع حكم العباسيين، وذلك ما أبقى على عروبة هذه البلدان.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وما زال التاريخ يذكر فضل بعض خلفاء الرسول ﷺ فيما حققوه من ترسيخ هوية الأرض والشعب وتعريب الدولة والأمصار.

1. **عثمان بن عفان** ﷺ أمر معاوية بتعريب الشواطئ بإرسال مرابطين إليها (فكان أول من عمل على تعريب الأمصار)[153].

2. **عبد الملك بن مروان**: "هو أول من نقل الديوان من الفارسية إلى العربية"[154] فأعطى للدولة الناشئة هويتها.

وانقضت أيام الدولة الأموية ولم يستتب الأمر لها في جبال لبنان التي بقيت تحت سلطة الروم البيزنطيين.

3. **أبو جعفر المنصور**: ثاني الخلفاء العباسيين، الذي أرسل حملة من قبائل لخم وجذام للاستقرار في جبال لبنان وتعريبها[155]، وفي عهد هارون الرشيد بلغت الدولة أقصى اتساع لها، ولكن اعتماد العباسيين على غير العرب في جيوشهم والخلاف بين أبناء الرشيد جعل أحفادهم والشعب العربي كله أسرى لدى السلاجقة.

وتفاقم هذا الأمر حتى أصبح أهل بلاد الشام والعراق رعايا وعبيداً عند عبيدهم (المماليك). بينما حافظ المغرب العربي حتى العصر الحديث على هويته العربية وسيادة شعوبه برغم تقلب الظروف عليه ولنتذكر ما قاله المتنبي محذراً:

ومن يجعل الضرغام للصيد بازه ... تصيده الضرغام فيما تصيدا[156]

---

(153) انظر البلاذري، فتوح البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت 1983 ص 134.
(154) السيوطي، مرجع مذكور سابقاً ص 219.
(155) انظر تاريخ الإقطاع في لبنان، مرجع مذكور آنفاً. ص
(156) المتنبي، ديوان المتنبي، دار صادر، بيروت، ط2، 2000 ص 236.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فالخطر الداهم على هويتنا الإماراتية والخليجية بعامة هو تسليم غير العرب مهمات الجيش والأمن والإدارة، ومن هنا يجب أن يكون المدخل لحل خطر الاختلال السكاني، كدواء عاجل، ومدخلاً للمعالجة اللاحقة. للسيادة والتوازن السكاني.

وهذا الحل يجب أن يحمل هوية الإمارات والخليج أي أن يكون عربياً، وصفة العروبة هي الحل، فالعرب حتى غير المسلمين منهم يقيم كثيرٌ منهم بين ظهرانينا ولا يشكلون خطراً على الهوية الإماراتية في حين أن المسلمين غير العرب في الداخل والجوار هم الذين نتوجس من خطرهم، وإن كنا نرغب في علاقات سلمية معهم.

وعلى ذلك يبقى علينا أن نتجه إلى أحد خيارين:

1. **حل قومي شامل**: العمل الفوري والسريع على إنشاء كونفيدرالية عربية شبيهة بالولايات المتحدة الأمريكية أو الاتحاد السويسري أو أي صيغة مناسبة ويُتفق عليها بين قادة العرب وإنشاء جيش عربي موحد لا يحمي أمن الخليج وحده بل أمن الأقطار العربية كلها، ويسهم فيه كل كيان عربي تبعاً لقواعد يتفق عليها، وإن لم يكن تنفيذ هذا الحل ممكناً فلا ضير في أن يتمَّ تدريجياً إذا ما ترددت بعض الكيانات في الدخول الفوري فيه، وأعتقد أن حل مسألة الأمن القومي العربي، فيه مصلحة عربية مشتركة وتلاقي تجاوباً، وتراجع النفوذ الأمريكي بعد الأزمة الاقتصادية الكبرى وتوحد كلمة العرب يمكن أن يزيلا في الوقت الراهن أي عائق خارجي يحول دون ذلك.

2. **حل إماراتي**: يقوم على تعريب الجيش، وتوسيعه تدريجياً مع قوى الأمن من مواطنين متطوعين عرب وإنشاء حرس قومي، وخفر سواحل. وبكفاءات عربية، وإعطاء الحق لكل فرد يخدمون في هذا الجيش بعد ثلاث أو خمس سنوات خدمة يثبت فيها كفاءته وحسن سلوكه وولائه، في التجنس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والحصول على حقوق المواطنة وإعطاء الجنسية لأفراد أسرته، ويكون له جميع الحقوق المدنية حين تجنيسه، والحقوق السياسية بعد مضي خمس سنوات على هذا التجنيس.

فالأرض عربية والشعب عربي والهوية عربية ولا يمكن لغير العربي أن يحمل ولاءً كاملاً لهم، أما الولاء للدولة، فلكونها مصدر لقمة عيشه ونعمته، فضلاً عن أن عروبة الخليج والأمن القومي العربي يكوِّنان عقيدة هذا الجيش. ولنا في المشرق العربي، قبل اتفاقية سايكس بيكو وبعدها ما يؤكد ولاء مثل هؤلاء للوطن والدولة. ففي كل من جيوش الأردن وسوريا ولبنان حتى مصر مسؤولون كبار يعملون في غير دولهم، ولاؤهم للدولة التي يخدمون فيها نابع من ولائهم لعروبتهم ولوحدة الهوية العربية للمكانين.

وذلك يخدم الأمن الإماراتي بأقصر فسحة ووقت ممكن ويشكل عاملاً مساعداً لحل المسألة الديموغرافية.

وكما حمت القبائل العربية بلاد الشام ومصر، سيحمي هؤلاء بهجرتهم المعاكسة من البلدان العربية إلى شبه الجزيرة أرض شبه الجزيرة دون أن يتناقض ذلك مع قناعاتهم أو هويتهم أو مصلحة البلدان التي ينتمون حالياً إليها ودون أن يكون ثمة خطر من الولاء المزدوج لا بل إن قوميتهم العربية تستوعب أكثر من قطريهم.

وعلى ذلك فإنني أرى أن المسألة، والخطر الأساسي، يحتاجان إلى جرأة في الفكر وفي مواجهة الحقيقة بكل فجاجتها!

فالمسألة الأساسية تكمن في بنيوية الدولة، التي تشكل الخطر الأكبر، ولا سيما بعد أن زاد البترول الخطر على الهوية والأرض والشعب بما لا يقاس. وقبل أن تكون لهذه الرقعة من الأرض هذه الأهمية الاستراتيجية الاقتصادية عرفت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نضالاً مريراً من أبنائها للحفاظ عليها، وإن كان دستورنا ينص على أن مهمة الدفاع عن الأرض تقع على عاتق أبنائها، ولكن أي هدف لا يغدو تحقيقه ممكناً إلا إذا توافرت له الظروف الموضوعية.

والحل البنيوي هو حجر الزاوية لإزالة الخطر عن الشعب والهوية والدولة والأرض وإن لم يكن الحل الوحيد للمشكلات كلها، ولكن الحلول الأخرى كلها من دونه هي مسكنات وليست علاجاً للداء.

مسألة البلوش و"البدون"

يشكل هؤلاء عنصراً رافق البناء الحديث للمجتمع والدولة، ولهم خدماتهم في كل مجالات الحياة، وغدوا يتكلمون اللغة العربية واللهجة الإماراتية حتى ليصعب تمييز الكثيرين منهم عن المواطنين، وبرغم قدم وجود بعضهم فلم يشكلوا خطراً على المجتمع والدولة، وإن يكن تحسين أحوالهم يحسن من أخطاء سلوكهم، وبكل مقاييس الدول والمقاييس الإنسانية يحق على الأقل لمن وُلد منهم على أرض الإمارات أن يتجنس، مع النظر بعطف وجدية إلى من لا يندرج ضمن هؤلاء، وهم أحق من غيرهم بالجنسية، ويسهم تجنيسهم بالإضافة إلى الحلول الأخرى بتعديل الميزان السكاني. ويمكن كذلك ربط إعطاء الجنسية لهؤلاء بالخدمة العسكرية لاختبار ولائهم وتحسين انضباطهم، وإعطاء من لم يجنس منهم بطاقة إقامة دائمة. ولابد حول هذا الموضوع من إبداء ملاحظتين أراهما مهمتين:

1. إنه دون حفظ الحدود ومنع التسلل وهو في جملة ما نهدف إليه من خلال الحل البنيوي الأول، فستجد البلاد نفسها كل فترة زمنية مع هذه المشكلة من جديد فضلاً عن المشكلات الأخرى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

2. يتعين العناية الكبيرة بتعليم هؤلاء اللغة العربية من خلال مدارسهم، ومن خلال برامج محو الأمية الإلزامي، لإدخال اللغة العربية إلى بيوتهم وحياتهم اليومية.

تعريب الدولة

1. الأولوية في هذا المجال للجيش والإدارة وقوى الأمن، ووضع القوانين والتشريعات والسياسات اللازمة، ليسير هذا الهدف بأسرع وتيرة ممكنة، وإعطاء حوافز للكوادر والكفاءات العربية في القطاع العام وعلى رأسها حق طلب الجنسية بعد فترة غير طويلة لمن يَثبُت ولاؤه وحسن سلوكه.

2. إلزام جميع المؤسسات الخاصة والعامة باستخدام ما يزيد على 50% من موظفيهما وعمالهما من العرب، على أن تُصلح هذه المؤسسات أوضاعها ضمن فترة زمنية محددة، تحت طائلة إقفال المؤسسة، ولا يستثنى من ذلك إلا من يحصل، ولأسباب موجبة قاهرة، وبشروط يحددها القانون على إذن خاص.

3. إن حل مشكلة البلوش و"البدون" يفتح الباب واسعاً أمام إخراج كل من يقيم في البلاد بطريقة غير شرعية، مع تخصيص ميزانية خاصة ينفق منها لدفع نفقات السفر لكل من تكون إقامته غير شرعية ويعجز عن السفر إلى بلاده، بالإضافة إلى حافز مادي زهيد.

4. إعادة النظر بقانون كفالة المواطنين للوافدين أو إلغاؤه.

يخضع عمال البناء والمنشآت المدنية بأنواعها كافة، الذين تستجلبهم الشركات العقارية لإقامة منشآتها، لقانون التوظيف العام أي أن يكون 50% من العمال والفنيين من جنسيات عربية، وأن يتعهد المستثمر بإخراجهم عند انتهاء العمل، وبموجب كفالة مالية أو مصرفية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لست متيقنة إن كان علينا، بعد الأزمة المالية العالمية، وسقوط المحافظين الجدد، أن نتكلم عن العولمة الاقتصادية وما يستتبع ذلك من توافق برامج الإصلاح الوطنية أو تعارضها معها. ولكننا يجب أن نقول بكل ثقة وحزم إننا لا يمكن أن نربط مصيرنا الوطني وقراراتنا السيادية بشأنها إلا بمقدار ما تقتضيه المصلحة الوطنية وبناء الدراسة يصوغها متخصصون إماراتيون أو عرب موثوق بهم.

ولا يجوز أن نربط مصير شعبنا بأنظمة غربية قامت لخدمة مصالحها القومية والشركات المتعددة الجنسيات، ولم ولن نكون في يوم من الأيام نحن ومصيرنا هاجسهم، وإذا كان التساهل ببعض المسائل السيادية تحت ظروف معينة ممكناً، فلا يمكن ولا يجوز أن يكون في أمور المصير تساهل أو تجاهل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصـل الثامـن

الهويـة الإماراتيـة

ومخاطـر التغيـر الاجتماعـي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لقد مر مجتمع الإمارات العربية المتحدة بتغيرات اجتماعية واضحة المعالم خلال العقود الخمسة الماضية، قل أن يمر بها مجتمع من المجتمعات البشرية، ومن العوامل التي أسهمت في إحداث هذا التغير السريع تسخير عائدات النفط المالية لمشروعات التنمية والعمل على تحول المجتمع نحو دولة الرفاهية من خلال تقديم خدمات متعددة سواء في مجال التعليم، أو الصحة أو المواصلات، أو الكهرباء والماء، أو الطرق وغيرها مع توفير فرص عمل للمواطنين، وتأكيد رعاية الأسرة والطفولة والشيخوخة من خلال البرامج المختلفة التي تقدمها مؤسسات ووزارات الدولة المختلفة.

إن هذه الطفرة الاقتصادية وما واكبها من تطورات وتغييرات عديدة أثرت في منظومة القيم الاجتماعية بشكل واضح وجلي، ولعل الاتجاه نحو التحول من الأسرة الكبيرة الممتدة إلى الصغيرة النواتية نتيجة للعديد من العوامل الاجتماعية والثقافية والاقتصادية نجم عنه العديد من المشكلات الاجتماعية، وذلك مظهر أو انعكاس لحركة المجتمع وتعبير عن التغير الاجتماعي. ولعله من المفيد أن نؤكد أن التغير الاجتماعي قد يكون تقدماً إلى الأمام، وقد يكون للخلف، وذلك يعتمد بشكل أساسي على الحالة التي يمر بها المجتمع سواء في حالات الأزمات الاقتصادية أو الاجتماعية أو في حالة السلام الاجتماعي والتحول التدريجي.

إن هناك العديد من المؤشرات الإيجابية لمظاهر التغير الاجتماعي والاقتصادي في مجتمع الإمارات التي تؤكد أن مجمل هذه التغيرات جاءت لتحدث نقلة نوعية في حياة أفراد المجتمع، فعلى سبيل المثال يبلغ متوسط دخل الفرد في الإمارات نحو 17 ألف دولار سنوياً، هذا الدخل كبير جداً ويقارن بالدول المتقدمة، كما أن متوسط عمر الإنسان الافتراضي يبلغ 70 سنة، وقس على ذلك العديد من الأمور التي حدثت في المجتمع مقارنة بالأوضاع في مرحلة ما قبل الاتحاد أو قبل استخدام عائدات النفط في مشروعات التنمية[157].

(157) إسكندر بشير: دولة الإمارات، مسيرة الاتحاد ومستقبله، 127.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إن من أسباب التغير الاجتماعي تلك التنمية الشاملة التي تبنتها الدولة الاتحادية منذ قيامها والتي ربطت مفهوم التنمية الاجتماعية بمصطلح الرعاية الاجتماعية الهادفة التي ظهرت على شكل تقديم خدمات في مجالات عدة منها التعليم والصحة والإسكان والتدريب المهني للكوادر البشرية، وهي تسهم بشكل فعّال في عملية التغير الاجتماعي وبالتالي تؤثر في البناء الاجتماعي[158]، وهذا ما يؤكد الربط الوثيق بين مفهومي التنمية والتغير الاجتماعي[159].

أما الجوانب السلبية للتغير، التي برزت خلال العقدين الماضيين بشكل واضح فلا مناص لأي دارس لمجتمع الإمارات من أن يتناولها بالدراسة لمعرفة أسبابها، ومظاهرها، وطرق علاجها وهي التي نشير إليها في هذه الدراسة بالمشكلات الاجتماعية.

التغير الاجتماعي

لقد لعبت العائدات المالية من النفط دوراً مهماً في عملية التغير الاجتماعي في الإمارات وذلك من خلال استغلالها في مشروعات التنمية المختلفة، ما أسهم في عملية التغير سواء أكان ذلك إيجابياً أم سلبياً.

فقد انتقل المجتمع من مرحلة الفقر والكفاف إلى مرحلة دولة الخدمات والرفاهية، ولعل التحول في قيم المجتمع سواء في الجوانب الاجتماعية أو الاقتصادية والسياسية شكل تحدياً للقيم التقليدية السائدة التي ظل المجتمع يتعامل معها وكأنها مسلمات لا يمكن المساس بها، وهي جزء من الثقافة السائدة في مرحلة ما قبل النفط وتطور التعليم، إلا أن الاحتكاك بالعالم الخارجي والتواصل وثورة التكنولوجيا ووسائل الاتصال وانتشار التعليم للجنسين على حدٍّ سواء، أوجد

(158) القيادة، نشر ديوان الرئاسة- أبوظبي 1981م، ص 79-81.
(159) حليم بركات: المجتمع العربي المعاصر، بحث استطلاعي اجتماعي 1985م، ص 458.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نوعاً من التفاعل بين الداخل والخارج، هذا التفاعل والتواصل جعل أفراد المجتمع أمام تحدٍّ بين المحافظة والتحديث وبخاصة في الجانب الاقتصادي، وكل هذه العوامل أدت إلى إحداث تغييرات في بنية المجتمع ونظمه ونسقه القيمي، ما تولد عنه بروز بعض المشكلات الاجتماعية.

أسهمت العديد من العوامل في عملية التغير الاجتماعي سواء من حيث عدد السكان أو عدد العاملين أو متوسط دخل الفرد، وأخيراً ازدياد عدد المتعلمين في المجتمع، ما يؤثر في المجتمع، سواء من ناحية القيم أو بروز مشكلات ناجمة عن تلك العوامل مجتمعة أو منفردة، ولكن بشكل عام قد أسهمت تلك التغيرات في بروز مشكلات اجتماعية.

إن التغير سمة من سمات المجتمعات البشرية، ولا يوجد مجتمع ثابت لا يتغير، فالتغير ظاهرة حتمية لا يمكن تجنبها. إلا أن التغير ظاهرة نسبية تختلف من مجتمع إلى آخر. ولأسباب كثيرة وعوامل متعددة- ليس المجال هنا لذكرها- تختلف المجتمعات البشرية في طبيعة التغير الذي تمر به، كما تختلف في السرعة التي تتغير بها ومدى شمولية هذا التغير. فبعض المجتمعات تكون عمليات التغير فيها بطيئة جداً بحيث يخيل للإنسان المراقب لهذه المجتمعات إنها في حالة من السكون والاستقرار، وبعضها الآخر يكون عمليات التغير فيها سريعة وواضحة في بعض أنساق المجتمع وتكون بطيئة وغير ظاهرة في أنساق أخرى، وهناك مجتمعات ما تكون عمليات التغير فيها سريعة جداً ومتلاحقة وشاملة لكثير من جوانب المجتمع وأنساقه، بحيث تبدو هذه المجتمعات بعد سنوات قليلة وكأنها مجتمعات جديدة برزت إلى الوجود مكان المجتمعات السابقة، ولعل مجتمع الإمارات العربية المتحدة خير مثال على النوع الأخير من هذه المجتمعات.

لقد تعرض مجتمع الإمارات العربية المتحدة لمجموعة من الأحداث الكبيرة المتلاحقة في فترةٍ زمنية قصيرة لا تتعدى عشر سنوات؛ ففي عام 1971 رحل الإنجليز

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عن هذه الأرض وأصبحت الإمارات وحدات اجتماعية مستقلة. ومع نهاية العام نفسه توحدت في كيان دولة واحدة وذلك بقيام دولة الإمارات العربية المتحدة، وقبيل هذه الفترة بسنوات قليلة تم اكتشاف النفط واستغلاله تجارياً. وفي عام 1973 ارتفعت أسعار النفط ارتفاعاً لم يسبق له مثيل ما حوّل مجتمع الإمارات من مجتمع فقير نسبياً إلى مجتمع يعتبر من أغنى المجتمعات في العالم إن لم يكن أغناها.

ولم تمض عشر سنوات أخرى أو نحو ذلك حتى تغير وجه الإمارات تغيراً لا نبالغ إذا قلنا لم يسبق له مثيل في تاريخ المجتمعات الإنسانية. فقد تم تسخير الجزء الأكبر من عائدات النفط للإسراع بعملية تغيير مجتمع الإمارات التقليدي وتحويله إلى مجتمع عصري، من مجتمع الصحراء والبداوة إلى مجتمع المدنية والتحضر، من مجتمع القبيلة ذات الأنماط السلوكية الموروثة إلى مجتمع الدولة الحديثة بمؤسساتها ومصانعها وما تتطلبه من سلوكيات وعلاقات تختلف تماماً عن تلك التي كانت سائدة قبل النفط[160].

إلا أن التغير في أي مجتمع يكون أسرع في الجوانب المادية عنه في الجوانب اللامادية أو بعبارة أخرى إن عناصر الثقافة المادية Material Culture (التكنولوجيا، النقل، الإسكان... إلخ) تتغير على نحوٍ سريع جداً في حين أن عناصر الثقافة اللامادية Non-Material Culture (القيم، المعايير، العادات، الأعراف، القوانين...الخ) التي تشكل الأساليب الضرورية اللازمة للتلاؤم والتوافق مع التغيرات في الجوانب المادية تتغير على نحو بطيء ما يؤدي إلى حدوث ما يسمى "الهوة الثقافية"[161] Lag Culture وهنا تنشأ في المجتمع حالة من عدم

---

(160) عبدالعزيز الصرعاوي: منطقة الخليج العربي في مواجهة تحديات الحاضر والمستقبل، ص 26-27، انظر الخليج العربي في مواجهة التحديات محاضرات الموسمين الثقافيين 75/74 لرابطة الاجتماعيين- الكويت. وكذلك عبد الله النورس: الإعلام والتنمية الوطنية في دولة الإمارات العربية المتحدة، ص 126، أبوظبي 1981م.

(161) التراث الشعبي في دولة الإمارات العربية المتحدة- لجنة التراث في مدرسة زايد الأول- في العين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الاستقرار القيمي أو ما يسمى "صراع القيم"، حيث تبرز إلى الوجود قيم وعادات وأعراف جديدة تحاول فرض نفسها وزحزحة القيم والعادات والتقاليد القديمة التي لا تستسلم بسهولة بل تحاول الصمود في وجه كل ما هو جديد، انفتاح واحتكاك مباشر وغير مباشر بثقافات جديدة متحررة وفي الوقت نفسه إصرار على التمسك والمحافظة على كل ما هو تقليدي، وعندما يصل المجتمع إلى هذه المرحلة ينقسم أفراد المجتمع إلى ثلاثة أقسام:

1- قسم يصر على التمسك والمحافظة على كل ما هو تقليدي.

2- قسم ثان متحرر نسبياً، يرى ضرورة التغيير في جوانب معينة والتمسك بالقيم في جوانب أخرى.

3- قسم ثالث مؤيد للتغيير بمظاهره وأشكاله كافة[162].

عندما يصل المجتمع إلى مثل هذه المرحلة تبرز الكثير من المشكلات إلى السطح وتفرض نفسها على المجتمع وأفراده ومنهم ذوو النفوذ والمخططون، وتبدأ وسائل الإعلام المختلفة والمؤسسات الرسمية والأهلية بالحديث عن هذه المشكلات ومظاهرها وأسبابها بل في كثير من الأحيان تعقد المؤتمرات والندوات لمناقشة مشكلة معينة وتشخيصها، ومن ثم وضع الخطط والبرامج الكفيلة بعلاجها أو التخفيف من آثارها السلبية، ويكفي أن تتصفح جريدة من الجرائد اليومية أو تستمع لمحطة من محطات الراديو أو تشاهد قناة من قنوات التلفاز لتتعرف الكم الهائل من المشكلات التي تعانيها المجتمعات الإنسانية المختلفة في كل بقاع العالم.

(162) القيادة، ديوان الرئاسة: أبوظبي 1981م، ص 147-148.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تجدر الإشارة إلى أنّ المشكلة الاجتماعية "ظاهرة نسبية"[163] تتأثر بكثير من العوامل التاريخية والمجتمعية والاقتصادية والثقافية. فالمجتمعات المختلفة والجماعات المتنوعة بل حتى الأكاديميون والمتخصصون في فروع العلم المختلفة تختلف نظرتهم إلى المشكلات الاجتماعية وإدراكهم لها وتقدير خطورتها المجتمعية. فبعض الظواهر تعد مشكلات اجتماعية في مجتمع معين بينما نجد الظاهرة نفسها في مجتمع آخر تعد ظاهرة سوية. فمثلاً الزيادة الطبيعية الكبيرة للسكان في المجتمع الهندي تعد مشكلة اجتماعية تشغل بال الحكومة الهندية والمؤسسات الحكومية والأهلية بل الأسرة الهندية. أما في مجتمع الإمارات مثلاً فإننا نجد أن الزيادة الطبيعية الكبيرة للسكان لا تشكل مشكلة على الإطلاق بل على العكس من ذلك، ينظر إليها المجتمع كنمط للسلوك السوي بل المرغوب فيه، ويحظى بتشجيع ودعم من جانب الدولة والمجتمع على حد سواء.

كذلك تختلف النظرة إلى المشكلات الاجتماعية في المجتمع الواحد في فترة زمنية مختلفة. فمثلاً في مجتمعات الخليج كان ينظر في الماضي إلى تعليم الفتيات وخروجهن إلى المدارس أو العمل الرسمي على أنه أمر مستهجن يتعارض مع القيم والعادات السائدة، أما اليوم فإن ظاهرة خروج المرأة لطلب العلم في المدارس والجامعات وممارستها بعض الحرف بعد تعلمها أصبح سلوكاً سوياً، ورفض مشاركتها في خدمة مجتمعها هو السلوك المستهجن الذي يشكل مشكلة اجتماعية.

وأخيراً فإن النظرة للمشكلات الاجتماعية تختلف في المجتمع الواحد من جماعة اجتماعية إلى أخرى فمثلاً جماعة أصدقاء البيئة وعلماء البيئة ينظرون إلى انتشار المصانع وما تسببه من تلوث للبيئة على أنها مشكلة اجتماعية تحتاج إلى

---

(163) عبد العزيز البسام: السياسة التربوية في الإمارات واقعها واتجاهات تطورها- من مجموعة بحوث ندوة تجربة دولة الإمارات العربية المتحدة- مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت 1982م، ص 499.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حل في حين يرى رجال الصناعة والاقتصاد أن ذلك لا يمثل مشكلة اجتماعية على الإطلاق[164].

إلا أن هذا لا يمنع أن غالبية المجتمعات على الرغم من اختلاف ظروفها الاجتماعية وأنساقها الثقافية، فإنها قد تتفق في نظرتها إلى بعض المشكلات الاجتماعية، وترى من الواجب التصدي لها ووضع الحلول المناسبة للتخفيف من حدتها، ومثال ذلك ارتفاع معدلات الجريمة وانحراف الأحداث وانتشار الفقر والبطالة والأمراض والحروب... إلخ.

مما سبق يتضح لنا أن موضوع المشكلات الاجتماعية موضوع شائك ومعقد وتختلف فيه الآراء والتعريفات باختلاف المدارس التي ينتمي إليها واضعو هذه التعريفات. إلا أننا لن نتطرق إلى كل هذه التعريفات بل نكتفي بتعريف واحد يتضمن الكثير من الأفكار التي وردت في معظم تلك التعريفات المختلفة[165] ويمكن صياغة هذا التعريف على النحو الآتي:

المشكلات الاجتماعية هي حالة أو شكل متكرر من السلوك يحدث نتيجة لأسباب اجتماعية أو غير اجتماعية، ويثير اهتمام عدد كبير من أفراد المجتمع في وقت محدد ويعدّونه انحرافاً عن قيم المجتمع ومعاييره الاجتماعية التي يخضع لها أفراد المجتمع، وتحكم أنماط سلوكهم العام فيقابلونه بالرفض الذي يتبعه القيام بعملٍ ما لمواجهته والتخفيف من آثاره السلبية[166].

---

(164) علي خليفة الكواري: نحو استراتيجية بديلة للتنمية الشاملة، الملامح العامة لاستراتيجية التنمية في إطار اتحاد مجلس التعاون، وتكاملها مع بقية الأقطار العربية، الطبعة الثانية، بيروت 1986م، ص 8.

(165) شاكر خصباك: دولة الإمارات العربية المتحدة، دراسة في الجغرافيا الاجتماعية، ص 132-133.

(166) نادر فرجاني: أوضاع السكان وقوة العمل في الإمارات، ص 299. انظر: سيد خيري في التعليمات الخاصة بالدراسة، ص 201.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وكما أشرنا إليه سابقاً لعبت عوامل اقتصادية واجتماعية وسياسية دوراً كبيراً في إحداث العديد من التغيرات البنائية التي أثرت في مكونات مجتمع الإمارات وخصائصه، كما أفرزت في الوقت نفسه العديد من المشكلات التي أثرت في الجماعات الاجتماعية عامة والأسرة بصورة خاصة.

ومن ثم سنتناول بعض هذه المشكلات وسنكتفي بمناقشة المشكلات الأسرية والجريمة وانحراف الأحداث.

الهوية والمشكلات الاجتماعية

لقد طرأ على المجتمعات العربية العديد من التغيرات البنائية التي أثرت في مكونات هذه المجتمعات وعدّلت من بعض خصائصها، كما أنتجت- في الوقت نفسه- العديد من المشكلات التي أثرت في الجماعات الاجتماعية عامة، والأسرة بصورة خاصة.

ويعد مجتمع الإمارات أحد المجتمعات التي تأثرت إلى حد كبير بتلك التغيرات، الناجمة عن عديد من العوامل الخارجية والداخلية، ومن ثمّ لابدّ من دراسة طبيعة هذه العوامل وما أنتجته من مشكلات أسرية تركت آثارها في الأفراد عامة والمجتمع خاصة.

أولاً: المشكلات الأسرية

تجدر الإشارة- منذ البداية- إلى أنه ليس من اليسير رصد كل المشكلات الأسرية وتفسيرها، نظراً إلى تعددها، وتنوعها واختلافها باختلاف الأنماط الأسرية، وسياقاتها المحلية، ومكوناتها الاجتماعية والديموغرافية، وكذلك باختلاف الجماعات العمرية التي تعيش تحت سقفها، خاصة الأطفال والمسنين، وكذلك الوالدين اللذين يقودان دفة الأمور فيها. وهنا سوف نشير إلى هذه المشكلات، ثم نقوم بتحليل بعضها. ويمكن إجمال أهم المشكلات الأسرية على النحو التالي:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

1. المشكلات الخاصة بالزواج.
2. المشكلات الخاصة بالتنشئة الاجتماعية وما يترتب عليها من اعتلال في الصحة النفسية والاجتماعية للطفل.
3. المشكلات الناجمة عن الاستخدامات المتزايدة للتكنولوجيا الأسرية عامة، وتكنولوجيا الاتصال خاصة.
4. مشكلات التفكك الأسري (المتمثلة في الانفصال والطلاق والتوتر العائلي).
5. مشكلات التكيُّف العائلي الناجمة عن صراع القيم، واختلاف الأجيال، وضعف العلاقات الاجتماعية.

وسوف نقتصر في حديثنا عن المشكلات الأسرية على تلك المشكلات المتصلة بمجموعة من الأنماط السلوكية المتعلقة بالزواج والطلاق والتنشئة الاجتماعية.

مشكلات الزواج

أدت التغيرات الاجتماعية إلى رفع سن الزواج، وزيادة معدلات العنوسة في المجتمع.. وترجع هذه الزيادة إلى الرغبة في مواصلة التعليم من جانب وارتفاع تكاليف المعيشة من جانب آخر وغلاء المهور، وارتفاع تكاليف الزواج، ومن ثمّ عدم إمكانية الشباب الإقدام على الزواج إلا بعد فترة طويلة من العمل لتوفير التكاليف المطلوبة.

وفي الوقت نفسه، وجدت أعداد لا بأس بها التغلب على هذه المشكلات من خلال الزواج بأجنبيات وما ترتب عليها- هي الأخرى- من مشكلات سواء بالنسبة إلى تماسك الأسرة أو إلى تنشئة الأطفال.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فمن المعروف أن الزواج من امرأة تختلف في عاداتها وتقاليدها وثقافتها بشكل عام عن المجتمع الأصيل، لابد من أن يؤدي إلى بعض النتائج التي تترك آثارها سواء على الأسرة أو المجتمع.

وتكشف ظاهرة الزواج من أجنبيات عن مدى التغيرات التي حدثت في المجتمع، وخاصة ما يتعلق بأسلوب الاختيار الذاتي أو التلقائي، الذي لا يكون للأهل فيه أي تأثير، وكثيراً ما يكون صورياً، أو ربما لا يتدخلون في الأمر نهائياً. وتوضح الإحصاءات المتوافرة في إحدى إمارات الدولة (دبي) أن من بين كل 100 مواطن متزوج، يتجه (70) مواطناً إلى الزواج من مواطنات، في حين أن (30) مواطناً يتجهون إلى الزواج من مواطنات دول أخرى غير الإمارات، كما توضح تلك الإحصاءات كذلك إن الجنسيات الأجنبية المفضلة لدى المواطنين عن الزواج هي بالترتيب، الدول الآسيوية، الدول العربية، دول أخرى، دول مجلس التعاون، دول أوروبية[167].

وفي إحصاء صادر عن "المؤسسة العامة لصندوق الزواج" في الإمارات أكد ارتفاع نسبة زواج الرجال من أجنبيات إلى أكثر من 43% في إمارة أبوظبي خاصة خلال عام 2007، حيث بلغ عدد المواطنين والوافدين الذين تزوجوا في الإمارة 2815 مواطناً منهم 1111 مواطناً تزوجوا من مواطنات و591 تزوجوا من وافدات، بينما ارتفع عدد الإماراتيات المتزوجات من أجانب إلى 234 مواطنة. وتجدر الإشارة إلى أن هناك أسباباً أخرى، تتمثل في عدم الثنائية في العلاقات بين الزوج والزوجة الأولى، الأمر الذي يدفع إما إلى طلاق هذه الزوجة الأولى وإما إلى الإبقاء عليها والزواج بأخرى أجنبية ربما لا تكلفه كثيراً، وتعتبر تلك الزوجة الأجنبية "بديلة" للزوجة المواطنة.

---

(167) دراسة تقدم بها أحمد الحداد ونال بها درجة الماجستير من كلية الاقتصاد والعلوم السياسية- جامعة القاهرة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويرى الدكتور عباس أحمد أن انتشار ظاهرة الزواج من أجنبيات في مجتمع الإمارات يرتبط بظهور "الأسرة المرهقة" التي تنتشر بين شريحة ذوي الدخل المحدود أو "أحياناً الشريحة الوسطى"، ولكن بدرجة أقل، "التي قد تشهد معدلات أكبر من الطلاق"[168] ومن هذه الآثار السلبية نذكر ما يلي:

أ- ضعف الروابط بين المتزوج وأقربائه، فالزوجة الأجنبية نظراً إلى أنها تنتمي إلى ثقافة مغايرة، لا يمكنها التواصل اجتماعياً مع أسرة الزوج، بل وتؤدي إلى انتزاع الزوج من أسرته بطريقة ترهن علاقته بها بعلاقتها الاجتماعية بهم، وليس أمامه من مفر، إما أن يرضي الزوجة الجديدة، وإما أن يرضي الأهل الأصليين وينتهي الأمر في غالب الأحيان بالحل الأول.

ب- صعوبة اندماج الزوجة الأجنبية في المجتمع، فنظراً إلى اختلاف البيئة التي نشأت فيها الأجنبية عن البيئة الأصلية للمجتمع، تواجه صعوبة كبيرة في تكيّفها واندماجها في هذا المجتمع الغريب عنها في عاداته وتقاليده ودرجة الحرية التي يمنحها للمرأة.

ج- التنشئة الاجتماعية للأبناء... من المعروف أن ازدياد الدور الذي تضطلع به الأم الأجنبية في التربية وتنشئة الأبناء، قد يجعل أثر ثقافتها أكبر بكثير من ثقافة الأب، ما يوجِد نوعاً من التنافر وعدم التجانس في ثقافة الأسرة، ويكون له انعكاس سلبي على الأبناء والبنات، وقد ارتبطت بعض صعوبات التعليم وضعف اللغة العربية بين طلاب المدارس بظاهرة الأم الأجنبية.

د- ومن الآثار السلبية للزواج من أجنبيات، إضعاف الشعور بالانتماء، والتفريق في المعاملة، فقد أكدت دراسة أجريت عن ظاهرة الزواج من أجنبيات أن الأبناء من أمهات مواطنات أكثر شعوراً بالانتماء إلى الأسرة والمدرسة

(168) عبد الرزاق الفارس، تخطيط القوى العاملة في الإمارات العربية المتحدة، الكويت، 1985م. ص 312.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والوطن من الأبناء من أمهات أجنبيات، وأن الابن من أب مواطن وأم أجنبية يكون شعوره موّزعاً بين موطن أبيه وموطن أمه.

ومن الممكن تحديد بعض الانعكاسات السلبية لظاهرة الزواج من أجنبيات على الأبناء في النقاط التالية:

- **الأضرار النفسية والاجتماعية:**

أ- قد يعاني الأطفال بعض الأضرار النفسية والاجتماعية نتيجة لاختلاف الثقافة بين الوالدين، وما ينشأ عنها من اختلافهما في أساليب تنشئة الطفل وعدم استقرارها على أسلوب معين في التعامل مع أبنائهما في المواقف المختلفة، ما يترتب عليه عدم الاستقرار النفسي والتوتر في العلاقات الاجتماعية الأسرية.

ب- كثيراً ما يعاني الأطفال من أمهات أجنبيات، وخصوصاً غير العربيات، عمليات الاستهزاء والوصم والتعيير بأمهاتهم من قبل أقرانهم في الحي أو في المدرسة: مثل هذا السلوك يؤدي في كثير من الأحيان إلى ردود فعل غير سوية من جانب هؤلاء الأبناء؛ فقد تفسد العلاقة بينه وبين أمه أو قد يذهب هؤلاء الأبناء إلى تبني سلوك عدواني تجاه الآخرين، وفي حالات كثيرة قد يتبنى هؤلاء الأبناء ردود فعل سلبية فينزوي أحدهم ويصبح شخصاً انطوائياً.

- **الأضرار التربوية**

أ. يرى كثير من الكتاب أن أطفال الأمهات غير العربيات وخاصة الآسيويات متأخرون دراسياً أكثر من غيرهم من الأطفال، ويرجعون السبب في ذلك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى تأثر هؤلاء الأطفال بلغة الأم وضعف لغتهم العربية خاصة في المرحلة التعليمية الأولى ما يدفع أعداداً منهم إلى التسرب من المدرسة.

ب. إن التنشئة الاجتماعية تتأثر إلى حدٍّ كبير بثقافة الأبوين ومستواهما التعليمي، ولما كانت غالبية الزوجات الأجنبيات هن من الآسيويات ذوات التعليم المتدني أو الأميات- كما تشير بعض الدراسات بالإضافة إلى كونهن من ثقافات وبيئات اجتماعية تختلف تماماً عن بيئة المجتمع الإماراتي وثقافته، فإن هذا بدوره يؤثر تأثيراً كبيراً في النمو المعرفي واللغوي والقيمي لهؤلاء الأبناء.

ثانياً – مشكلات التنشئة الاجتماعية

من أهم التغيرات التي طرأت على الأسرة في مجتمع الإمارات، تلك المتصلة بالوظائف المختلفة التي تؤديها الأسرة بشكل عام، ووظيفة التنشئة الاجتماعية بشكل خاص، تلك الوظيفة التي يتشرب بمقتضاها الفرد ثقافة المجتمع من ناحية ويكتسب شخصيته من ناحية أخرى.

وتبدو المشكلات في هذه العملية عندما يتغير المضمون الثقافي الذي ينبغي للفرد أن يتشرب به وظيفة الأفراد الذين يقومون بتغذيته بهذا المضمون. وقد طرأت على المجتمع العديد من التغيرات أدت إلى تغير في هذا المضمون منها:

أ- **وسائل الإعلام**، وما تبثه من معلومات معرفية كثيرة جداً، وفرض سلوكيات قد تكون غريبة.

ب- **العمالة الوافدة** وما ترتب عليها من اعتماد كامل على الخدم والمربيات في الاضطلاع بهذه المهمة أي مهمة التنشئة الاجتماعية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ج- **التغيرات التكنولوجية الحديثة**، وما تنطوي عليه من مضامين ثقافية متنوعة.

د- **التغير القيمي في المجتمع**، وما ترتب عليه من تغير في توجهات الأفراد، وخاصة أحوال أرباب الأسر المادية، وما أدت إليه هذه التغيرات من ضعف في قيم الأسر عامة، وتلك المتصلة بتماسك الأسرة خاصة. وكان لذلك آثاره على التنشئة الاجتماعية.

هـ- **ظهور قيم حب الثراء**، وما ترتب عليها من انشغال رب الأسرة بعمل متواصل نجم عنه غياب الأب وعدم إشرافه على الأولاد. وتنشئتهم التنشئة السوية.

و- **عمل المرأة**، وعدم تفرغها للإشراف التربوي الحقيقي على الأبناء.

من الواضح أن البديل لهذه التغيرات، وما ترتب عليها من تخلي الوالدين عن هذه العملية المهمة، هو إشراف الخدم والمربيات على تنشئة الأطفال اجتماعياً وثقافياً ما نجم عنه الكثير من المشكلات. هذا وتذهب إحدى الدراسات إلى أن المهام التي يؤديها الخدم والمربيات تتعدد وتتنوع، وأغلب الأعمال التي يقومون بها تدخل ضمن إطار الخدمة، وقلما نجد دوراً من أدوار العمل المنزلي لا تكون للخدم مساهمة فيه، بدءاً من عمليات التنظيف وغسيل الملابس التي تقدر مساهمة الخدم فيها بنسبة 92.1% انتهاء بخياطة الملابس التي يسهم الخدم فيها بنسبة 2.2%[169].

(169) شاكر خصباك، مرجع سابق، ص 133. انظر كذلك: سليمان ماجد شاهين، كلمة حول الساحل العربي من الخليج. من محاضرات الموسم الثقافي في الفجيرة 1977/1976، ص 20.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولعل من أخطر الأدوار التي يقوم بها الخدم والمربية، تلك المتعلقة بالأطفال مثل إيقاظ الأطفال صباحاً، ومساعدة الأبناء على لبس ملابسهم، وتوصيل الأبناء إلى المدارس، وتغذية الأطفال، والعناية بصحة الطفل، ومساعدة الأبناء على الواجبات المدرسية، والخروج بالأولاد للنزهة، وهذه الأعمال جميعها تشير إلى مدى الموضوعية في علاقة خدم المنازل بالأبناء وطول المدة التي يتعايشون معهم فيها، والروابط التي يمكن أن تنشأ ما بين الخدم والأبناء، والتي تؤثر بمجملها في تنشئة الطفل وسلوكه، بل في علاقته بوالديه أنفسهم، إضافة إلى تأثر الطفل بمجال اللغة والعادات والتقاليد.

وتكمن الخطورة في أن هؤلاء الخدم والمربيات يصبحون المصدر الأساسي والوحيد تقريباً الذي يأخذ عنه الطفل قيمه وتقاليده وعاداته، كما أوضحنا، في إشباع حاجاته الأساسية، الأمر الذي يؤدي إلى انتقال قيم المربيات الأجنبيات وثقافتها وتقاليدها إلى الطفل، مما يؤثر في شخصية الطفل وتكوينه والاتجاه به إلى اتجاهات وأطر أخلاقية سلبية ومناقضة لتلك التي تسود في المجتمع الإماراتي.

وهذه الأمور تعكس لنا حقيقة مؤداها أن ثمة أضراراً ومشكلات عديدة تنجم عن الاعتماد على المربيات، هذه المشكلات قد تكون ثقافية، وقد تكون ذاتية مثل تعويد ربة البيت على الكسل والخمول، وإهمالها لواجباتها المنزلية، والتأثير في العلاقات الاجتماعية الأسرية، والاطلاع على سمعة الأسرة، والإساءة إليها. وتؤكد ذلك إحدى الدراسات التي أظهرت أن 65.7% يرون أن هناك أضراراً اجتماعية من جراء الاعتماد على الخدم والمربيات، وترتفع هذه النسبة إلى 85.1% في خورفكان، وإلى 81.6% في كلبا، و 74.1% في أبوظبي، وتنخفض النسبة إلى 44.7% في بني ياس وبدع زايد، و46% في دبا[170].

(170) حيدر إبراهيم علي: آثار العمالة الأجنبية على الثقافة العربية. من مجموعة بحوث العمالة الأجنبية في أقطار الخليج العربي، بيروت والكويت 1983، ص 259-261.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أثر المربيات في تنشئة الأطفال

أ- التأثير النفسي والاجتماعي في شخصية الطفل:

تؤثر المربيات الأجنبيات بشكل أو بآخر في التكوين النفسي والاجتماعي للطفل، كما يؤدي تعامل الأطفال معهم إلى إيجاد أنماط سلوكية سلبية، ونجد أن المربية الأجنبية تحكي للطفل كثيراً من القصص والحكايات التي يستوعب الطفل مضمونها إلى حد كبير، وفي الوقت نفسه نجد أن الطفل يعيش أحداثها ويتخيل نفسه في الوقائع التي تدور فيها، كما يزداد فهمه للحياة، من خلالها أي يرى خبراته وخبرات الآخرين وهو يتخذ من قصة يسمعها موقفاً انفعالياً خاصاً وفق ما تتضمنه العبارات والتراكيب اللغوية من معان نفسية تتجدد تبعاً لخبراته.

وتشير بعض الدراسات إلى أن الطفل يتعلم من الخادمة/ المربية المخاوف التي تبدو صريحة ومستجدة في أنماط سلوكهن أمام الأطفال، أو ضمنية مستترة من خلال الحكايات والخرافات المملوءة بالمخاوف والمخاطر والتهديدات التي ترويها عن عمد أو جهل، وقد يتعلم الأطفال هذه المخاوف من خلال الخبرات والمواقف الباعثة على الخوف التي تقحمهم فيها المربيات/ الخادمات، وكثيراً ما يكون تعلم هذه المخاوف مشرباً بمشاعر التهديد وعدم الأمان.

وفي إطار كل هذه السلبيات نجد أن الطفل يضطر إلى الانقياد للخادمة لوجوده معها طوال الوقت، فقد اتضح من إحدى الدراسات أن 39% من الأطفال يقلدون الخادمات أو المربيات، سواء في حركاتهن أو في إشاراتهن أو في كلامهن، وكذلك في طريقة الزي والزينة أو طريقتهن في تناول الطعام، وتقليدها في اتجاهاتها ومعتقداتها الأمر الذي يوصل الأطفال بعد فترة إلى أنساق معرفية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

متضاربة ومتناقضة إلى حد كبير. ومن بين هذه العادات والممارسات السلبية التي انتشرت بسبب المربيات والخادمات أكلهن لحم الخنزير، وشربهن الخمر، وتعاطي المخدرات، واستقبالهن ضيوفاً من الجنس الآخر، والخروج بمفردهن والتحدث في التليفون مع الغرباء، إضافة إلى كثير من السلوكيات التي تجهلها ربة البيت لخروجها للعمل ويقع فيها الطفل، ويتضح هذا التأثير السلبي فيه بعد فترة حين تبدأ شخصيته بالتشكل من خلال تعامله مع الآخرين بسلبية وبخوف وعدم قدرته على التفاعل الاجتماعي، ومن ثم فقد ينقلب ذلك إلى نوع من العدوانية نحو الآخرين؛ الأمر الذي ينشئ طفلاً عاجزاً من الناحية السيكولوجية الاجتماعية، ومن ثم طفلاً رافضاً لسياقه الاجتماعي المحيط[171].

ب- أثر المربيات في التحصيل الدراسي

لا يقتصر تأثير المربية في الجانب الاجتماعي، أو التكوين السيكولوجي للطفل، أو في نمط شخصيته، بل يمتد الأمر إلى التحصيل الدراسي للأطفال ومستوى تقدمهم في المراحل الدراسية المختلفة. إذ تشير إحدى الدراسات الميدانية التي أجريت في مجتمع الإمارات بين مجموعتين من تلاميذ المرحلة الابتدائية، إحداهما يوجد في منازلها مربيات أجنبيات (مجموعة تجريبية) والأخرى لا يوجد فيها (مربيات) فتبين أن المجموعة الأولى كانت أقل تحصيلاً في كل المواد الدراسية- ما عدا الرياضيات- وهي مواد تحتاج بطبيعتها إلى حصيلة لغوية عربية. كما ثبت أن أطفال المجموعة التجريبية (حيث المربيات أجنبيات) كانوا أكثر تأثراً، وطلباً للنجدة وأكثر اضطراباً في صحتهم النفسية من أقرانهم من

(171) محمد أحمد الزغبي، الأسس الاستراتيجية لتطور المجتمع في الخليج العربي. الإنسان والمجتمع في الخليج العربي، الكتاب الأول. جامعة البصرة. 1979، ص 98.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المجموعة الضابطة (حيث لا توجد مربيات أجنبيات). وتشير تلك الدراسات إلى أنه كان من الواضح أن الذكور من الأطفال الذين تمت تربيتهم على أيدي أجنبيات كانوا أكثر تأثراً من الإناث على كل مقاييس الشخصية الخاصة بالنضج الانفعالي والقلق والتوتر والاتكالية[172].

ولنا أن نذكر أنه إذا كانت هذه مشكلات ناجمة عن الاعتماد على المربيات في التنشئة، فإن هناك عوامل أخرى لها بعض التأثيرات الإيجابية أو السلبية في عملية التنشئة الاجتماعية منها:

- دور العملية التعليمية، وما أدت إليه من استحداث وتطوير للإعلام المدرسي الذي مارس تأثيراً في شخصية الطفل في مراحل دراسية متباينة.

- تعاظم دور وسائل الاتصال عامة، وما أدت إليه هذه الوسائل من إيجاد أنماط سلوك سلبية أثبتتها بعض الدراسات من حيث إفراز السلوك العدواني والمروق من سلطة الوالدين وتبني قيم غريبة مناقضة للقيم الأصلية، وتقليد الأنماط السلوكية المشاهدة في تلك الوسائل الإعلامية.

ج- مشكلة الطلاق

تعد مشكلة "الطلاق" من المشكلات الاجتماعية التي تمارس تأثيراً بالغاً في كيان الأسرة وتماسكها. إذ يؤدي الطلاق إلى "التفكك الأسري" وإلى التأثير السلبي في عملية التنشئة الاجتماعية وإلى فقدان الأبناء لكثير من سماتهم الاجتماعية، وتعرضهم لكثير من الأخطار الاجتماعية.

---

(172) عبد العزيز البسام: مرجع سابق، ص 503، علي الكواري: مرجع سابق، ص 22.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد تفاقمت هذه المشكلة في مجتمع الإمارات، إثر التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي شهدها المجتمع في فترة الستينيات، تلك المتغيرات التي أدت إلى ثراء الأفراد وتوافر الإمكانات المادية اللازمة لهم، التي تمكنهم من الحصول على زوجة ثانية وثالثة، أو الاستغناء عن الزوجة السابقة.

كما أدت التغيرات القيمية كذلك إلى انعدام التفاهم بين الزوجين، الأمر الذي ينتهي بالانفصال الكامل بينهما، كذلك أدَّى اختلاف معايير الاختيار وعدم التكافؤ بين الزوجين، إلى بروز تلك المشكلة وتفاقمها. كما أن مشكلة الزواج من أجنبيات وعدم التوافق معهن ساعد كثيراً على بروز تلك المشكلة وتلخص إحدى الدراسات التي أجريت حول تشخيص ظاهرة الطلاق في المجتمع الإماراتي العديد من المبررات المؤدية إلى تفاقم تلك المشكلة منها:

الفوارق التعليمية والثقافية، والجهل، وقسوة الرجل وضرب المرأة، والزواج من أجنبيات، وغلاء المهور، والانبهار باللياقة الجسدية والسلوكية للمرأة الأجنبية.

ومن العوامل الأخرى ذات الصلة بهذه المشكلة الغزو الإعلامي، والخلافات الزوجية حول أساليب التنشئة الاجتماعية، وسكن الزوجة مع أهل الزوج، وعدم الإنجاب، والخيانة الزوجية والانحراف والاضطرابات النفسية[173].

من ناحية أخرى، يرى د. عباس أحمد أن معدلات الطلاق في المجتمع قد تفرزها ثلاثة أنواع من الأسر، وهي:

- **الأسر المرهقة مادياً**، نظراً إلى ارتفاع تكاليف المعيشة، ومعنوياً نظراً إلى النزاع أو المشكلات المعنوية والأسرية ذات القوقعة الفارغة.

(173) إسكندر بشير: مرجع سابق، ص 127.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- **الأسرة المفككة**، التي يعيش أفرادها معاً، ولكن العلاقات والاتصالات والعواطف بينهم تكاد تكون معدومة، وهو مظهر قد يتكرر بين الشريحة الوسطى من المجتمع، أي الذين ربما لا يعانون العامل المادي المتصل بتكلفة الحياة الأسرية، ولكنهم قد يرغبون في البحث عن زوجة تناسبهم عندما تفتر العلاقة بينهم وبين زوجاتهم ويتحولن إلى زوجات عاطلات، ويكون البديل فتاة متعلمة أو جامعية، أو عاملة ينجذب إليها.

- **الأسرة المرفهة**، فهي سمة الشريحة العليا في المجتمع، وقد يكون الطلاق فيها من باب التجديد والمقدرة على دفع "الرضوة" أو مقابلة تكاليف الزواج والأسرة الجديدة وغيرها من الزيجات والأسر[174].

وقد أظهرت إحصاءات رسمية أن نسبة الطلاق في دولة الإمارات تصل إلى 34% بحسب إحصاء عام، وقد أشارت دراسة حديثة أعدتها وزارة العمل والشؤون الاجتماعية إلى خمسة عشر سبباً للطلاق أهمها:

- الرغبة في الزواج من امرأة أخرى 31%.
- عدم إنجاب الزوجة 23%.
- تدخل الأهل 21%.
- الخمور وإهمال الأُسر 13%.
- الطلاق التعسفي 16%.

وأسباب أخرى تتصل بالخلافات المادية وعدم اهتمام الزوجة.

---

(174) القيادة، مصدر سابق، ص 155.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي دراسة ميدانية أعدتها وزارة العمل والشؤون الاجتماعية في دولة الإمارات عام 2006-2007 أن نسبة المطلقين 19%، وأن الزوجة هي المبادرة في طلب الطلاق، حيث بلغت نسبة اللاتي طلبن الطلاق 43%، ويليها مبادرة الزوج بالتطليق 29%، ونسبة الطلاق الذي وقع بالاتفاق 12%.

وذكرت دراسة صدرت عن مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية في أبوظبي أن غالبية المطلقات ونسبتهن 76% كن شابات عند الطلاق ولا تتجاوز أعمارهن 39 سنة، وأن 19% صغيرات السن، وأوضحت الدراسة أن 58% لم تستمر حياتهن الزوجية أكثر من ثماني سنوات بينما 32% من المطلقات لم تستمر الحياة الزوجية سوى سنة إلى خمس سنوات. كما تظهر دراسة أخرى، أجرتها وزارة العمل والشؤون الاجتماعية في دولة الإمارات عن دور الزواج من أجنبيات في تفشي ظاهرة الطلاق، وأن 62% من المتزوجين من أجنبيات قد سبق لهم الزواج، وأن بعضهم تزوج مرتين أو ثلاث مرات، وقد يبلغ عددُ مرات الزواج ستاً وسبعاً وثماني زيجات، وقد انتهت غالبية الزيجات السابقة بالطلاق، حيث أظهرت الدراسة أن 60% من المتزوجين من أجنبيات قد طلقوا زوجاتهم المواطنات.

ثالثاً: الجريمة ومشكلات المخدرات

لاشك في أن التغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي يمر بها كل مجتمع، تمارس تأثيراً فعالاً في الجماعات التي تشكل بنيانه، والأفراد الذين يعيشون على أرضه، ويختلف مدى هذا التأثير وفاعليته من مجتمع إلى آخر، باختلاف وطبيعة العوامل المؤدية إلى هذا التغير ومواجهته. والشيء الذي لا يختلف عليه اثنان، هو أن التغير، مهما كان تأثيره، لا بد من أن ينجم عنه العديد من المشكلات، الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، تلك التي تؤدي إلى سوء تكيف الأفراد، أو

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عدم تقبلهم للتغير، أو رفضهم له، أو عجزهم عن مقاومته، ما يدفع بهم في نهاية الأمر إلى الانحراف عن الطرق المتعارف عليها اجتماعياً وثقافياً، والتي تعد بمنزلة الضوابط لسلوكهم الاجتماعي؛ ويرتكبون بعض الجرائم ضد أنفسهم أو ضد غيرهم من الأفراد، وبذلك تصبح سلوكياتهم غير العادية هذه من أهم المشكلات الاجتماعية التي تؤرق المجتمع، وتضع أمام الدولة العديد من التحديات لمواجهة هذه المشكلات والتخفيف من حدتها.

سنقدم في الفقرات التالية تعريفاً مبسطاً لمعنى الجريمة، وأنماطها، والأسباب المؤدية إليها، والإجراءات التي اتخذتها الدولة لكشفها.

هذا ومن الملاحظ في مجتمع الإمارات، أنه كثرت معدلات الجريمة في العقود الماضية، وتعددت أشكالها نتيجة للتغيرات التي طرأت على المجتمع، بفعل عوامل متعددة، ولذا سنلقي الضوء على أنماط هذه الجرائم، وأشكالها والأسباب المؤدية إليها، والجهود التي تبذلها الدولة للحد منها.

1. تعريف الجريمة:

هناك كثير من التعريفات لمفهوم الجريمة، تختلف باختلاف المتخصصين في الدراسات القانونية، والنفسية والاجتماعية. ولسنا بصدد إيراد معظم هذه التعريفات، ولكننا سنقتصر على واحد من التعريفات التي أوردها علماء الاجتماع، ونعني بالتحديد سيزرلاند Sutherland الذي يرى أن الجريمة "هي السلوك الذي تحرمه الدولة؛ لما يترتب عليه من ضرر على المجتمع، الذي تتدخل لمنعه بعقاب مرتكبيه".

وفي ضوء ما تقدم يمكن توضيح ما يلي:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- إن الجريمة ظاهرة عامة في كل المجتمعات، وتختلف أنماطها وأحجامها من مجتمع إلى آخر، بسبب الظروف الاقتصادية والثقافية لكل مجتمع.

- إن أسباب الجريمة لا يمكن إرجاعها إلى عامل واحد، بل إلى العديد من العوامل.

- إن عدد الجرائم ونوعيتها يرتفع مع التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والديموغرافية والثقافية التي تطرأ على المجتمع.

- إن معدلات الجرائم ونوعيتها، ترتفع في المناطق الحضرية في المجتمع، بينما تقل في المناطق الريفية، والبدوية، وذلك لشدة الضوابط الاجتماعية وفاعليتها من ناحية، وعدم وجود الإغراءات التي تهيئ الأفراد -في المناطق الريفية- لارتكاب أي جريمة، كما هي الحال في المناطق الحضرية، وإن أي سلوك إجرامي، يعني انتهاكاً لحرية المجتمع، وتعدي على قوانينه ويجب على المجتمع أن يحمي نفسه من الأفراد الخارجين على تلك القوانين، بإيقاع العقوبة عليهم.

- إن الأسرة بتماسكها وترابطها، تعد سياجاً يحفظ الأفراد من الوقوع في الجرائم، ولذلك ينبغي أن تزداد الوسائل التي تمكن الأسرة من الإبقاء على هذا التماسك والتضامن العائلي.

2. أهم العوامل المؤدية إلى الجريمة

هناك العديد من العوامل التي تؤدي بالفرد إلى ارتكاب الجريمة، قد تكون نفسية، أو إيكولوجية، أو اجتماعية، أو ثقافية، وتختلف فاعلية تلك العوامل وأثرها من مجتمع إلى آخر، حسب التكوينات الاقتصادية، والاجتماعية، والديموغرافية لكل مجتمع.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- تغير المجتمعات التقليدية إلى مجتمعات عصرية، وما يترتب على ذلك من اضطرابات في القيم والمعايير يدفع بالأفراد إلى ارتكاب العديد من الجرائم، مثل الإدمان وتعاطي المخدرات، والقتل، والاعتداء على الآخرين... إلخ.

- الهجرة، بأنماطها المختلفة سواء كانت داخلية من الريف إلى الحضر، أو خارجية من مجتمع إلى آخر، تؤدي إلى ارتكاب العديد من الجرائم الناتجة عن عدم قدرة الأفراد المهاجرين على التكيف مع واقع المجتمعات المهاجر إليها، اقتصادياً، وثقافياً، كما يؤدي ازدحام المدن المهاجَر إليها وكثرة عدد السكان فيها إلى إيجاد جيوب حضرية مكتظة بالسكان تتميز بضعف الخدمات، وكثرة عدد العاطلين عن العمل فيها، وتدهور الخصائص السكانية في هذه المناطق، ويلجأ هؤلاء الأفراد قاطنو تلك المناطق إلى ارتكاب العديد من الجرائم خاصة السرقة، وتعاطي المخدرات.

- التفكك الأسري، الذي ينجم عنه ضعف في العلاقات الاجتماعية، وسوء التنشئة الاجتماعية للأطفال الذين يزج بهم في أنماط متعددة من العلاقات الاجتماعية مع رفقاء السوء، خارج البيئة الأسرية، بطريقة تؤهلهم إلى ارتكاب جرائم العنف، وتولد لديهم سلوكاً عدوانياً تجاه الآخرين، وتجدر الإشارة إلى أن التفكك الأسري يرجع أساساً إلى الطلاق، وإلى تفشي ظاهرة الزواج من أجنبيات، كما يرجع كذلك إلى سوء بعض الأحوال الاقتصادية للأسرة التي تنتمي إلى مستويات اقتصادية متدنية.

وفي مجتمع الإمارات، لعبت عوامل عديدة في إفراز السلوك الإجرامي الذي اتخذ أشكالاً متعددة، من هذه العوامل، هجرة العمالة الوافدة، وضعف البنية الأسرية، وزيادة معدلات الطلاق، وسوء التنشئة الاجتماعية للأبناء، وزيادة الاحتكاك الثقافي بالمجتمعات الأخرى، ودور وسائل الإعلام، والطفرة الاقتصادية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الهائلة التي أدت إلى مزيد من الرفاهية الأسرية التي استغلت بطريقة سلبية، نجم عنها كثير من المشكلات والانحرافات الاجتماعية.

وفيما يلي نقدم تحليلاً لبعض من هذه الجرائم عموماً، وجريمة المخدرات وانحراف الأحداث على وجه الخصوص.

3. حجم الجريمة وأنواعها في مجتمع الإمارات[175]

توضح الإحصاءات المتاحة ازدياد معدلات الجرائم ونوعيتها في مجتمع الإمارات في الفترة ما بين عامي 1980 و1990، طبقاً لهذه الإحصاءات نجد أنه حتى عام 1989 وصل عدد الجرائم المرتكبة ضد الدولة والأمن العام[176] إلى 4.277 جريمة، يتركز معظمها في أبوظبي (1.195) ودبي (1.933)، وما تبقى منها فهو في باقي الإمارات، أما عدد الجرائم الواقعة على النفس (3.044) جريمة، تركز معظمها في أبوظبي (940) ودبي (87)، وأدناها في أم القيوين (50)، وفيما يتصل بعدد الجرائم الواقعة على المال (11.503) جريمة، معظمها في كل من أبوظبي (2.490) ودبي (3.899) وأدناها في أم القيوين (240) والفجيرة (286).

وقد ارتفعت معدلات وعدد تلك الجرائم عام 1990، إذ توضح الإحصاءات أن عدد الجرائم الواقعة على النفس وصل إلى (3.340) جريمة، بينما وصل عدد الجرائم الواقعة على المال إلى (14.267) جريمة وبالطريقة نفسها ارتفعت معدلات الجرائم، وزادت نوعيتها في الفترة ما بين عامي 1990 و1993، وطبقاً للإحصاءات المتاحة يتضح لنا:

---

(175) هذه الإحصاءات وإن تكن قديمة ولكنها متاحة وقد أوردناها لتبيان نوع المشكلات وتطورها.

(176) عبدالعزيز البسام: مرجع سابق، ص 518.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- إن هناك العديد من الجرائم المرتكبة في الدولة في إماراتها المختلفة، متعلقة بأمن الدولة، وسير العدالة، وبالأمن العام، والجرائم الواقعة على الأشخاص، والجرائم الواقعة على العرض، والجرائم الواقعة على المال، وجرائم العقاقير الخطرة والمشروبات الكحولية.

- إن أكثر أنواع الجرائم ارتكاباً في عام 1991 هي الجرائم الواقعة على المال والجرائم المرتبطة بتعاطي المشروبات الكحولية، التي وصلت إلى (13.896)، موزعة على إمارات الدولة المختلفة، أبوظبي (3.402)، دبي (4.628)، الشارقة (3.022)، رأس الخيمة (1.030)، عجمان (1.229)، أم القيوين (224)، الفجيرة (367)[177].

- يلاحظ أن هناك انخفاضاً طفيفاً لجرائم المال وجرائم تعاطي المشروبات في عام 1992، فقد وصلت الأولى إلى (13.513) جريمة، بينما وصلت جرائم المشروبات الكحولية إلى (3.801) بدلاً من (3.839) عام 1991م[178].

- واصلت هذه الجرائم انخفاضها في عام 1993 إذ وصلت جرائم المال (12.193)، وجرائم المشروبات الكحولية إلى (3.739) جريمة، بينما ارتفع عدد الجرائم الواقعة على الأشخاص والجرائم الواقعة على العرض، فقد ارتفعت الأولى من (2.367) عام 1992 إلى (2.495) عام 1993م، بينما ارتفعت الثانية من (1.389) عام 1992 إلى (1.582) عام 1993م.

من ناحية أخرى، توضح نتائج إحدى الدراسات التي أجريت عن نوعية الجرائم في دبي عام 1994 أن جرائم الشيكات بسوء نية بلغت (49.1%) من إجمالي القضايا الواقعة على المال[179].

---

(177) محمد غانم الرميحي: البترول والتغير الاجتماعي في الخليج العربي، الكويت 1984، ص 141.
(178) عبد الرحمن، ومحمد إبراهيم الشاعر، الاستراتيجية القومية لدولة الإمارات العربية المتحدة، دمشق 1978، ص 49.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كما أوضحت الدراسة:

- إن هناك انخفاضاً كبيراً في عدد القضايا المتعلقة في كل من الحريق العمد، والقتل العمد، والقتل مع سبق الإصرار، والسرقة عن طريق السطو.
- إن هناك زيادة في عدد القضايا المتعلقة بكل من الاعتداء غير المتعمد، والسرقة، والإكراه، وإتلاف أموال الغير، واستيراد المخدرات وتعاطيها.

كما أوضحت نتائج الدراسة الحقائق التالية المتصلة بالجريمة في دبي:

- بلغت نسبة المشاركين في الجرائم من أبناء الدولة (17.84%).
- بلغت نسبة المشاركين في الجرائم من أبناء الدول الخليجية غير المواطنين (5.4%).
- بلغت نسبة المشاركين في الجرائم من أبناء الدول العربية (غير الخليجيين) 8.61%.
- بلغت نسبة المشاركين في الجرائم من أبناء الجاليات الآسيوية (53.72%).
- بلغت نسبة الجرائم لبقية الجنسيات (14.43%).

مشكلة المخدرات

تعد مشكلة تعاطي المخدرات من أخطر المشكلات التي تؤثر في المجتمع، ومكانة أفراده وجماعاته المتعددة، لما لها من خطورة على تكوينات الأفراد الجسمية والنفسية والعقلية والروحية. كما أنها تعد مقلقة للجماعات، خاصة الأسرة، لما تؤدي إليه من ضعف للعلاقات الأسرية، وتدهور في أخلاقياتها، وإيذاء متعدد

(179) عبدالله النويس: الإعلام والتنمية الوطنية في الإمارات العربية المتحدة، ص 28.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأشكال لأعضائها، صغاراً كانوا، أو كباراً. كما تمثل خطورة على المجتمع، نظراً إلى تدهور طاقات الشباب، وهم الفئة العمرية التي يكثر تعاطيها للمخدرات، ما يؤثر في المشاركة في العملية الإنتاجية المراد زيادتها لدفع مسيرة التنمية في المجتمع، كما أنها تعد مكلفة (اقتصادياً) نظراً إلى ما ترصده الدولة من ميزانيات هائلة، للتصدي للمتاجرين في تلك المخدرات ومنعهم، وللبرامج الأمنية التي تهدف إلى تدريب رجال الأمن في المجتمع على كيفية التعامل مع المهربين وإحضارهم للعدالة المجتمعية، وكذلك مكلفة نظراً إلى ما تضعه الدولة من برامج علاجية ووقائية للحد من هذه المشكلة، وما تتطلبه تلك البرامج من ميزانيات ترصد من الهيئات التابعة لعديد من المؤسسات المجتمعية، مثل وزارات (الصحة، والرياضة، والأوقاف، ووزارة العمل والشؤون الاجتماعية)[180].

إن مشكلة المخدرات في تفاقم مستمر، وتوضح نتائج إحدى الدراسات المتصلة بقضايا تهريب المخدرات وترويجها في إمارة دبي، إن عدد هذه القضايا قد وصل عام 1994 إلى (304) قضايا، وقد زادت جميع القضايا عن عام 1993 كالآتي:

1. التهريب بنسبة (40.9%)، المتاجرة بنسبة (0.30%)، الحيازة بنسبة (11.234%)، التعاطي بنسبة (57.81%)، شم الغراء بنسبة (15.38%).

2. أوضحت الدراسة أن:

- تهمة التهريب تتركز في الأفارقة بنسبة (46.4%).

- تهمة المتاجرة تتركز في المواطنين والإيرانيين بنسبة (40%) لكل منهما.

---

(180) علي خليفة الكواري: مرجع سابق، ص 112.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- تهمة الحيازة تتركز في المواطنين بنسبة (66.8%).
- تهمة شم الغراء تتركز في المواطنين بنسبة (67.57%).

3. من مجمل عدد مرتكبي جرائم المخدرات وشم الغراء، التي تركزت في فئتين هما:

- فئة العاطلين، حيث شكلوا أكثر من ثلث المقبوض عليهم في تلك الجرائم، وجاء تركزهم في جميع أنواع التعامل (متاجرة وحيازة وتعاطياً وشماً للغراء) عدا التهريب.
- فئة الهنود، شكلوا 23% من إجمالي المقبوض عليهم في تلك الجرائم.

شكل كل من الطلبة والموظفين نسبة (7.1%) من المقبوض عليهم، وهي نسبة- كما تشير الدراسة- تستحق الدراسة[181] لكن إذا كانت هذه الجرائم، فما الأسباب الدافعة إليها؟ تتضح الإجابة خلال عرضنا لإحدى الدراسات الاستطلاعية التي أجريت للتعرف على أسباب تفشي ظاهرة "تعاطي المخدرات" في مجتمع الإمارات. إن من بين أسباب الإدمان من وجهة نظر المدمنين ما يلي:

- رفاق السوء، وقد اتفق على هذا السبب (66%) من أفراد عينة الدراسة.
- الفراغ، اتفق عليه (51%) من أفراد عينة الدراسة.
- السفر دون رقابة الأهل، اتفق على هذا السبب (46%) من أفراد عينة الدراسة.

(181) علي خليفة الكواري، المرجع السابق، ص 112.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- المشكلات الأسرية، اتفق على هذا السبب 38% من أفراد عينة الدراسة.
- إهمال الأسرة للأبناء، وكذلك المشكلات النفسية والاجتماعية والاقتصادية للشباب، وقد أشار إلى هذه الأسباب نسبة (22%) من أفراد عينة الدراسة.
- المردود المادي والتمتع بالمخدرات، وقد أشار إلى هذين السببين 12% من أفراد عينة الدراسة.
- انتشار أفلام العنف والمخدرات، وكذلك عدم الوعي بمخاطر المخدرات والمعلومات الخاطئة عنها، وسهولة الحصول عليها، وقد أشار إلى هذه الأسباب 9% من أفراد عينة الدراسة.
- غياب الأب المستمر عن الأسرة، وضعف الوازع الديني، وكثرة الوافدين من المستويات الثقافية المتدنية، وقد أشار إلى هذه الأسباب 8% من أفراد عينة الدراسة.

ومن ناحية أخرى، أوضحت نتائج دراسة أجريت حول ظاهرة استنشاق الغازات وخاصة الغراء والمواد المستعملة في الاستنشاق أن السمات العامة للمتعاطي، ما يلي:

- الأفراد المستنشقون للغازات ينتمون إلى الطبقتين الوسطى والدنيا اللتين يندر فيهما تعليم الآباء.
- غالبية المستنشقين للغازات يقطنون في مناطق سكنية متعددة الجنسيات من المواطنين والعرب والأجانب وهي بوجه عام متدنية من حيث المستوى وقلة المرافق فيها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أهم خصائص الأضرار على الأسر ارتفاع معدل تعدد الزوجات ووجود خلافات أسرية بين الزوجين، كما يزداد هجر الأب للأم، أو طلاقها، وانفصال الوالدين عن بعضهما ثم اضطرار الأم إلى العمل.

- إن أفراد العينة قد عرفوا الظاهرة من مصادر مختلفة أهمها المعارف والأصدقاء والزملاء في الفصل، كما عرفوها من الصحف والمجلات ومن مصادر أخرى متنوعة.

فإمارة مثل أبوظبي بلغت عدد القضايا فيها 4.988 قضية عام 2007 منها 1.369 قضية كحول و 1.023 قضية مخدرات وسموم، كما بلغ إجمالي قضايا المخدرات في الشارقة في نهاية 2007م، 46 قضية منها 17 حالة حيازة بنسبة 36.95%، و15 حالة تعاطي بنسبة 32.6% وثماني حالات جلب بنسبة 17.4%، وأربع حالات استنشاق بنسبة 8.7%، وحالة واحدة للاتجار والتعاطي المؤدي إلى الوفاة بنسبة 2.17%.

وقد أوضحت نتائج دراسة أخرى حول "ديناميات شخصية المدمن" أن عمليات التعلم الاجتماعي وشلة الأصدقاء ليس لها تأثير بارز في تشكيل سلوك المدمن غير المتوقع وأن البناء النفسي للفرد وديناميات شخصيته هو الذي يدفع بالمدمن إلى البحث عن الشلة المنحرفة والانضمام إلى عضويتها، لأنها تشبع لديه الحاجة إلى التقدير والانتماء والمكانة الاجتماعية التي يفتقدها في الواقع الخارجي الطبيعي، كما أوضحت هذه الدراسة أن المشاعر العدوانية تعد أحد الملامح المشتركة في حالات الإدمان سواء على صعد داخلية أو خارجية.

رابعاً: انحراف الأحداث

من الآثار السلبية الناجمة عن التغير في بناء المجتمع، بروز أنماط سلوكية غير مألوفة اجتماعياً، وترفضها ثقافة المجتمع، وتصدر هذه الأنماط السلوكية عن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أفراد ينتمون إلى فئات عمرية متباينة تبدأ من الطفولة حتى مرحلة النضج الاجتماعي، وتؤدي هذه الأنماط السلوكية إلى إيجاد العديد من المشكلات على المستوى الفردي والجماعي والمجتمعي... وتتجسد كل هذه الأمور فيما يعرف بمشكلة "جنوح الأحداث أو انحرافهم ".

وقد ظهرت هذه المشكلة في مجتمع الإمارات عقب ظهور النفط، وما تبعه من تغيرات اقتصادية واجتماعية، وتغير في الأبنية والوظائف الأسرية، وتبدل في القيم والمعايير الثقافية التي تحكم سلوك الأفراد عامة، والأسرة خاصة.

ويهمنا في هذا الصدد أن نقدم فكرة موجزة عن المشكلة، وأسبابها، والعوامل المؤدية إليها ومظاهرها المختلفة في مجتمع الإمارات، ويتعيّن أن نؤكد منذ البداية على أن هذه المشكلة هي عامة في كل المجتمعات، النامية منها والمتقدمة، لكن العوامل المؤدية إليها تختلف من مجتمع إلى آخر، حسب سياساته الاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

وقبل أن نتناول هذه المشكلة، لابد من أن نعرض تعريفاً مبسطاً "للانحراف"، ومفهوم الأحداث.

الانحراف لغة هو العدول عن، أو الميل عن، والانحراف كما يفهم اجتماعياً هو سلوك إنساني لا يرضى عنه المجتمع، ولكنه أمر نسبي، يختلف من وسط إلى آخر.

أما تعريف الحدث، فمن الناحية اللغوية، هو صغير السن. وهو "الصغير منذ ولادته حتى يتم له النضج الاجتماعي والعقلي وتتكامل له عناصر الرشد والإدراك"[182].

(182) عبدالله النويس: مرجع سابق، ص 28.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويعرّف القانون الاتحادي لدولة الإمارات العربية المتحدة الحدث بأنه "من لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره وقت ارتكابه الفعل محل المساءلة أو وجوده في إحدى حالات التشرد"[183].

ويمكن تعريف انحراف الأحداث اجتماعياً بأنه "سلوك غير البالغين الذين يقومون بخرق معايير قانونية أو معايير اجتماعية بصفة متكررة تستلزم اتخاذ إجراءات قانونية تجاه مرتكبي هذه الأفعال سواء كان فرداً أو جماعة"[184].

العوامل المتصلة بانحراف الأحداث

يمكن تقسيم العوامل المتصلة بانحراف الأحداث إلى ثلاثة أقسام رئيسية على النحو التالي:

أ- عوامل ذاتية تتعلق بتكوين الحدث نفسه، وقد تكون هذه العوامل فيزيقية أو نفسية.

ب- عوامل أسرية منها تفكك الأسرة سواء عن طريق الطلاق أو غياب أحد الوالدين ومن ثمَّ عدم الرقابة الوالدية، وكذلك وجود انحلال أخلاقي داخل الأسرة كانحراف أحد الوالدين وبالتالي غياب القدوة الحسنة وضعف القيم الأسرية عامة والقيم الدينية خاصة. ومن العوامل الأسرية المؤدية إلى الانحراف أساليب التنشئة الاجتماعية الخاطئة.

ج- عوامل اجتماعية أخرى مثل الفقر الشديد وما يرتبط به من حرمان أو الغنى الفاحش الذي يضع في يد الحدث قدرات مادية كبيرة قد تكون أيضاً سبباً للانحراف خصوصاً إذا تُرك الحدث من دون رقابة صارمة.

---

(183) محمد علي العويني: الراديو والتنمية السياسية، القاهرة 1981، ص 37.
(184) المرجع السابق، ص 15.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومن العوامل المؤدية إلى الانحراف كيفية قضاء أوقات الفراغ ورفقاء السوء والمؤثرات الثقافية الواردة من مجتمعات أخرى عن طريق الهجرة أو وسائل الاتصال المختلفة بصورة عامة والتلفزيون بصفة خاصة يضاف إليها مخاطر الإنترنت[185].

وقد كشفت إحدى الدراسات[186] التي أجريت في مجتمع الإمارات لمعرفة عوامل الانحراف السلوكي بين الشباب (ذكور وإناث)، عن النتائج التالية:

- إن مخالطة زمرة الرفاق (81% ذكور، 8% إناث) من العوامل التي تؤدي إلى انحراف الشباب، يليها عدم شغل أوقات الفراغ (61% ذكور، 76% إناث)، والشعور بالملل (60% ذكور، 52% إناث).

- إن المشكلات الأسرية، والفشل الدراسي والفشل العاطفي، تعد من الضغوط الاجتماعية التي تؤدي إلى انحراف الشباب، وقد أجاب بذلك 47% من الإناث، مقابل 17% من الذكور.

- إن النشاط الترويحي الذي أفصح عنه أفراد العينة ضار وينتشر بين الذكور، ويتمثل ذلك في الذهاب إلى الملاهي أو التحرش بالفتيات في الأسواق (24%) أو الدخول في مغامرات بين الشباب لسباق السيارات (57%) أو لعب الورق واللهو (46%) وهذه الأنشطة في مفهومها ضارة بالأفراد وينعكس ذلك في سلوكياتهم السلبية، ما يضر بمصلحة المجتمع في نهاية الأمر.

---

(185) د. عبد المنعم المشاط: التنشئة السياسية في دولة الإمارات العربية المتحدة، شؤون اجتماعية، العدد التاسع عشر الفقرة الخامسة – خريف 1988، ص 14–15.

(186) شاكر خصباك: مرجع سابق، ص 205.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

4. أنماط الجانحين في مجتمع الإمارات

أوضحت بعض الدراسات، أنه يوجد في مجتمع الإمارات نمطان أساسيان من الجنوح:

النمط الأول:

نمط الجنوح الأصيل، ويتميز بتوافر معظم أو غالبية العوامل المؤدية إلى الجنوح، مثل التفكك الأسري وسوء أساليب التربية والتنشئة داخل الأسرة، والتسرب الدراسي والبطالة وضعف ونقص الاستبصار بسلوك الجانح، وقوة الغرائز الفطرية والعدوانية[187] ويمارس صاحب هذا النمط أساليب متعددة من السلوك الجانح وليس أسلوباً واحداً، فهو يقدم على السرقة وتعاطي الخمور وقيادة السيارات وسرقتها والاعتداء الجنسي. كما يقدم على أنماط سلوكية متكررة، ويقاوم الجانح أي علاج أو تقويم يقدم له.

النمط الثاني:

وهو نمط الجنوح العارض، الذي يكون نتيجة لظروف معينة ومؤقتة، أو تورط مع آخرين، أو نتيجة لهزات ومواقف أليمة، ويأتي السلوك الجانح في مثل هذه الحالة رد فعل مؤقت وليس متكرراً، ويتميز هذا النمط ببناء أسري متماسك وعلاقات أسرية عادية ونمو نفسي عادي. ويتميز أصحاب هذا النمط بأنهم لا يعاودون ارتكاب الجرم مرة أخرى، ويستجيبون لأساليب التقويم والعلاج التي تقدم لهم، وهم يمثلون النسبة الكبرى من الجانحين في مجتمع الإمارات[188].

---

(187) عبدالعزيز الصرعاوي: دراسة سبق ذكرها، ص 29.

(188) عبد الرحمن غنيم ومحمد إبراهيم الشاعر: مرجع سابق، ص 25-27.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

5. حجم الظاهرة في مجتمع الإمارات

من الجدير بالذكر أن حجم ظاهرة جنوح الأحداث في مجتمع الإمارات محدود عند مقارنته بالمجتمعات الأخرى[189]. وكما أكدنا من قبل، فإن مجتمع الإمارات- قبل اكتشاف النفط- لم يكن يعرف ظاهرة جنوح الأحداث، أو يعانيها على الإطلاق، فالمشكلة ظهرت حدتها وزادت مع حدوث إيقاع التغير الاجتماعي العميق الذي صاحب الاكتشافات النفطية.

وتؤكد كثير من الآراء أن الأرقام الإحصائية الخاصة بالمشكلة لا تعكس أبعادها بدقة، ذلك لأن الإحصاءات المعلنة لا تشمل سوى الأحداث الجانحين الذين حررت في حقهم محاضر شرطية أو الذين تم تسليمهم إلى مؤسسات الرعاية الاجتماعية، وهناك حالات أخرى لم يتم التبليغ عنها، وبالتالي لا تظهرها الإحصاءات[190].

وعلى أي حال، فإن إحصاءات السنوات (1984-1988) توضح لنا مجموعة من الحقائق على النحو التالي:

- تحققت أعلى معدلات الزيادة في انحراف الأحداث في إماراتي الشارقة وعجمان، حيث تضاعف العدد نحو 11 ضعفاً، و7 أضعاف في الإمارتين على التوالي.

- إمارتا رأس الخيمة والفجيرة لم يتحقق فيهما أي تغيير، وهي ملحوظة ذات دلالات، إذ تنخفض فيها نسبة الوافدين بالإضافة إلى أنها أقل تأثراً بالتيارات الثقافية الوافدة.

---

(189) القيادة: مصدر سابق، ص 121.

(190) شاكر خصباك: مرجع سابق، ص 184.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعن اختلاف جرائم الأحداث طبقاً للجنسين أوضحت الإحصاءات ما يلي:

- يلاحظ أن نسبة الأحداث الجانحين المواطنين بلغت في المتوسط نحو 57.3%.

- ارتفعت نسبة الزيادة في أعداد الأحداث الجانحين الذين ينتمون إلى جاليات آسيوية بنحو (90%) وهي نسبة تفوق النسب المناظرة بين نظرائهم الذين ينتمون إلى الجاليات العربية (71.5%) أو المواطنين (26.7%).

- إن أعلى معدلات الزيادة في أعداد الأحداث الجانحين كانت بين أبناء الجنسيات التالية: الهندية، الأردنية، الفلسطينية، الباكستانية، العراقية، المصرية[191].

أما من حيث توزيع الأحداث الجانحين حسب الجريمة التي ارتكبوها عام 1988، فقد أوضحت إحدى الدراسات ما يلي [192]:

- 35.4% من الأحداث الجانحين تورطوا في جرائم السرقات.

- 14.9% من الأحداث الجانحين تورطوا في جرائم الإيذاء.

- 5.3% من الأحداث تورطوا في جرائم مخلة بالأمن العام.

- 4.3% من الأحداث تورطوا في جرائم تناول الكحوليات أو حيازتها.

- 7.7% من الأحداث تورطوا في جرائم مخلة بالآداب العامة.

---

(191) علي خليفة الكواري: مرجع سابق، ص 89-88.

(192) حليم بركات: المجتمع العربي المعاصر، ص 451.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد أوضحت إحدى الدراسات حول مظاهر الانحراف المبكر لدى الشباب، الذي يتمثل في كل فعل يقدم عليه الحدث بدوافع فردية تتعارض مع المستوى الخلقي السائد والمعايير الاجتماعية، والمتمثلة فيما يلي:

الفرار من البيت والمدرسة، والنزوع إلى الشغب والتشرد في شكل تجمعات صغيرة، والاعتداء على الملكية العامة والخاصة كالسرقة والشذوذ وتجربة التدخين والخمر والمخدرات[193].

(193) خزعل مهدي جاسم: التنمية الاقتصادية في الإمارات العربية المتحدة، ص 20-21.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل التاسع

في استنهاض الهوية العربية
ورسم المستقبل العربي

آراء نخبة من المثقفين العرب

"إن مبدأ الشورى الذي استمر في هذا البلد مئات السنين، سوف يظل باقياً أبد الدهر"

الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان –طيَّب الله ثراه–

أكتوبر 1975 – ندوات رواق عوشة بنت حسين الثقافي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ندوات رواق عوشة بنت حسين الثقافي

"إن اغتيال الحرية لا يأتي ولا يكون إلا من جاهل"

الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان –طيّب الله ثراه–
1976/4/19م

يجمع مجتمع الإمارات ما بين الحداثة والقدم، ويتعرض منذ بدء الاستقلال وقيام الوحدة لعدد من التحديات، أهمها المشكلة الديموغرافية وآثار الهجرة الآسيوية والعمالة الوافدة. من هنا جاء البحث والتأكيد على الهوية العربية استناداً إلى الجذور الحضارية لهذا المجتمع وعاداته وتقاليده.[194]

هناك تحديات كبيرة يطرحها عصر الاتصالات والإعلام الحديث على المجتمعات الإنسانية بعامة، وبالأخص على المجتمعات العربية، لأن هذه المجتمعات تمر أصلاً منذ القرن العشرين حتى يومنا هذا بمراحل تحولية من مجتمعات بدوية إلى مجتمعات مدنية في المناطق العربية الصحراوية، حيث تفجر النفط، ما أتاح المجال لقيام مجتمعات مدنية حديثة، وفي المجتمعات الزراعية العربية التي مازالت تبحث عن طريقها في تحول مجتمعاتها من مجتمعات إقطاعية زراعية إلى مجتمعات حديثة، وما يجره ذلك من صراع بين أيديولوجية قديمة وأخرى تتماشى مع حضارة العصر.

لمعالجة هذه الإشكاليات تم الدعوة إل ندوتين في رواق عوشة بنت حسين الثقافي،[195] الذي أسس لدراسة هذه المسائل. وأرى أن آراء السادة

---

(194) نظراً لأهمية هذا الموضوع وارتباطه بالهوية فقد أفردت له أبحاثي التالية:
– التراث الشعبي في دولة الإمارات – موزة غباش، ط2، 2003م.
– سوسيولوجيا العادات والتقاليد لمرحلة الميلاد في مجتمع الإمارات، موزة غباش، 1998م.

(195) كما أعددت في رواق عوشة بنت حسين الثقافي ندوتين تحت عنوان: نحو إطار حضاري للمجتمع العربي في القرن الحادي والعشرين وقد عقدت الأولى بين 15–18 نوفمبر 1994م، وكذلك نشرت مداخلات المشتركين في الندوة الثانية، في الجزء الثاني وهي الندوة التي عقدت من 6–8 ديسمبر 1995م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المشاركين في المنتدى تدخل في صلب موضوع هذا الكتاب، في إظهار أهمية وعينا لهويتنا، وأثر هذا الوعي في معالجة أدواء الحاضر ورسم إطار حضاري مستقبلي للمجتمع العربي.

وإني إذ أورد هنا البيانين الختاميين لهاتين الندوتين إضافة إلى ندوات وآراء أخرى، فإنني أشير إلى أهمية الرجوع إلى وقائعهما وآراء السادة المشتركين فيهما لتعذر إدراج هذه الوقائع بين دفتي هذا الكتاب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رسالة الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان - طيب الله ثراه-

السيدة موزة غباش المحترمة
رئيس رواق عوشة بنت حسين الثقافي
التاريخ: 1996/1/21م

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

لقد تسلم صاحب السمو رئيس الدولة، حفظه الله، مع الشكر رسالتك الموجهة إلى سموه بمناسبة الندوة العلمية المنعقدة في دبي من 6-8 ديسمبر 1995م، وكذلك كلمتي الافتتاح والختام والتقرير الختامي.

يشرفني أن أنقل إليك تقدير سموه الكبير لجهودك المخلصة والمشكورة التي بذلتها مع زملائك وأعضاء رواق عوشة بنت حسين الثقافي لإنجاح الندوة ولكل الجهود التي تبذلونها في إنجاح مشاريعه الثقافية والعلمية والأدبية.

كما يشرفني تسجيل فخر سموه واعتزازه بك وببنات الدولة أمثالك اللاتي يقمن بأداء واجبهن الوطني في كل الميادين وتلك الموجهة صوب تثقيف شباب الدولة من الجنسين ورقيهم في العلم والأدب، ويعتبركن سموه قدوة للجيل الصاعد من بنات الدولة المواطنات اللاتي يأمل فيهن سموه وجنباً إلى جنب مع أبنائه المواطنين كل الخير والهمة العالية في سبيل اكتساب العلم والمعرفة والتحلي بالأخلاق الإسلامية الفاضلة والتفاني في خدمة بلدهم وشعبهم بغية الوصول إلى آفاق أرحب من الرقي والتقدم والازدهار لدولتنا وشعبنا بفضل الله رب العالمين.

مع خالص التقدير
خميس بن بطي الرميثي
مدير مكتب صاحب السمو رئيس الدولة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رسالة ديوان ملك المغرب

من مستشار صاحب الجلالة
إلى جناب الدكتورة موزة غباش
رئيسة رواق عوشة بنت حسين الثقافي
الموضوع: شكر وامتنان

المرجع رسالتكن بتاريخ 1995/12/16م، مصحوبة بتقرير حول الندوة العلمية التي عقدتها مؤسستكن بدبي.

السلام عليكن ورحمة الله تعالى وبركاته:

وبعد، فإن ديوان صاحب الجلالة قد توصل برسالتكن المشار إليها أعلاه، وسرّه مجهودكن العربي وتطلعاتكن الحضارية التي استشرفت ما ينبغي أن تواجه به أمتنا العربية والإسلامية مستجدات القرن القادم.

وإنني إذ أبارك خطواتكن الموفقة، فإني أتمنى لكنّ التوفيق والنجاح.

وتفضلن بقبول فائق التقدير، والسلام

مستشار صاحب الجلالة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإطار الحضاري للثقافة العربية... مستقبلاً
توجهات الثقافة والهوية من منظور بعض المفكرين العرب
16-1994/11/18م

نظم رواق عوشة بنت حسين الثقافي في دبي عدداً من الندوات العلمية التي ترصد الهم العربي ثقافة وهوية، كون الثقافة والهوية الإماراتية جزءاً من هذا الوعاء العربي الكبير، وما ينطبق على الكل من مشكلات وحلول ينسحب على الجزء. وسنتطرق هنا إلى ندوتين كان جل النقاش فيهما يتمركز حول الثقافة العربية والهوية كأساس يحافظ على وجودنا، ويدفعنا نحو الحضارة بكل جوانبها فاعلين ومنفعلين.

الندوة الأولى
نحو إطار حضاري للمجتمع العربي
في القرن الحادي والعشرين
16-1994/11/18م

استهدفت هذه الندوة تشخيص معالم المجتمع العربي المتغير وآثار هذا التغير من خلال توصيف إطار موضوعي وآخر نظري يعبر عن واقعها الحضاري الأصيل، وكذلك استجلاء دور المفكرين العرب من خلال رؤيتهم النقدية للتراث العربي، وذلك للتوصل إلى أطر نظرية واضحة المعالم تكون منطلقاً لدراسة الجوانب البنائية والمكونات الثقافية للمجتمع العربي، وتوضيح دور البحوث العلمية والاجتماعية الرصينة في رصد حركة التغير المجتمعية لرفع حالة الرقي ومواكبة التطور العالمي الحديث، وللحفاظ على هويته الثقافية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إن هذه الأهداف تحاول طرح أفكار أولية حول تكوين إطار حضاري للمجتمع العربي في القرن القادم، لذا فقد جاءت أوراقها لتدفع المشاركين نحو بلورة أفكار تتعلق بمختلف القضايا الاجتماعية والثقافية والفكرية العربية في ضوء المتغيرات الإقليمية والعالمية.

لقد ناقشت الندوة محاور عديدة على مدار ست جلسات، ولكن سنتناول هنا فقط المحاور التي تطرقت لموضوع الهوية كجزء رافد لدراستنا.

أولاً: محور الهوية العربية

قدم هذا المحور أربع أوراق عمل تناولت الموضوعات الآتية:

- التخلف والتنمية في المجتمع العربي.
- أثر المستحدثات التكنولوجية على الهوية العربية.
- دور تكنولوجيا الاتصال في تشكيل الهوية العربية المعاصرة.
- العربي في عيون عربية.

أثارت هذه الأوراق مناقشات واسعة نوجزها كما يلي:

- التأكيد على أن المجتمعات العربية لا تستورد التقنيات الحقيقية لكن فعاليات التكنولوجيا التي تركز على الطابع الاستهلاكي وتهمل الجانب الإنتاجي.
- الخطورة تكمن في طرح مسألة هوية الذات العربية بالتأكيد على الجانب الثقافي الذي يعكس موقفاً أيديولوجياً، بينما يجب التأكيد على الجانب الديمقراطي ومسألة الحريات الشخصية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- يقف مضمون الأوراق التي قدمت عند حدود الماضي والحاضر دون التطرق إلى المستقبليات والتفكير في كيفية الحوار مع الغرب والتعامل معه، ولدينا من الرصيد ما يمكننا من ذلك.

- التفكير في سؤال هام حول فشل العرب في تكوين كيان موحد على غرار الوحدة الأوروبية، على الرغم من وجود كل العناصر التي تمكنهم من ذلك.

- عند مناقشة الذات العربية في مقال الهوية علينا أن نطرح تساؤلات مستقبلية مثل الهوية الشرق أوسطية، ومفهوم وقضية العروبة الإسلام.

- يجب تجاوز النقاش النظري والتطلع إلى الخبرات العملية التي تبحث أثر التكنولوجيا في الهوية العربية من خلال دراسة مجتمعية.

ثانياً: محور الثقافة العربية والتحولات الراهنة

وقد تناولنا هذا المحور لما للثقافة العربية من تأثير في الهوية العربية بشكل عام والإماراتية بشكل أكثر خصوصية. وقد قُدِّم في هذا المحور ست أوراق هي:

- تحديات الثقافة العربية في ظل التحولات الراهنة.

- الثقافة وتحديات نظام الشرق الأوسط الجديد.

- الثقافة العربية في العصر الكوني.

- في ثقافة التحديث للبنى الأساسية للمجتمعات العربية المعاصرة.

- إشكالية التراث في الثقافة العربية المعاصرة.

- الشخصية العربية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ناقشت هذه الأوراق التحولات الثقافية والمشكلات المرتبطة بها من خلال التركيز على مكونات الثقافة العربية ومشكلاتها، وأشكال التهديد الذي تتعرض له هذه الثقافة نتيجة هيمنة الثقافة الكونية وموقف المثقفين وأنماطهم الفكرية، أما المنظور الأخير فيركز على الشخصية العربية.

لقد أثارت الأفكار المطروحة نقاشات معمقة نلخص أبرز عناصرها:

- تناول النقاش قضية التراث وتحوله، والتحديات التي يتعرض لها من تأثير الثقافة الكونية. وبرغم أن بعض الآراء أكدت عدم وجود تحديات حقيقية لتراثنا العربي، إلا أن آراءً مختلفة قد طرحت حول ضرورة دراسة الثقافة الكونية ومؤثراتها على الثقافة المحلية.

- انتقاد فكرة العولمة والتنويه إلى إمكانية تحدي هذه الثقافة، وإن كانت نقاشات أخرى أكدت أهمية التفاعل مع الثقافة الكونية والحوار معها بوصفها ثقافة إنسانية عامة، وأنها أصبحت واقعاً يجب التعامل معه.

- قضية الحداثة من حيث مفهومها والطريقة التي تؤثر بها على البنى العربية، وظهر هنا تأكيد على أن الثقافة العربية مرنة وبإمكانها أن تستوعب الثقافة الحديثة، ونوقشت أيضاً الطريقة التي يتم بها نقل الثقافة الحديثة، خاصة البراغماتية، أي نقل عناصرها الاستهلاكية دون مضمونها.

- تم نقاش الأساليب التي يمكن من خلالها أن تتجاوز الثقافة العربية تحدياتها الراهنة كالتخلص من التبعية والاعتماد على الذات والنظر إلى التاريخ العربي بمنظور خاص والتصدي للسوق الشرق أوسطية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثالثاً: محور المجتمع العربي في ظل التحولات الراهنة

قُدِّمت في هذا المحور أوراق عديدة سنذكر منها فقط ما يهمنا في موضوع دراستنا، وهي الورقة التي تناقش مصائر الدول الوطنية في ظل التكتلات الجديدة، وجرى التطرق إلى آلية العلاقة مع الغرب الذي كان يحضر كطرف ضروري للمقارنة مع واقع المجتمع العربي وإشكالاته الاقتصادية والاجتماعية والفكرية، حيث التساؤل الدائم حول الآليات الداخلية التي تبقي المجتمع العربي يعيش حالة التأخر.

وضمن هذا السياق نوقشت مسألة العولمة بوصفها خارجاً أصبح داخلياً، وأن الحديث عن التواصل بين الداخل والخارج لم يعد ذا معنى بعد أن أصبح الخارج مستوطناً في الداخل حيث تتحول الدولة إلى كائن خارج عن المجتمع، وغدت رأس جسر للتبعية للخارج ومن ثم توطينه للداخل.

رابعاً: محور قضايا المجتمع العربي بين الفكر الغربي والفكر الإسلامي

نوقشت العديد من الأوراق في هذه الجلسة، لكن سنتناول الجزء المتعلق بالهوية، وهي أبستومولوجيا التواصل بين الذات والآخر، والثقافة الوطنية والحداثة.

حيث ركزت على ضرورة تبني إطار نظري شامل يُمكن من الحوار والتواصل مع الفكر الغربي بعيداً عن التعصب وقريباً جداً من الموضوعية.

وناقش هذا المحور ضرورة وضع تعريف واضح للثقافة الوطنية، وهل هي ثقافة تستمد من المقومات التي تجسد ثقافة الوطن العربي (كاللغة والدين).

وفي ضوء ما تقدم نجد أن النقاشات أظهرت ضرورة متابعة الموضوعات، وأبرزت المداخلات التي أثيرت اهتمام الحضور بالبحث عن صورة مستقبلية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

للمجتمع العربي، وقد نالت قضية دور الإسلام في تحديد الهوية العربية مستقبلاً اهتماماً ملحوظاً. ونجحت هذه الندوة في تأكيد فكرة أن الإطار الحضاري للوطن العربي يحتاج في تكوينه إلى مزيد من التحليل والتعميق.

برنامج الندوة

مقدمة

كلمة الافتتاح

كلمة الممثل المقيم لبرنامج الأمم المتحدة الإنمائي

قصيدة للشاعر عارف الشيخ

محاور الندوة

المحور الأول

كمال شاتيلا: العرب والتحديات الإقليمية والمتغيرات العالمية.

عبد الإله بلقزيز: الواقع العربي مداخل مقترحة للتفكير.

هدى ميتكيس: تحديات النظام الدولي: جدلية الخصوصية والعالمية

قاسم العتمة: المشروع الحضاري العربي والمستقبل الحضاري للعالم

وليد إخلاصي: تنويع على حلم المشروع النهضوي

نصر محمد عارف: المحددات المنهجية لتحليل المشروعات النهضوية العربية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المحور الثاني

محمود عبد عيسى: سكان العالم في القرن الحادي والعشرين: التحديات والفرص

مها الفاهوم: دور الجماعات المؤثرة في تحقيق التنمية المستدامة

أمل إبراهيم الزياني: المرأة بين المنظور الدولي والواقع العربي

أسعد السحمراني: المرأة: الأم والنهضة المنشودة في الأمة العربية

فوزية العشماوي: المرأة العربية بين الفكر الغربي والفكر الإسلامي

إجلال حلمي: الأسرة العربية: التحديات والإمكانات

المحور الثالث

فاطمة الجيوشي: بعض قضايا المنهج في إطار نظرة مستقبلية

حيدر بدوي صادق، ومحمد إبراهيم عايش: الإمكانات والمضامين الاتصالية العربية وتحديات القرن الحادي والعشرين: نظرة تقويمية

إبراهيم أحمد الشمسي: الإعلام بين المحافظة والتغير

المحور الرابع

محمود فهمي الكردي: معالم التخلف والتنمية في المجتمع العربي دروس الماضي

فتحي أبو العينين: الثقافة العربية في العصر الكوني

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مسعود ضاهر: الثقافة العربية وتحديات النظام الشرق أوسطي الجديد

سيف الدين عبدالفتاح إسماعيل: المنظور الحضاري لهجرة العقول "خبرة بحثية"

المحور الخامس

الدكتورة يمن الحماقي: البعد الاقتصادي في الإطار الحضاري العربي

ختام الندوة

التقرير الختامي

الكلمة الختامية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الندوة الثانية والثالثة
محاور الهوية الوطنية
6–8 ديسمبر 1995م

ناقشت الندوة العديد من المحاور التي تم تناولها في سياق ندوة الرواق الأولى، وقد بُحثت في هذه الندوة المحاور التي أبرزت موضوع الهوية وهي:

- محور التعليم والمؤسسات الإعلامية في الوطن العربي، حيث تطرق البحث إلى قضايا المنهاج التربوي في إطار رؤية مستقبلية، وعرض لبعض المبادئ التربوية كالتعريب وتعلم اللغات الأجنبية وبناء الثقافة، وناقش المحور كتاب التربية القومية ومناهج التعليم دون تعليب مع إعمال النقد منذ المراحل الأولى حتى التعليم الجامعي، والاهتمام بالتراث الثقافي العربي والإسلامي.

- محور الثقافة العربية وتحديات القرن الحادي والعشرين، وتناول هذا المحور القيم التي يطرحها النظام الدولي وانعكاسات هذه القيم على المجتمع العربي، وتحديد الطريق نحو التعامل مع هذه القيم. وتطرق أيضاً للثقافة العربية في العصر الكوني ومفهوم الكونية والخصوصيات الوطنية، وأنماط الاستجابة للثقافة الكونية في الوطن العربي، وضرورة مساهمة جميع المثقفين العرب في الداخل والخارج في صياغة المشروع الحضاري نظرياً وعملياً. لقد خلصت الأبحاث والمداخلات إلى التوافق على مجموعة من الخطوط العريضة منها:

- الوحدة العربية يجب أن تُقدم من خلال مفهوم التكامل دون اعتماد القسر ومراعاة الكيانات الوطنية القائمة، فهذا هو خير سبيل للمنهج القومي الوحدوي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- يجب على المشروع الحضاري أن يجهز الأمة على الصعيد الرسمي والأهلي للممانعة ومقاومة المشروعات التي تستهدف الأمة في هويتها العربية-الإسلامية وفي ثروتها وحضارتها.

- إن المشروع الصهيوني يعمل على تفتيت الأمة إلى إثنيات عرقية وطائفية، وإلى ضرب الوحدة الوطنية في كل قطر عربي لأنه يرى فيها خطراً على مشروعه.

- إن الحصن الثقافي هو أول حصون المواجهة، فخط الدفاع الحضاري والثقافي هو المؤهل لصد الغارة المعادية، وهذا يحمِّل المفكرين وأهل الرأي مسؤولية عربية إسلامية وحضارية.

- إن الحكومات والمؤسسات الأهلية مع كل أفراد المجتمع مطالبون بالعمل متعاونين من أجل بيئة سليمة.

- إن المؤسسات الأهلية بمختلف أنواعها واهتماماتها تشكل مرتكزات المجتمع المدني، وهي أساس صنع المستقبل والنهضة، لذا من الضروري في المشروع الحضاري إعطاء هذه المؤسسات دورها لتسهم مع المؤسسات الحكومية في النهضة المرجوة والمشروع الحضاري المنشود.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ختام ندوة مركز الخليج للدراسات 2008

ملحـق

في التاسع من فبراير 2008 دعا مركز الخليج للدراسات لندوة تحت عنوان "**ندوة الهويـة الوطنيـة**" استجابة لتوجيهـات صـاحب السمو الـشيخ خليفـة بـن زايـد، لبحث مسألة الهوية، وقد شارك في الندوة:

- **سعيد حمدان:** كاتب وصحفي.
- **سعيد محمد الرقباني:** مستشار حاكم الفجيرة.
- **د. سليمان موسى الجاسم:** مدير جامعة زايد.
- **د. شيخة الشامسي:** مدير مركز المواطن والتنمية.
- **الفريق ضاحي خلفان:** قائد عام شرطة دبي.
- **عائشة إبراهيم سلطان:** كاتبة وصحفية.
- **عبدالرحمن الجروان:** مستشار- الديوان الأميري في الشارقة.
- **د. عبدالرزاق الفارس:** مجلس دبي الاقتصادي.
- **د. عبـدالله عمـران:** رئـيس مجلـس إدارة دار "الخلـيج" للـصحافة والطباعـة والنشر.
- **عبدالله العوضي:** جريدة الاتحاد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- **عبدالله العويس:** مدير عام دائرة الثقافة والإعلام- الشارقة.
- **د. فاطمة الصايغ:** أستاذ في جامعة الإمارات.
- **محمد حمد عمران:** وزارة الخارجية.
- **معالي أحمد الطاير:** محافظ مركز دبي المالي العالمي.
- **د. حصة لوتاه:** أستاذة الإعلام بجامعة الإمارات.
- **معالي حميد القطامي:** وزير التربية والتعليم.
- **د. أحمد سيف بالحصا:** رئيس جمعية المقاولين وصاحب شركات بالحصا.
- **معالي خلفان الرومي:** وزير الإعلام سابقاً.
- **أحمد شبيب الظاهري:** النائب الأول لرئيس المجلس الوطني (سابقاً).
- **د. خليفة السويدي:** مدرس التربية بجامعة الإمارات.

وبعد مداولات مستفيضة، نشرها مركز الخليج للدراسات في كتاب،[196] توصل المجتمعون إلى تلخيص النتائج التي توصل إليها المنتدون، وإنني أضم صوتي إلى صوتهم فيما أعلنوه، وأضيفه إلى ما توصلت إليه في بحثي هذا.

وفيما يلي النص الكامل للبيان الختامي، الذي يضيف بالآراء القيمة التي وردت فيه إلى هذا الكتاب قيمة وثراءً، دون إغفال تحفظات طفيفة فيما يتعلق بتعريف الهوية، مقارنة بما ورد في بحثي.

---

(196) ندوة الهوية الوطنية، دار الندوة د. عبدالرزاق الفارس، منشورات مركز الخليج للدراسات، الشارقة 2008م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نقاط الاتفاق

1. اتفق جميع المتحدثين في منتدى الهوية الوطنية على أن عنصري اللغة والدين من أهم العناصر الأساسية في الهوية الوطنية، وأن دستور الاتحاد أكد على اللغة العربية كما أكد على الدين الإسلامي كأساس للدولة. وشددوا على أن اللغة هي وعاء للثقافة.

2. تنوعت الآراء بين من يعتبر أن الولاء والانتماء للدولة يأتيان من صميم مكونات الهوية الوطنية، وبين من جمع بين اللباس الإماراتي والديكور الداخلي في البيوت المتعلق بالموروث الاجتماعي، لكن الجميع اتفقوا على أن هناك عناصر ثابتة وعناصر متغيرة في الهوية الوطنية، وإن اللغة والدين عنصران أساسيان، فضلاً عن الولاء والانتماء للدولة، وبين العناصر المتغيرة والمتحولة وهي اللباس والعمران.

3. اتفق الجميع أيضاً على أن الهوية الوطنية همٌّ دائم، بحاجة إلى جهد متواصل حتى يمكن حمايتها من التآكل والانصهار، خصوصاً في ظل الخلل الحاصل في التركيبة السكانية، والمشاكل التي يفرزها نمط التنمية المتبع.

4. تعرض المتحدثون إلى أهمية اقتداء المؤسسات الحكومية وغيرها بقرار صاحب السمو رئيس الدولة باعتبار العام 2008 عام الهوية الوطنية، والتقاط ما جاء في الخطة الاستراتيجية التي طرحتها الحكومة أيضاً. وهنا ركز المتحدثون على أهمية التعاون والتنسيق بين كافة المؤسسات الحكومية وغيرها، والتعاون مع المواطنين في خدمة القضايا التي تساهم في تعزيز الهوية الوطنية.

5. كما تعرضوا إلى المشاكل التي تصيب جوهر الهوية الوطنية وطبيعة العلاقات بين المستوى الاتحادي والمستوى المحلي، إذ رأوا أن طغيان الهم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المحلي على الاتحادي يخلق تداعيات خطيرة على مفهوم الهوية والمواطنة، وإن الأمر يستوجب تعزيز الهوية عبر التلاحم وتأكيد الاتحاد.

6. اتفق المجتمعون أيضاً على أن المواطن الإماراتي في خطر وليس الهوية الوطنية فقط، مشيرين إلى أن الموروث الثقافي يتعرض لعوامل التشويه والتداخل من قبل القيم المجتمعية الأخرى، فضلاً عن التغيير الاجتماعي الناتج من التحول السكاني الذي يخلق مخاطر على الهوية ومستقبلها، خصوصاً في ظل تنامي وتزايد المكونات السكانية الأجنبية على حساب الوجود الإماراتي.

7. طالب الجميع بأهمية إعادة الاعتبار للمواطن عبر التأكيد على التشريعات الاتحادية والثوابت الدستورية التي تدخل في صميم الهوية الوطنية، فضلاً عن ضرورة إعادة التوازن السكاني وتوازن سوق العمل، مع تعزيز اللغة العربية والتشديد على أنها اللغة المتصلة بالتعليم والإعلام والثقافة بشكل عام، بما يحقق التنمية البشرية المستدامة للهوية الوطنية.

8. اعتبر المجتمعون أنه من الأهمية بمكان الأخذ بعين الاعتبار المسئولية الجماعية المترتبة على كاهل كافة مؤسسات الدولة والمؤسسات المجتمعية الأخرى، نحو التفاعل والاستنهاض الجماعي الذي يمكن من خلق بيئة تحفيزية تساعد الجيل الإماراتي الجديد على العودة إلى حضن الموروث الثقافي ودفء اللغة العربية الأم، فضلاً عن أهمية رسم السياسات التي تدعو المواطن إلى زيادة التكاثر الطبيعي في ظل الأوضاع الديموغرافية الحالية.

9. وتم التشديد على أهمية ربط التنمية الاقتصادية بالتركيبة السكانية، وبقدرة الدولة على امتصاص الأعداد الهائلة من الأجناس الأجنبية، تعزيزاً للتركيبة السكانية المحلية وعدم انصهارها وذوبانها في الخليط السكاني.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ملخص آراء المشاركين

- **سعيد غباش:** أقترح أن يكون عنوان الجلسة مأزق الهوية الوطنية وليس منتدى الهوية الوطنية، وكنت أتمنى استكمالاً لما جاء في خطاب صاحب السمو رئيس الدولة حول الهوية الوطنية بأن تكون هناك مجموعات عمل أو توجيه رئاسي لمتابعة هذا الموضوع، انطلاقاً من تبنيه الرئاسي والتقاطه الحكومي والعمل على ترجمته. وأكد على أن المدخل الأساسي لإصلاح الهوية يتطلب إعادة النظر في مسار التنمية، ولابد من تطوير مفهوم وطني يسمى المصالح الوطنية والتي لا يمكن تجاوزها كما لا يمكن تجاوز الدستور. قال: إن على الخطاب الرسمي أن يتغير وأن يكون خطاباً مهتماً بالإنسان وتنميته.

- **د. ابتسام الكتبي:** ليست هويتنا فقط في خطر وإنما وجودنا أيضاً في خطر، ومع الأسف لدينا هويتان، واحدة محلية وأخرى اتحادية، وهناك إشكالية التواجد الأجنبي ومخاطره على الهوية، فضلاً عن سياسة التعليم والغول الاقتصادي الذي لا يعرف الضوابط والمعايير المحددة. وشددت على أن قضية الهوية الوطنية هي قضية أمن قومي، وهناك حالة انزواء وخوف عند المواطن الإماراتي، وهو لا يأخذ دوره في الحياة كما يجب، كما أن الانتماء يأتي بالشراكة، داعية للتحاور مع المسئولين حتى يمكن تجاوز الأخطار التي تمس الهوية الوطنية، وترجمة القرارات فوراً على الأرض.

- **د. سليمان الجاسم:** الهوية الوطنية ليست مرتبطة بفترة زمنية محددة، وعلينا تغيير عنوان المنتدى إلى مأزق الهوية الوطنية، وعلى الجميع يقع الدور في خلق الهوية الوطنية التي عليها أن تستمر بدون سقف زمني محدد حتى تحقق أهدافها. وقال: إن علينا أن نفرق بين تعليم اللغة الإنكليزية وبين تدريسها كمهارة يتقنها الأبناء.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- **د. سعيد حارب:** انتماؤنا الوطني بدأ يتراجع، وعلينا الاعتراف بأن هذا الانتماء يواجه مشكلة في الواقع الحالي، ليس فقط تراجعاً على الصعيد الاتحادي وإنما على الصعيد العربي. وقال إن هناك تياراً داخل بنيتنا في منطقة الخليج وربما حتى في الإمارات، يحاول أن يعزلنا عن امتدادنا العربي الذي هو جزء من مكونات هويتنا. وتحدث أيضاً عن طغيان الامتداد الإنساني على الانتماء الوطني بحكم حركة العولمة وتغير الثقافة والمجتمع. د. حارب يتساءل عن موقع الأغنية الوطنية والبرامج الوطنية في ما يقدم من برامج في دولة الإمارات. كما تساءل عن دور إعلامنا الوطني في عام الهوية من تعزيز الهوية الوطنية؟

- **الفريق ضاحي خلفان:** الانتماء لدولة الإمارات العربية المتحدة عنصر مهم من عناصر الهوية، والولاء يشكل عنصراً مضافاً للهوية، وعلينا النظر في عملية التجنيس بحيث تكون هناك مواصفات محددة لهذه العملية، ثم إن موضوع الدين الإسلامي مهم ومكون من مكونات الهوية. وعلى من نمنحه الجنسية أن ينصهر في محيطنا ويتقبل عاداتنا وتقاليدنا. ويقول: إن الهوية الوطنية تتعرض وستتعرض إلى مرحلة العصف ومرحلة مفترق الطرق التي نعيشها الآن، فضلاً عن مرحلة الشتات ومرحلة الانجذاب المغناطيسي، ثم مرحلة التمييع، وأخيراً مرحلة ذوبان الهوية الوطنية.

- **د. شيخة الشامسي:** هوية أي شعب هي ثقافته التي تكونت عبر السنين، وهناك ارتباط وتلاقٍ بين الهوية والإبداع، وخصوصاً أن الإبداع هو الذي يميز الدولة عن الدول الأخرى، ومسؤولية تعزيز الثقافة تقع على المجتمع، بدءاً بالأسرة ومروراً بالمدرسة والتعليم والإعلام ووصولاً إلى القيادة السياسية. وقالت: إن الهوية في تغير دائم وتحمل النقد والتقييم، وقيمة الهوية ليست في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذاتها وإنما في ما تملكه من شعور بالخصوصية، وما تقدمه لنا من فرص للإبداع والنمو والتحضر. وأكدت بأن على الحكومة النظر في موضوع تقديم الإقامات وتوفيرها. والقطاع العقاري هو المسبب الأكبر لاختلال السكان، مع رأيها بضرورة وقف تعدد الجهات التي تصدر الإقامة والتي خلقت خللاً في التركيبة السكانية، وتحقيق توازن سكاني من خلال وضع سياسات تستهدف التركيبة السكانية. وركزت كذلك على أنه من الضروري فرض مادة التربية الوطنية في المدارس الخاصة والعامة.

- **سعيد الرقباني**: الهوية مرتبطة بالثقافة، وعلينا مراجعة الجيل الجديد والابتداء بالأسرة والمدرسة، والهوية ليست بطاقة محمولة وإنما هي في الوجدان والضمير، وعلينا التمسك بالوطن ليس عبر البطاقة وإنما عبر تعميق انتمائنا للوطن. واعتبر أن بقاءنا ووجودنا يكمن في الكيان الاتحادي وأن أساس الهوية الوطنية في الاتحاد.

- **حميد القطامي**: مكمن القلق المتعلق بالأقلية في السكان، وأي أقلية وجودها مزعزع بحكم القيم والانصهار في الثقافات الأخرى، فضلاً عن عنصر الثقافة والتكوين الثقافي الغريب عنا والذي يساهم في مأزقَةْ الهوية، وهناك القيم نفسها بالإضافة إلى الأرض التي هي أساس الهوية. يجب أن تكون هناك إدارة للهوية وفق برنامج. ولتعزيز الهوية الوطنية علينا التأكيد على التشريعات الاتحادية والثوابت الدستورية، وعلينا إعادة التوازن السكاني وتوازن سوق العمل، فضلاً عن تعزيز اللغة العربية في سلوكياتنا وبرامجنا ومؤسساتنا الرسمية وغيرها، بالإضافة إلى الإدارة الوطنية التي عليها أن تتوافق مع الثوابت الدستورية، وأخيراً موضوع التعليم والإعلام والثقافة الوطنية وتعزيز الاحتفالات والمناسبات الوطنية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- **عبدالله العوضي**: لا يمكن الحكم بالمواطنة من خلال البطاقة ومن له جذور لا يخشى البذور.

- **أحمد الطاير**: بفعل أيدينا نشطب ونلغي هويتنا وكياننا ووجودنا، ونحن بحاجة إلى عقد للهوية الوطنية في دولة الإمارات، لأن ما شطبناه ومحوناه في الماضي لا نستطيع أن نعوضه خلال عام. ولا أعتقد أن هناك برنامجاً حكومياً يتناول تطبيق قضية الهوية الوطنية، وبالإمكان تطابق كافة العناصر التي تمسّ الهوية باستثناء اللغة والدين. المسئوليات ضاعت في التجارة، وعلينا إنقاذ الدستور الذي ينظم عمل المؤسسات والعلاقات بين المواطن ووطنه. أبناؤنا يتعرضون لنوع من التهجين والأقلية باتت تقلد الأكثرية بحكم العوامل الثقافية والاجتماعية.

- **د. حصة لوتاه**: اللغة والدين عنصران أساسيان في الهوية الوطنية، وعلى المؤسسات المختلفة التقاط مبادرة الرئاسة والحكومة بما يخص الهوية الوطنية، بحيث يمكن تلمس الجهود وترجمتها على أرض الواقع. وما نراه في المؤسسات في ما يخص قضية التوطين مجرد قضية دعائية. هناك من ينظر إلينا بأننا إذا لم نتحدث اللغة الإنكليزية فيعني ذلك بأننا متخلفون.

- **عبدالرحمن الجروان**: مؤسسات التربية والتعليم خارجة عن سياق توجهات الدولة والحكومة باعتبار العام 2008م عام الهوية الوطنية، وهو يؤكد على أهمية عودة وزارة الإعلام لتمارس دورها الإعلامي وتحمل الهموم الوطنية إلى جانب الدولة. وقال أيضاً: إننا نتعرض لمؤامرة ولمخطط تدمير هذه الدولة وتحويلها من بلد عربي إلى بلد آخر، وليس هناك توازن بين التنمية الاقتصادية والمصلحة الوطنية وإنما الاقتصاد من أجل المال.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- **د. أحمد سيف بالحصا:** علينا الإصرار على التعامل باللغة العربية في مؤسساتنا الرسمية وفي خطاباتنا الموجهة، والتعليم الآن ليس بيدنا، بل أخذ الطابع التجاري وابتعد عن الهوية الوطنية

- **خلفان الرومي:** المحلي بدأ يطغى على الاتحادي، وعلينا التركيز على الولاء ولا يمكن تصوير الوطن بطابع البريد أو العلم، كما علينا الاهتمام بلغتنا والاعتزاز بها، ونحن كعرب نغرّب هذه الأمة عن موروثها الثقافي والحضاري والإسلامي.

- **د. عبدالرزاق الفارس:** يتساءل عن إمكانية المحافظة على هويتنا الوطنية في ظل نمط التنمية الحالي وفي ظل التركيبة السكانية الحالية.

- **د. فاطمة الصايغ:** بعض المؤسسات الحكومية هي التي تعوق تعزيز الهوية الوطنية، وإذا لم تكن هناك سياسة مدروسة لتعزيز الهوية الوطنية فإننا نكون قد أقبلنا على نوع من الفوضى.

- **عائشة سلطان:** الجيل الإماراتي الجديد نجده ينتمي إلى نفسه أكثر مما ينتمي إلى الوطن، ومع الأسف لدينا بديل عن كل شيء وكل أدوارنا يقوم بها الآخرون، وذلك فقط لكي نلبي حاجة سوق العمل. والتركيبة الأسرية مختلة قبل أن تختل التركيبة السكانية.

- **أحمد شبيب الظاهري:** التحول الاجتماعي والاقتصادي الذي حصل هو الذي أدى إلى الاختلال في التركيبة الأسرية والسكانية، ويجب أن يكون هناك تخطيط للتركيبة السكانية والسكان.

- **د. خليفة السويدي:** تحدث عن التشريع والرقابة، بمعنى أن من يحصل على الجنسية الإماراتية عليه أن يتقن اللغة، وهذا حاصل مع الكثير من الدول التي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تعطي الجنسية لرعاياها، كما أكد على مبدأ الرعاية وتفعيلها في المؤسسات لحماية الهوية الوطنية من خطر التآكل.

رأيان إضافيان

- **د. جمال سند السويدي:** تعديل المادة 120 من دستور دولة الإمارات العربية المتحدة، بإضافة بند من البنود التسعة عشر التي ينفرد الاتحاد بالتشريع والتنفيذ فيها، والبند المقترح إضافته هو: "إصدار وإلغاء الرخص التجارية للمنشآت الصغيرة والمتوسطة والكبيرة، الصناعية والتجارية والخدماتية" وهذا البند سيمكن الدولة من نقل عملية إصدار الرخص من الدوائر المحلية إلى الحكومة الاتحادية، مما سيمكن الدولة من التحكم في عملية إصدار الرخص التجارية، ومنع المتاجرة في الرخص ومحاربة ظاهرة المنشآت الوهمية التي تتاجر في التأشيرات.

- إعادة النظر في نظام الكفالة الحالي لسحب صلاحية الكفالة من المواطنين[197].

- **د. حسين غباش:** "إن الانفتاح على التعاون الأوسع مع الدول المجاورة عُمان والبحرين، ضرورة لعملية البحث عن الهوية المفقودة، ضرورة للمستقبل الآمن المشترك"[198]. "إن تآكل الهوية هو تآكل للسيادة الوطنية"[199].

---

(197) عن مجتمع دولة الإمارات العربية المتحدة، نظرة مستقبلية ص 47.
(198) الإمارات والمستقبل وقضايا راهنة مرجع مذكور آنفاً ص 67.
(199) ص 34.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الهوية الدينية والهوية الوطنية والثقافات المشتركة

أ.د. محمد جابر الأنصاري

ثمة إشكالية بين الهوية الدينية والهوية الوطنية في مجتمعات العالم الإسلامي. فبينما نتحدث عن هوية دينية واحدة تجمعنا، نتوزع في أوطان متعددة تقوم على أساسها وحدات سياسية عديدة هي الأخرى، وذلك ضمن تصور مبدئي ونظري اعتقادي عن الوحدة الإسلامية. وهي إشكالية لابد من الإقرار بوجودها ومحاولة حلها صوناً للضمير الديني والوطني من الضياع والتشتت. وسنحاول المقاربة الموضوعية للمعطيات المعرفية لهذه الإشكالية في جانبيها، قدر المستطاع.

فإذا كانت دائرة الحضارة الإسلامية واحدة على سبيل المقارنة، فإنها شملت دوائر سياسية عدة في عصور تاريخية ليست بالقصيرة. بينما تطابقت دائرة الحضارة الصينية الواحدة، مثلاً، مع دائرة سياسية واحدة أيضاً، عدا فترات قصيرة بمعيار التاريخ.

وفي العصر الحديث انبعث الإسلام ونهضته في أوطان عدة بعضها تجزأ بفعل الهيمنة، وبعضها كان إرثاً تاريخياً ورثه سكانه.

وقد أخفقت محاولات فرض العلمنة كمفهوم ومصطلح من خارج الدائرة الإسلامية على مجتمعاتها ولم يتقبل الناس هذا الأمر، وإن تقبلوا مفاهيم حديثة أخرى لا تتناقض أو أقل تناقضاً مع المفاهيم الإسلامية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويلاحظ الراصد، بهذا الصدد، أن مشروعات التغيير التي تصادمت وتناقضت صراحة مع عقائد الناس لم يكتب لها النجاح، بينما كانت المشروعات التطويرية الأخرى، وإن حملت جديداً، فإنها كانت أكثر قبولاً واستمراراً.

والواقع أن ثوابت الموروث الديني تبقى في نفوس الناس، حتى وإن تغير فكرهم وثقافتهم وعصرهم، كما حدث للغربيين من أوروبيين وأمريكيين على سبيل المثال. ومثلهم العلمانيون الإسرائيليون المجندون لخدمة الدولة اليهودية المؤسسة على معتقد ديني. وذلك تأكيداً لشخصيتهم الموروثة، وحتى عندما ترفض تصنيف نفسك فإن الآخرين يصنفونك ويفرضون عليك فرضاً هويتك الموروثة شئت أم أبيت، بغض النظر عن مدى اعتدالك أو انفتاحك على أفكار أخرى. ولعل أكثر المسلمين في الغرب بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر 2001 يدركون معنى هذا القول من خلال طبيعة المعاملة الظاهرة أو المبطنة التي تلقوها من الآخرين.

تعاني دول الاتحاد الأوروبي اليوم أزمة اختيار كبرى في مسألة قبول تركيا أو عدم قبولها الانضمام إلى النادي الأوروبي. ويميل أغلبها إلى رفض ذلك أو تأجيله. وإذا كان التخوف من الضغط الاقتصادي والبشري أحد أسبابه، فإنه لا يمكن التغاضي عن الأسباب الأيديولوجية. فأغلب شعوب تلك الدول تخشى من تركيا لأنها ذات جذور غير مسيحية. وبعض قادة أوروبا يصرحون بذلك، وثمة أقوال شائعة عن جهد ضخم للفاتيكان لوقف انضمام تركيا إلى أوروبا لأسباب دينية.

وإذا حدث ذلك بالفعل، فإنه سيكون حدثاً فاصلاً في توجيه مسار العلاقة بين الغرب والعالم الإسلامي ولن يقل عن دعم الغرب لإسرائيل في تعدياتها حيال الفلسطينيين العرب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعلى العموم فالملاحظ فإن الأوطان الحديثة ارتكزت في بعض جوانبها على الإرث الديني في سائر أنحاء العالم. فالأوطان التي أغلبيتها بروتستانتية قامت على جذور هذا المذهب المسيحي. وهذا ينطبق في أوروبا الشرقية وروسيا من حيث استنادها على الإرث الأرثوذكسي، وفي الهند تلعب الهندوكية دوراً لا يمكن إغفاله برغم أنها استقلت وحكمت من حزب علماني يأتي برؤساء رمزيين للدولة من خارج الهندوكية... إلخ.

والمجتمعات الإسلامية ليست بدعاً في ذلك فللموروث الديني المذهبي دوره الذي لا ينكر كما في إيران وغيرها من المجتمعات الإسلامية السنية بالمقابل. إلا أنه مهم جداً أن تقرر النخب المؤثرة ومعها غالبية المجتمع المسلم أي تفسير للدين تعتمد، فثمة فارق كبير بين نهج الغلو والتشدد في التفسير، والغلو مما نهى عنه القرآن الكريم ذاته، وبين نهج المرونة والتوسط الذي تكشف أي دراسة موضوعية أنه كان النهج المؤثر في انتشار الدين الحنيف وقيام حضارته الزاهرة الجامعة.

وتعود شعوب العالم، بعامة، في عصرنا إلى الاحتماء بهويتها الدينية في ظل التحدي المعاكس الذي تحمله العولمة إلى خصوصياتها.

بعد تقرير هذه الظواهر بشأن تأثير الهوية الدينية يجمل بالباحث أن يلتفت إلى ظاهرة الهوية الوطنية وخاصة في مجتمعات العالم الإسلامي.

ذهب جمال الدين الأفغاني إلى أنه لا جنسية للمسلمين غير الجنسية الإسلامية وذلك في صدد دفاعه وتبنيه لاستمرار الخلافة العثمانية وبقاء المسلمين على ولائهم لها.

وقد ظهر تيار جديد في العالم الإسلامي مؤخراً يدعو إلى إعادة الاعتبار للدولة العثمانية، غير أن حركات المعارضة الإصلاحية التي واجهتها في المجتمعات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العربية حينئذٍ؛ كحركة التوحيد في شبه الجزيرة العربية، والثورة الهاشمية في الحجاز والشام، والحركة السنوسية في شمال إفريقيا كان لها رأي مخالف في تلك الدولة من واقع المعاملة، ومعاملة العرب في كل الحالات.

ويلاحظ المتأمل في مجرى التاريخ الإسلامي منذ بداياته أن بلداً مسلماً كمصر كانت له شخصيته المتميزة. كما كان للغرب الأقصى نظامه السياسي المتميز في إطار الحضارة العربية الإسلامية. وكان لإيران نظامها المختلف، وبعد الثورة الإسلامية، نص دستورها- كما يلاحظ المفكر الإسلامي السوداني عبد الوهاب الأفندي- على اعتماد الهوية الإيرانية في الترشح وسمح لليهود والأقليات المشاركة في البرلمان على أساس انتخابات خاصة. ويضيف، واجه هذا الشرط الدستوري انتقاداً بأنه (غير إسلامي).

وكان فيلسوف التاريخ العربي، عبدالرحمن بن خلدون، قد تحدث في سياق (المقدمة) عن دولة العرب في الإسلام، ثم دولة الفرس، ثم دولة الترك، مميزاً بين القوميات الرئيسية الثلاث.

وفي النظام السياسي الإسلامي اعتبر أهل الديانات السماوية الأخرى (أهل ذمة) وعوملوا كذلك على تفاوت بين النظرية والتطبيق. وعندما نشأت النهضات والحركات الوطنية الحديثة في دول الثقل العربي والإسلامي وجد قادتها صعوبة في التمسك بالحرفية التقليدية لذلك المفهوم. وطرحت الحركة الوطنية المصرية التي قادها سعد زغلول شعار (الدين لله والوطن للجميع)، ولم يطرح مفهوم الوطن في الوعي العربي العام طرحاً مضاداً للدين، عدا بعض النخب. ومن المفكرين الإسلاميين الذين حاولوا تطوير مفهوم (أهل الذمة) الدكتور محمد سليم العوا الذي دعا إلى أهمية التمييز بين شريعة الفتح التي أصبح بمقتضاها اتباع الديانات السماوية (أهل الذمة) وشرعية التحرير ضد المحتل الأجنبي التي أسهم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فيها على قدم المساواة مسلمون وغيرهم فاستحق الجميع- بعد تضحياتهم من أجل التحرير- حق (المواطنة).

ويلاحظ المؤرخ أن الملك عبدالعزيز آل سعود على تمسكه القوي بالدين والشرع يؤكد أن (حب الوطن من الإيمان) في خطاب له وجهه في تاريخ مبكر للغاية في مسار التطور ببلده عام 1929 وعندما انتقل من مكة المكرمة إلى المنطقة الوسطى (لمشاهدة الأهل والبلاد) كما جاء في خطابه. (يراجع: محيي الدين القابسي، المصحف والسيف ط3، ص55- نقلاً عن صحيفة (أم القرى) بتاريخ 1929/7/5).

وكان النبي الكريم ﷺ في الأساس مرناً ومتسامحاً بين العقيدة والوطن، وفي دعوته حكام الدول المحيطة به ومن ضمنهم المنذر بن ساوى ملك البحرين العربي، يعرض عليهم إذا قبلوا بدعوة الإسلام البقاء في حكمهم والاستمرار في مناصبهم السياسية. وربما فسر بعض الناس هذه الإشارة إلى أنها تمييز بين الديني والسياسي. وهي تحمل الإشارة أيضاً إلى توافق بين الديني والوطني، بحكم أن النظام السياسي الذي يقبل النبي الكريم باستمراره إذا قبل الإسلام يحكم بلداً أو وطناً محدد الحدود، واضح المعالم؛ حيث يصبح مقبولاً إسلامياً في حدوده الوطنية إذا تقبل الدعوة. وعندما وضع رسول الله ﷺ (صحيفة المدينة)؛ كأول تعاقد سياسي دستوري في الإسلام، كان بحكم الواقع، حينئذٍ، يحصر ذلك في نطاق يثرب ونواحيها. ولم يؤثر في تلك الخطوة كونها محصورة بالضرورة في موقع جغرافي بعينه ولا تنطبق إلا على ساكنيه مسلمين وغيرهم.

أما الثقافة المشتركة الجامعة بين الهويتين الدينية والوطنية في عالمنا العربي فهي (الثقافة العربية) التي أساسها اللغة. "دون وحدة اللغة لا تنشأ ثقافة مشتركة". إن الذي رسم حدود الوطن العربي حدد جغرافية فاصلة، غير أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المعمول في تحديد العروبة انتشار العربية كلغة أمّ وثقافة. وثمة حديث شريف ينسب إلى النبي الكريم أورده ابن تيمية يقول (ليست العروبة بأم وأب لأحدكم، إنما العربية اللسان) وسواء كان هذا الحديث من الحديث الصحيح أو كان ضعيفاً فإن تواردة في الذاكرة الجمعية للأمة واستشهاد أحد فقهائها الكبار به دليل على أهميته البالغة.

وفي منطوق الحديث نرى تجاوزاً للأصل أي الأم والأب، وكانت العروبة -قديماً- تحدد بنقاء الأنساب أساساً، فأصبح اللسان العربي، كلغة أم، هو المحك في تقرير العروبة والانتماء للثقافة العربية. وكان الجاحظ، سيد البيان العربي، زنجياً من إفريقيا، لكن تمكنه من اللسان العربي جعله من أعلام العربية، ومثله في تاريخنا وحاضرنا عدد غير قليل. ولو نظرنا اليوم في انتماءات الشعوب العربية إثنياً وعرقياً لوجدنا أن اللسان العربي وحده، كلغة أم، هو المعول عليه في تقرير عروبتنا. واللغة هي التي رسمت الحد الفاصل بين المنطقة العربية، وبين كل من إيران وتركيا من ناحية أخرى كما رسمت الحدود بين الدول الإسلامية ذاتها وبين الدول عموماً وعلى أساسها تقررت التوجهات السياسية لكل بلد بحكم انتماءاته الثقافية.

ومشكلة الأكراد كمسلمين في الدول الإسلامية التي تتقاسمهم أن لهم لغة مختلفة؛ أي ثقافة مختلفة أدت إلى إيجاد هوية خاصة بهم في إطار الحضارة الإسلامية الجامعة، إلا أن الثقافات المتنوعة القائمة على لغات مختلفة هي التي تتعدد وتتباين أوطاناً، وإن توحدت الحضارة، والهوية الدينية.

الهويات الوطنية في عصرنا حقائق اجتماعية، وكما تعامل الإسلام مع القبيلة كواقع موضوعي في بناء المدن وتقسيم الجيوش، في صدر الإسلام، فإن المطروح أمامه اليوم من هذا القبيل التعامل مع الهويات الوطنية واستيعابها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والقرآن الكريم يحمل رسالة إلهية إنسانية عالمية إلى البشرية جمعاء. لكنه أكد في آيات ومواضع عدة منه أنه لسان عربي وحكم عربي. أي حكمة عربية بمصطلحها الأصلي في القرآن الكريم واللغة.

وذهب فقهاء مسلمون، إن (عربيته جزء من ماهيته)، ولذلك لا يترجم القرآن الكريم، بل تترجم معانيه.

ويتفق علماء اللغة في العصر الحديث مع هذا المفهوم الإسلامي والنبوي بشأن اللغة. فهي التي تؤثر في طبيعة الفكر، وطبيعة النظر إلى الوجود.

إن الثقافة العربية، بالمفهوم الذي أوضحناه، مرشحة لأن تكون جسراً جامعاً وواصلاً بين الهويتين في عالمنا العربي، ويعود إلينا كعرب مسلمين معاصرين أن نواجه هذه المهمة وأن نقوم بها، ونجاحها من عدمه يعتمد على عزيمتنا وما نمتلك من قدرة على التوافق الذي هو عنصر أساسي في بناء الأمم.

وكان القانوني المصري الكبير، عبدالرزاق السنهوري، رحمه الله، وهو واضع أكثر التشريعات والقوانين القائمة على التوافق بين أحكام الشريعة الإسلامية والقوانين الحديثة والتي اعتمدتها أكثر الدول العربية والإسلامية، قد دعا إلى أن تلتئم الأوطان الإسلامية القائمة في (عصبة أمم إسلامية) واحدة، فيما نراه تحسساً بثنائية العلاقة بين الهويتين الدينية والوطنية، وحرصاً على التوافق بينهما.

وليس ضرورياً اقتباس اقتراح السنهوري بحرفيته، لكننا نرى أنه يمكن أن يكون مدخلاً لإقامة الوئام المنشود؛ حفظاً للضمير الديني والوطني من الضياع والتشتت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خاتمـة

يقـول إلـيكس ميكـشلي[200] في كتابـه المعنـون "الهويـة" وفي مقدمـة هـذا الكتاب "وعلى الرغم من البساطة الظاهرة التي يتبدى فيها مفهوم الهوية فإنه على خلاف ذلك يتضمن درجة عالية من الصعوبة والتعقيد والمشاكلة، ذلك لأنه بالغ التنوع في دلالاته واصطلاحاته". ويشاركه في هذا الرأي أو يكتشف صوابيته كل باحث رصين في موضوعة الهوية.

وأعود للتأكيد في ختام هذا الكتاب أن المفهوم الميتافيزيقي للهوية "يحدد شخصية الأمم، الشعوب، والثقافات المختلفة بجوهر تركيب نفسي- عقلي ثابت ينطلق منه بصرف النظر عن الأوضاع الاجتماعية، الاقتصادية التاريخية التي تحيط بـه"[201] بحسب تعبير د. نـديم البيطـار، وأنهـا بـالمفهوم الـسيوسيولوجي التـاريخي "فالهوية القومية هي هوية نسبية وتاريخية، يحققها شعب ما عن طريق تفاعله أو علاقته الديالكتيكية مع التاريخ"[202] و"متابعة هذا المفهوم بصورة تاريخية مفصلة تتطلب مجلدات"[203]، وإذا كانت الشعوب والأمم تمر بدورات حضارية تبدأ بنهضة لتنتهي بعد تحقيق تطلعات هذه النهضة وأهدافها، إلى حالة من التقهقر والتراجع في عطاءاتها وإبداعاتها تبهت فيها ملامح هويتها، لتعود هذه الهوية للظهور مجدداً حينما تتوافر لها الظروف الموضوعية، ببروز أيديولوجية جديدة تحفزها لمرحلة عطاءٍ جديدة، كما سلف أن ذكرنا، فإن مراحل نهضات الأمم بكل أبعادها: النضالية من أجل نهضتها الجديدة، السياسية، والاجتماعية والثقافية بكل ما يحمله هذا التعبير من تنوع، هي التجليات المتعددة لخصائص هذه الهوية، على

---

(200) ميكشلي أليكس: الهوية، ترجمة د. علي وطفة، صادر عن دار النشر الفرنسي، طبع في دمشق 1993.

(201) حدود الهوية القومية- مرجع سابق ص 13.

(202) نفسه ص 3.

(203) نفسه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قاعدة "وحدة الشخصية" تبعاً لقواعد علم النفس الفردي والاجتماعي؛ حيث يحكم الشخصية التناقض في حال الأمراض النفسية والعقلية، هذه الأمراض التي يمكن أن تصيب الأفراد والمجتمعات، والتي تنطبق في كثير من الأحوال على مراحل تقهقر حال الأمم حيث تعاني حالة سيكولوجية تناقضية تشل قدرة الأفراد والمجتمعات على الإبداع والعطاء.

فهوية الأمم، تتجلى خصائصها بصورة رئيسية، وتبعاً للمراحل الزمنية، بموقفها من الإنسان وما ندعوه "الوضع الإنساني" وطبيعة مفهومها لحقيقة وطبيعة ممارساتها حيال هذه الحقوق، كذلك بطبيعة موقفها من مسألة الحق والعدالة ومدى التزامها بمقتضياتهما، أي من منظور فلسفتها لعلاقة الإنسان بالحياة، إذن وبكلمة موجزة هي فلسفة الحضارة التي تنتجها هذه الأمم في مراحل عطائها، وحيث إن الفنون من أدب وشعر ورسم وموسيقا وما إلى ذلك من وسائل التعبير الفني عن الذات الإنسانية، فيمكن قياس هوية الأمم بهذا المقياس، فتندرج إبداعات الأفراد ضمن هذا السياق العام لترسم الصورة العامة لهوية الأمة.

ولابد قبل أن ننتقل إلى نماذج من الأمثال التي تدل على هوية الأمة العربية –والهوية الإماراتية هي أحد مكوِّناتها ووجه من وجوه التنوع في وحدتها– من أن نسجل ملاحظة: إن التقييم العلمي لأي ظاهرة فكرية أو اجتماعية أو ثقافية يوجب وضعها ضمن إطارها وسياقها التاريخي، ومقارنتها بما يتزامن معها، وبالنقلة التي حققتها بين ما كان سائداً قبلها والوضع الذي أنشأته بعدها، وهل أضافت أساساً إلى التراكم الإيجابي لناتج الحضارة الإنسانية في مسار التقدم الإنساني؟ وما هو شكل هذا التقدم ومقداره وطبيعته؟ فلا يجوز المفاضلة بين ظاهرتين غير متزامنتين، واستعمال مقاييس راهنة لمحاكمة ظاهرة حدثت منذ عشرات القرون، فالتقييم العلمي والموضوعي للظاهرة يجب أن يرتكز إلى قواعد التزامن والسياق التاريخي وإلى التاريخ والتاريخ المقارن.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وإذا كنت في صلب الكتاب قد تحدثت عن رسالة الأمة العربية، وطبيعتها الإنسانية، واستشهدت بقول اتفق عليه عدد من ثقاة المؤرخين بأن "العرب أرحم الفاتحين" فلا يندرج ذلك تحت إطار التوصيف الميتافيزيقي للهوية الذي أوضحه الدكتور البيطار كسمة من سمات مفكري الغرب في هذا المضمار من أفلاطون حتى يومنا هذا "لأنه يفضل "الجوهر" عن الوقائع والتحولات الخارجية بدل ربطه بها"[204] وينطبق ذلك على بعض جهابذة الفكر الغربي الحديث مثل كوماجر الذي عنون كتابه "العقل الأمريكي"[205] أو كدراسة كاش "عقل الغرب"[206] أو عناوين "كالروح الصيني" أو "عقل الجنوب"... إلخ.

ولم أربط هوية الأمة بخاصة إثنية أو إنثروبولوجية أو عرقية اختص بها العرب، وإنما تكلمت على الهوية، من خلال عراقة جذورها كونها أولى التجارب الحضارية الإنسانية، ومن موقعها المتوسط بين الشرق والغرب وكونها مركز التفاعل الحضاري، بين روحانيات الحضارات الشرقية، وعقلانيات الحضارات الغربية، وكذلك من تجربتها التاريخية الناتجة من موقعها الجغرافي، فكونها تتوسط العالم خضعت لجميع الإمبراطوريات العالمية؛ حيث كانت لها بذلك تجربة معاناة إنسانية عميقة واحتكاك حضاري متنوع، ما جعل هويتها خلاصة التجربة الإنسانية وتوق الإنسان للعدالة والأمن والتقدم.

إن الهوية الإماراتية ليست بمنأى عن هذه المفاهيم الفلسفية والإنسانية، فهي بهذا تشكل أسلوب حياة بدءاً بالفرد ونهاية بالمجتمع، وتشمل القيم الروحية والفكرية والعادات والتقاليد، والمنجزات الفكرية والثقافية خلال تعاقب الأجيال،

---

(204) نفسه ص 113.

(205) Commager. H. S.: The American Mind, An Interpretation of American Thought, Character. Since the 1880,s: 1950.

(206) Cash, W. J. The mind of the south.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولا نرى أن هناك خلافاً على جميع المستويات الوطنية الإماراتية حول أن الهوية هي الكيان الوجودي للإنسان... إنها المرادف لوجودنا.

إن الحديث والاهتمام بالهوية يبرزان ويتصاعدان في المنعطفات الخطرة للأمم والقوميات والشعوب، وفي إطار السياق التاريخي الذي يحمل متغيرات وتحولات غير مسبوقة بما تحمله من مخاطر تهدد النسيج الوطني والخصوصية الحضارية للمجتمع.

ولا نستطيع أن ننكر هنا الالتباس الذي طرحته الثقافة السياسية العربية المعاصرة في الوعي، والذي نراه في تراتبية الهوية والانتماء، بين الانتماء إلى الدولة أي المواطنة وإلى الأمة، ويبرز هذا الإشكال حول المواطنة إماراتياً في قضية التجنيس التي تنال حظاً كبيراً من النقاشات في سبيل التغلب على الخلل الموجود في التركيبة السكانية؛ ولذا كان من الأصح اعتماد مصطلح الوطن والوطنية والمواطنة أو الهوية الوطنية، فحين التطرق إلى المواطنة يجب عدم المساومة إماراتياً على وحدتي اللغة والدين والولاء كجزء أساسي من روح المواطنة.

ومن أهم تلك المخاطر رياح العولمة، إننا في زمن اختفت فيه الحدود وأصبح العالم قرية؛ لذا يجب تأكيد أن الإنسان بلا تاريخ لا مستقبل له، ومن هنا ناقشت هذه الدراسة الهوية من منطلق وعي الذات قبل التصادم مع الآخر، فمن الممكن جداً الحديث عن عولمة اقتصادية ومعرفية وعلمية... لكن لا يمكننا أبداً الحديث عن عولمة ثقافية لأنها بكل بساطة لا يمكن إلغاء الثقافات والهويات لمصلحة ثقافة أو هوية واحدة، وفي ثقافتنا العربية لا يمكننا الحديث عن هذا الاتجاه مطلقاً لأنه أحد روافد الدين.

ويبرز التحدي الأهم والأكبر وهو الخلل في التركيبة السكانية، إنه الخطر القادم بقوة والذي بدأ بفرض عوامل جديدة، فهذا التحول السكاني يوفر مخاطر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على الهوية فيعرض الموروث الثقافي لعوامل التشويه والتمازج من قبل القيم المجتمعية الأخرى الأمر الذي يشكل خطراً على المواطن الإماراتي وليس على الهوية فقط وأهم التحولات التي يفرضها الخلل في التركيبة السكانية يتجلى فيما يأتي:

- التراجع الكبير الذي أصاب اللغة العربية، وهنا يجب العمل على الارتقاء بلغتنا العربية طبعاً، من دون إهمال اللغات الأخرى وخاصة الإنجليزية التي هي لغة العلوم، علينا أن نصل إلى مرحلة تجعل أبناءنا يفكرون بلغتنا، وتغيير وجهة النظر القائلة إن أولى خطوات التقدم هو التخلي عن لغتنا العربية، فكثير من الأمم المتقدمة تقدمت وتطورت وأصبحت في مصاف الدول الكبرى دون أن تتخلى عن لغتها.

ولنا أن نستشهد بما كتبه عبدالعزيز الدوري في أهمية التعريب في بناء الحضارة العربية وتكوينها، إذ يقول: "إن تكوين الأمة العربية المتحدر بدرجة كبيرة عن التعريب، وإن الهوية العربية ثقافية وليست عنصرية. أي ليست انتماء نسب من سلالات، وإن كان هذا الأخير شغل حيزاً في الأدبيات التاريخية القبلية، إلا أنه لم يكن السائد في الثقافة العربية وتراثها، فقد تقلص حجمه لمصلحة ثقافة إسلامية إنسانية أوسع وأرحب". وهنا يلاحظ الدوري واقع التمايز بين الجغرافيات التاريخية في العالم الإسلامي، فيقرأ خطين فيه: خط التعريب اللغوي- الثقافي الذي شمل مناطق ذات خلفيات أو استعدادات وقابليات للتعريب، وهي المناطق التي أصبحت "بلاداً عربية" وينطبق عليها مفهوم الأمة التراثي (أي الهوية الثقافية العربية = العروبة)، وبين خط الأسلمة المتجاور لها في جغرافية العالم الإسلامي الذي لم يتعرب بسبب عراقة لغات وثقافات أصلية في بعض مناطق كإيران وبلدان آسيوية أخرى".[207]

(207) وجيه كوثراني (الحقول والأزمة في أعمال عبد العزيز الدوري، مركز دراسات الوحدة العربية- حلقة نقاشية حول عبدالعزيز الدوري مكرماً، أوراق وشهادات ص 27-28.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- وهناك أيضاً التأثير السلبي للعمالة الوافدة ونخص بالذكر هنا العمالة المنزلية لسبب احتكاكها المباشر واليومي بأولادنا وتربيتها لهم، وهذا يتطلب تعميق دور الأسرة وزيادة وعيها؛ ذلك أن وزارة العمل (مثلاً) لا تستطيع أن تفرض على المواطنين ألا يستقدموا عمالة منزلية، فالوعي والثقافة الأسرية هما الأساس في تفاعل المواطن مع احتياجاته ومتطلباته.

- إن أحد أبرز التهديدات التي يسببها خلل التركيبة السكانية هو الزواج من أجنبيات؛ لما له من خطورة على المستوى الاقتصادي والاجتماعي، إضافة إلى الاختلاف الثقافي وما يترك من آثار سلبية في الأبناء، فهو السبب في كثير من المشكلات الاجتماعية حيث يسهم في زيادة نسبة العنوسة وارتفاع مستويات الطلاق، والعديد من الأضرار النفسية للأبناء الناتج من التنشئة في بيئة متباينة الثقافة الأمر الذي قد ينعكس انحرافاً سلوكياً.

من هنا يجب علينا مواجهة هذه الظاهرة بإنشاء مكاتب التوجيه للاستشارات الأسرية، والدفع نحو تغيير عادات الزواج وتقاليده ذات التكاليف الباهظة التي تجعل الشباب يحجمون عن الزواج من مواطنات، وكذالك يجب زيادة الاعتمادات المالية لصندوق الزواج، وسن قوانين تحد من هذه الظاهرة.

- إن روح التحديث والتنمية التي تسير بها دولة الإمارات تواجه تحدياً بسبب الخلل في التركيبة السكانية وما يسببه من تحديات للهوية الوطنية الإماراتية، لذلك يستدعي هذا اهتماماً كبيراً بالتراث الإماراتي وتنشيط حضوره على كل المستويات وفي جميع الفعاليات حتى يبقى أبناء الإمارات على صلة بتراثهم وثوابت الشخصية الإماراتية الحضارية، وهذا الاهتمام يقع على عاتق الأجهزة والمؤسسات كافة حتى ينال هذا الموروث الوطني ما يستحقه من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العناية والاهتمام، فمظاهر دعم التراث التي تتجلى في المسوحات الأثرية، أيام الشارقة التراثية، مشروع وطني وفعاليته، تعزز الهوية الوطنية وتعمق قيم الانتماء ومفاهيم المواطنة وتبرز الهوية الحضارية للزائرين والمقيمين فالوطن ليس مجرد كيان جغرافي إنه إنجازات أبنائه.

يجب علينا إبراز كل مقومات الهوية من دين ولغة وقيم أصيلة يحملها شعب الإمارات، كما أن علينا تحطيم أي سور عازل بين ماضينا وحاضرنا وأن نؤكد العلاقة بين هوية البناء المجتمعي الحديث وأصالة الماضي.

- إن الطبيعة الخاصة لدولة الإمارات من حيث كونها صغيرة نسبياً وثرية الموارد تجعل القضية الأمنية تطرح نفسها وبقوة، هي من أكثر القضايا حساسية، وخلل التركيبة السكانية يجعل هذه الهواجس مشروعة على الرغم من أن الإمارات تعتبر من أكثر دول العالم استقراراً"؛ نتيجة السياسة الخارجية الثابتة والمتوازنة التي تتبعها دولة الإمارات، ويبقى الأمن الاقتصادي والاجتماعي ضمن النطاق المسيطر عليه، وذلك بحكم التشريعات والقوانين الدائمة التحديث لمواكبة التغيرات والتحديات التي تمس النسيج الوطني والهوية الوطنية، والخلل الاجتماعي الناتج عن تعدد الإثنيات والعرقيات هو خلل أيضاً يعتبر ضمن الطبيعي، فكلما ازداد عدد السكان ازدادت المشكلات الاجتماعية كالجريمة والمخدرات والانحرافات السلوكية، وفي هذا المجال تبذل دولة الإمارات غاية جهدها للحد من هذه المشكلات؛ وذلك من خلال سن العقوبات الشديدة، ووضع برامج توعوية ذات طابع استراتيجي دائم؛ ومن هنا نستطيع القول: إن المتابعة واستمرار تحصين المجتمع هو الدافع نحو الاستقرار الأمني.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إن هذه التحديات توجب الاهتمام العظيم في سبيل مواجهتها وأن تتبنى الحكومة خطة استراتيجية تسهم فيها كل المؤسسات الحكومية وغيرها، وأن يتعاون جميع أفراد المجتمع في تعزيز وحماية مكونات الهوية الوطنية الأساسية بأهم عناصرها الثابتة اللغة والدين، والمتغير كاللباس الإماراتي والديكور الداخلي في البيوت والعمران المرتبط بالموروث الاجتماعي.

واستشعاراً بمدى عمق المشكلة الناجمة عن الخلل في التركيبة السكانية، أوصى صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس الدولة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي في الثامن عشر من يوليو 2007 بتأسيس اللجنة الوطنية للتركيبة السكانية على أن تكون دائمة ويترأسها وزير الداخلية سمو الشيخ سيف بن زايد، تتولى هذه اللجنة رسم الخطط والسياسات والاستراتيجيات السكانية للدولة بما يتوافق مع المصلحة والثوابت الوطنية، وإجراء مراجعة شاملة لمشروع قانون الهجرة والجنسية والتشريعات المتعلقة بالعمل والعمال.

إن الهوية الوطنية في دولة الإمارات العربية المتحدة تعيش خطراً كبيراً من خلال التحديات التي جئنا على ذكرها في هذه الدراسة، ويجب أخذ هذه التحديات بجدية تامة والتصدي لها وعلاجها، من خلال نشر الوعي الثقافي بين كل أفراد المجتمع بجميع مكونات بنائه مع ترك مساحة حرية للثقافة كي تتنفس وتصبح قادرة على المقاومة والاستمرار، ودعمها بأحدث التقنيات والوسائل العلمية.

إن مبحث الهوية -كي يستوفي كل أبعاده- يجب أن يشمل كل تاريخ الأمة وعطاءاتها وإبداعاتها وكذلك إخفاقاتها ونواقصها فهي "تمثل درجة عالية من الصعوبة والتعقيد والمشاكلة؛ لأنه بالغ التنوع في دلالاته واصطلاحاته" كما ذكر ميكشلي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعلى ذلك فإني أرى أن كل ما كتبته في هذا المؤلف هو غيض من فيض، وقد اكتفيت بتحديد السمة الغالبة على هذه الهوية؛ كيلا أطيل على القارئ في عصر السرعة والعزوف عن القراءة، إضافة إلى أن إيفاء هذا الموضوع حقه، يبدو أمراً معجزاً.

هويتنا أمرٌ ليس لنا فيه خيار، وهي الصفة التي يتعامل فيها معنا الآخرون، والتي لا يفيد نكرانُها، وهي التي تعزز ثقتنا بأنفسنا والتي تمكننا من الاستمرار في الوجود والإحساس بهذا الوجود، لأن اللاانتماء يعني العدمية والضياع، وهويتنا هي مصدر حكمتنا وشجاعتنا ودليل إرشادنا لما فيه خلاصنا وخلاص أولادنا وأحفادنا. وهي قارب نجاتنا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المصادر والمراجع

المراجع العربية:

- **ابن الأثير**: الكامل في التاريخ، تصحيح عبدالوهاب النجار، مصر 1348 هـ.
- **ابن خلدون**: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، المقدمة، المطبعة الأدبية، بيروت 1879م.
- **ابن عساكر**: تاريخ ابن عساكر، دار النشر والسنة.
- **ابن كثير**: قصص الأنبياء، دار القلم، بيروت، 1988م.
- **أبو الحجاج، يوسف**، الملامح العامة لدولة الإمارات العربية المتحدة، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة 1978م.
- **أسعد، محمد توفيق؛ ود. يوسف محمد شراب**، مجتمع الإمارات الأصالة والمعاصرة، مكتبة الفلاح، الكويت 2005م.
- **إسكندر، بشير**، دولة الإمارات، مسيرة اتحاد ومستقبله.
- **أمزيان محمد محمد**: منهج البحث الاجتماعي بين الوضعية والمعيارية، هيورندن، فرجينيا، 1991م.
- **بركات، حليم**، المجتمع العربي المعاصر، بحث استطلاعي اجتماعي 1985م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- **برودل، فرنان:** هوية فرنسا، المركز الفرنسي للثقافة والتعاون، 3 أجزاء القاهرة 1999م.

- **البسام، عبدالعزيز**، السياسة التربوية في دولة الإمارات واقعها واتجاهاتها تطورها مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1982م.

- **البلاذري:** فتوح البلدان، دار الكتب العلمية، بيروت 1983م.

- **بوبيسكو، شيبرد اليزابيت**، آثار الإمارات العربية المتحدة، مركز زايد للتراث والتاريخ.

- **البيطار، نديم:** الأيديولوجية الانقلابية، ط2، دار بيسان بيروت 2002م.

- **البيطار، نديم:** التاريخ كدورات أيديولوجية وفكرة المجتمع الجديد، دار بيسان، بيروت 2002م.

- **التراث الشعبي** في دولة الإمارات العربية المتحدة، لجنة التراث بمركز زايد الأول – العين.

- **تقرير بعثة جامعة الدول العربية** عن زيارتها للإمارات، 10 شباط 1965م.

- **التوراة:** سفر التكوين.

- **جاسم، خزعل مهدي:** التنمية الاقتصادية في دولة الإمارات العربية.

- **جاسم، صباح محمود:** آثارات الإمارات العربية، مركز زايد للتراث والتاريخ.

- **الجميل، سيار كوكب:** المجال الحيوي للخليج العربي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية ط1، أبوظبي، 2003م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- **د. جوانتي ماتيرا:** زايد من التحدي إلى الاتحاد، مركز الوثائق والبحوث، أبوظبي 2007م.

- **حتي، فيليب وآخرون:** تاريخ العرب، دار غندور، ط5، بيروت 1974م.

- **الحلو، سليم:** الموسيقى النظرية- دار مكتبة الحياة، بيروت، ط2، 1972م.

- **الحصري، ساطع:** يوم ميسلون، ط2، دار الاتحاد، بيروت 1963م.

- **حموي، محمد ياسين:** تاريخ الأسطول العربي، 1945م.

- **حنظل، فالح:** المفصل في تاريخ الإمارات، لجنة التراث والتاريخ (جزءان) — دون تاريخ.

- **حيدر، إبراهيم علي:** آثار العمالة الأجنبية على الثقافة العربية، من مجموعة بحوث العمالة الأجنبية في الخليج العربي، بيروت.

- **خريطة زمنية،** معهد الدراسات العليا التابعة لجامعة الدول العربية وزعتها مجلة العربي، يناير 1981م.

- **خصباك، شاكر:** دولة الإمارات العربية المتحدة، دراسة في الجغرافية الاجتماعية.

- **خوري، إبراهيم:** أحمد بن ماجد، رأس الخيمة، مركز الدراسات والوثائق، ج1،(دون تاريخ).

- **الدوري، د. عبدالعزيز:** التكوين التاريخي للأمة العربية، دراسة في الهوية والوعي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1984م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- **الرميحي، محمد غانم**: البترول والتغير الاجتماعي في الخليج العربي، الكويت 1984م.

- **روزنتال، يودين**: الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة بيروت 1974م.

- **الريحاني، أمين**: رحلة حول سواحل الجزيرة العربية، لندن 1930م.

- **زايد والبناء الحضاري**: منشورات ديوان رئيس الدولة، مطبعة الخالدية التجارية، أبوظبي، ط1، 1991م.

- **زحلان، روزماري**: الوحدة والحكم البريطاني، حالة دولة الإمارات العربية المتحدة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1982م.

- **الزغبي، محمد أحمد**: الأسس الاستراتيجية لتطور المجتمع في الخليج العربي – الكتاب الأول – جامعة البصرة 1979م.

- **سالم، عبدالعزيز**: دراسات في تاريخ العرب، ج1، عصر ما قبل الإسلام الإسكندرية 1968م.

تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، دار النهضة، بيروت 1969م.

- **السخني، أحمد علي**: زايد وتأصيل البناء الحضاري، مؤسسة عمون للدراسات والنشر، الأردن – عمان، ط1، 2002م.

- **سويد، ياسين**: مؤامرة الغرب على العرب، المركز العربي للأبحاث والتوثيق بيروت 1992م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- **السويدي، راشد:** عن بيان الشيخة لبنى القاسمي لإحصاء عام 1995م.

- **السيوطي:** تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة السعادة في مصر 1952م.

- **المشاط، عبدالمنعم:** التنشئة السياسية في دولة الإمارات العربية، شؤون اجتماعية، العدد 19، 1988م.

- **الشاهين، سليمان ماجد:** كلمة حول الساحل العربي في الخليج، من محاضرات الموسم الثقافي للفجيرة 1976-1977م.

- **شكارة، عادل عبد الحسين:** التنمية وآثارها على إنسان الخليج المعاصر، من مجموعة البحوث العلمية الثالثة عن الإنسان والمجتمع في الخليج العربي، نشر مركز دراسات الخليج العربي، جامعة البصرة 1979م.

- **شمالي، نصر:** نظام النهب العالمي، دار المستقبل، دمشق 1993م.

- **الصديق، سعيد:** الدولة في عالم متغير، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبوظبي، 2008م.

- **الصائغ، فاطمة:** دراسات في مجتمع الإمارات العربية 2002م.

- **الصرعاوي، عبدالعزيز:** منطقة الخليج العربي في مواجهة تحديات الحاضر والمستقبل محاضرات الموسمين 1974-1975م. الكويت.

- **صن، أمارتيا:** الهوية والعنف، عالم المعرفة، الكويت، يونيو، 2008م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- **ضو، الأب بطرس**: تاريخ الموارنة الديني والسياسي والحضاري، دار النهار، بيروت 1970م.

- **الطبري**: تاريخ الأمم والملوك، طبعة لندن 1881–1884م.

- **طه، منير يوسف**: الإمارات والخليج العربي في العصور القديمة، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات، العين 2002م.

- **عبدالله، محمد مرسي**: دولة الإمارات المتحدة وجيرانها، دار القلم، الكويت 1981م.

- **عبدالملك، عبدالمجيد**: تاريخ الإقطاع في لبنان، المركز العربي للدراسات والتوثيق، بيروت 2000م.

الإنسان والحضارة، جدلية المادة والوعي، دار بيسان، بيروت 2005م.

ساحل بلاد الشام والصراعات الدولية، دار بيسان، جزآن، 2002م، 2007م.

- **عبدالوهاب، أحمد**: دراسات في مجتمع الإمارات العربية – جامعة الإمارات العربية المتحدة، 2002م.

- **العتيبة، مانع سعيد**: البترول واقتصاديات الإمارات العربية المتحدة، الكويت 1977م.

- **العدوي، إبراهيم**: الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم، القاهرة 1958م.

- **العويني، محمد علي**: الراديو والتنمية السياسية، القاهرة 1981م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- **غباش، حسين:** الإمارات والمستقبل وقضايا راهنة، دار الفارابي، بيروت، 2008م.

- **غباش، موزة:** التراث الشعبي في دولة الإمارات العربية، ط2، 2003م.

نحو إطار حضاري للمجتمع العربي في القرن الواحد والعشرين، (جزآن) إعداد وتقديم د. موزة غباش، منشورات عواش بنت حسين الثقافي 1997م.

نظرة التغير الاجتماعي والمشكلات الاجتماعية، دراسات في المجتمع الإماراتي، جامعة الإمارات العربية المتحدة، 2002م.

- **الفارس، عبدالرزاق:** تخطيط القوى العاملة في دولة الإمارات العربية المتحدة، الكويت 1985م.

- **فرجاني، نادر:** أوضاع السكان وقوة العمل في دولة الإمارات.

- **قاسم، جمال زكريا:** الخليج العربي، دراسة لتاريخه المعاصر 1971/1945م.

- **القاسمي، الشيخة لبنى بنت خالد القاسمي:** وزيرة التجارة الخارجية، (بيان).

- **قدورة، د. زاهية:** شبه الجزيرة العربية، كياناتها السياسية، دار النهضة الحديثة بيروت.

- **كالويت، هايكو (فرايبورغ)، آثار، الإمارات العربية المتحدة.**

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- **الكواري، علي خليفة:** نحو استراتيجية بديلة للتنمية الشاملة، الملامح العامة لاستراتيجية التنمية في إطار اتحاد مجلس التعاون، وتكاملها مع بقية الأقطار العربية ط2، بيروت 1986م.

- **كيسويتر، هنريك:** آثار الإمارات العربية المتحدة، شركة ترايدنت برس المحدودة بالتعاون مع مركز زايد للتراث والتاريخ.

- **لبيض، د. سالم:** الهوية، الإسلام، العروبة، التونسة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 2009م.

- **ماجد، عبدالمنعم:** نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، مكتبة الأنجلو المصرية، 1964م.

التاريخ السياسي للدولة العربية، جزآن، مكتبة الجامعة العربية، بيروت 1966م.

العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى مكتبة الجامعة العربية، بيروت 1966م.

- **ماتيرا، د. جوينتي:** زايد من التحدي إلى الاتحاد، مركز الوثائق والبحوث، أبوظبي، 2007م.

- **العلكيم، حسن وآخرون:** قضايا إسلامية معاصرة، العين، مؤسسة العين للنشر والتوزيع، 1990م.

- **المتنبي:** ديوان المتنبي، دار صادر، بيروت ط2، 2000م.

- **الموسوعة الفلسفية العربية.**

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- **ميكشلي، أليكس:** الهوية، ترجمة د. علي وطفة، صادر عن دار النشر الجامعية الفرنسية دمشق 1993م.
- **المكيني، فتحي:** الهوية والزمان، تأويلات فينومينولوجية لمسألة "النحن"، دار الطليعة، بيروت 2001م.
- **الناضوري، د. رشيد:** جنوب غرب آسيا وشمال إفريقيا، مكتبة الجامعة العربية، بيروت 1967م.
- **النبراوي، فتحية، ومحمد نصر مهنا:** الخليج العربي، دراسة في تاريخ العلاقات الدولية والإقليمية منشأة المعارف، الإسكندرية، 1988م.
- **هيتر، ديريك:** تاريخ موجز للمواطنية، دار الساقي، بيروت 2004م.
- **وثائق عابدين:** محفظة رقم 270.
- **وهبة، حافظ:** خمسون عاماً في جزيرة العرب، القاهرة 1960م.

مراجع أجنبية

- Arabia calling, year 1951 – 1952.
- D´ arvieux, liauren: Voyage fait par order du roi louis XIV, paris 1711.
- Atlas historique.
- Berakat, H, the Arab word, society, culture and state .
- Berkley: University of kalifornia press, 1993
- Brinton, Crane, Idea and Men, Printice hall 1950.
- Carter, R: 2002, Ubeid period boat.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- Chiera, La Iutte enter Arabes et Byzantine, Alexandria, 1947.
- Commayer, H. S.: The American Mind, An Interpretation of American Thought, character sinse the 1880's: 1950.
- Cash. W: the plan for Bahrain.
- Floor. W: the plan for Bahrain.
- Feghali, E: Arabic cultural communication patterns International journal of intercultural relations 1997.
- Mann, Abu Dhabi, Birth of an oil Shiekhdom 2edt,. Beirut 1969.
- Morris, claude, The Desert Falcon London, 1974.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner